بسم الله الرحمن الرحيم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الخامس عشر


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي وعميد كلية الشريعة في جامعة دمشق

الجزء الخامس عشر

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٩٢٧
الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلاّ بإذن خطي من دار الفكر المعاصر

لبنان ـ بيروت ـ ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون ، ص . ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٢٩) تلكس : FIKR 44316 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإسراء

مكية ، وهي مئة وإحدى عشرة آية .

تسميتها :

سميت سورة الإسراء لافتتاحها بمعجزة الإسراء للنبي ﷺ من مكة إلى المدينة ليلاً ، كما سميت أيضاً سورة بني إسرائيل ، لإيرادها قصة تشردهم في الأرض مرتين بسبب فسادهم : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ [٤-٨] .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فضلها :

أخرج أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها : « أن النبي ﷺ كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزُّمَر » .

وأخرج البخاري وابن مردويه عن ابن مسعود « أنه قال في بني إسرائيل ـ أي هذه السورة ـ والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء : هن من العِتاق الأُوَل ، وهن من تِلادي » أي فهي مشتركة في قدم النزول ، وكونها مكيات ، واشتمالها على القصص .

مناسبتها لما قبلها :

يظهر وجه ارتباطها بسورة النحل من عدة نواحٍ :

أ ـ إنه تعالى بعد أن قال في آخر سورة النحل : ﴿ إنما جعل السبت على

الذين اختلفوا فيه ﴾ فسّر في هذه السورة شريعة أهل السبت وشأنهم ، وذكر جميع ما شرعه لهم في التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل » .

٢ ـ بعد أن أمر الله نبيه ﷺ بالصبر على أذى المشركين في ختام سورة النحل بنسبته إلى الكذب والسحر والشعر ، سلاّه هنا ، وأبان شرفه وسمو منزلته عند ربه بالإسراء ، وافتتح السورة بذكره تشريفاً له ، وتعظيماً للمسجد الأقصى الذي أشير إلى قصة تخريبه .

٣ ـ في السورتين بيان نعم الله الكثيرة على الإنسان ، حتى سميت سورة النحل « سورة النعم » وفصلت هنا أنواع النعم العامة والخاصة ، كما في الآيات [٩-١٢] و [٧٠] .

٤ ـ في سورة النحل أبان تعالى أن القرآن العظيم من عنده ، لا من عند بشر ، وفي هذه السورة ذكر الهدف الجوهري من ذلك القرآن .

٥ ـ في سورة النحل ذكر تعالى قواعد الاستفادة من المخلوقات الأرضية ، وفي هذه السورة ذكر قواعد الحياة الاجتماعية من بر الأبوين ، وإيتاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم من غير تقتير ولا إسراف ، وتحريم القتل والزنى وأكل مال اليتيم ، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، وإبطال التقليد من غير علم .

مااشتملت عليه السورة :

١ ـ تضمنت السورة الإخبار عن حدث عظيم ومعجزة لخاتم الأنبياء والمرسلين وهي معجزة الإسراء من مكة إلى المسجد الأقصى في جزء من الليل ، والتي هي دليل باهر على قدرة الله عز وجل ، وتكريم إلهي لهذا النبي ﷺ .

٢ ـ وأخبرت عن قصة بني إسرائيل في حالي الصلاح والفساد ، ياعزازهم حال

الاستقامة وإمدادهم بالأموال والبنين ، وتشردهم في الأرض مرتين بسبب عصيانهم وإفسادهم ، وتخريب مسجدهم . ثم عودهم إلى الإفساد باستفزازهم النبي ﷺ ، وإرادتهم إخراجه من المدينة : ﴿ وإن كادوا ليستفزُّونك من الأرضِ ليُخرجوك منها ﴾ [٧٦] .

٣ ـ وأبانت بعض الأدلة الكونية على قدرة الله وعظمته ووحدانيته ، مثل آية ﴿ وجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيتين .. ﴾ [١٢] .

٤ ـ وضعت هذه السورة أصول الحياة الاجتماعية القائمة على التحلي بالأخلاق الكريمة والآداب الرفيعة ، وذلك في الآيات : ﴿ وقَضَى ربُّكَ ألا تَعْبدوا إلا إيّاه .. ﴾ [٢٣ـ٣٩] .

٥ ـ نددت السورة بنسبة المشركين البنات إلى الله زاعمين أن البنات من الملائكة : ﴿ أفأصفاكُمْ ربُّكم بالبنين واتَّخَذ من الملائكةِ إناثاً ، إنكم لَتَقُولُون قَوْلاً عظيماً ﴾ [٤٠] ثم أنكرت عليهم وجود آلهة مع الله [٤١ـ٤٤] ثم فندت مزاعمهم بإنكار البعث والنشور [٤٩ـ٥٢] [٩٨ـ٩٩] وحذرت النبي ﷺ من موافقته المشركين في بعض معتقداتهم [٧٣ـ٧٦] .

٦ ـ أوضحت السورة سبب عدم إنزال الأدلة الحسية الدالة على صدق النبي ﷺ [الآية ٥٩] ، ومدى تعنت المشركين في إنزال آيات اقترحوها غير القرآن من تفجير الأنهار ، وجعل مكة حدائق وبساتين ، وإسقاط قطع من السماء ، والإتيان بوفود الملائكة ، وإيجاد بيت من ذهب ، والصعود في السماء [الآيات ٨٩ـ٩٧] .

٧ ـ أنبأت السورة عن قدسية مهمة القرآن وسمو غاياته : ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يهدِي للتي هي أقومُ ﴾ [٩] ﴿ وننزِّل من القرآنِ ماهو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ﴾ [٨٢] وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله [٨٨] مما يدل على إعجازه .

٨ ـ أعلنت السورة مبدأ تكريم الإنسان بأمر الملائكة بالسجود له وامتناع إبليس [٦١ـ٦٥] وتكريم بني آدم ورزقهم من الطيبات [٧٠] .

٩ ـ عددت أنواعاً جليلة من نعم الله على عباده : [١٢ـ١٧] ثم لوم الإنسان على عدم الشكر : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ..﴾ [٨٣] ومن أخص النعم : هبة الروح والحياة [٨٥] .

١٠ ـ عقدت مقارنة بين من أراد العاجلة ومن أراد الباقية [١٨ـ٢١] .

١١ ـ ذكرت أمر النبي ﷺ بإقامة الصلاة والتهجد في الليل [٧٨ـ٧٩] ودخوله المدينة وخروجه من مكة [٨٠] .

١٢ ـ أشارت إلى جزء من قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل [١٠١ـ١٠٤] .

١٣ ـ أبانت حكمة نزول القرآن منجماً (مفرقاً بحسب الوقائع والحوادث والمناسبات) [١٠٥ـ١٠٦] .

١٤ ـ ختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد ، والناصر والمعين ، واتصاف الله بالأسماء الحسنى التي أرشدنا إلى الدعاء بها [١١٠ـ١١١] .

والخلاصة : إن السورة اهتمت بترسيخ أصول العقيدة والدين كسائر السور المكية ، من إثبات التوحيد ، والرسالة والبعث ، وإبراز شخصية الرسول ﷺ ، وتأييده بالمعجزات الكافية للدلالة على صدقه ، وتفنيد شبهات كثيرة للمشركين .

الإسراء وإنزال التوراة على موسى

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

الإعراب :

﴿ سبحان ﴾ منصوب بفعل مضمر متروك إظهاره ، تقديره : أسبح الله سبحان ، ثم نزل ﴿ سبحان ﴾ منزلة الفعل ، فسدّ مسدّه .

﴿ ليلاً ﴾ منصوب على الظرف .

﴿ ألا تتخذوا ﴾ أي قلنا لهم : لاتتخذوا ، وحذف القول كثير في كلامهم ، وتكون « أن » على هذا زائدة ، ويجوز أن تجعل « أن » بمعنى « أي » فيكون تقديره : وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا ، أي لاتتخذوا ، فيكون ﴿ ألا تتخذوا ﴾ تفسيراً لهدىً . ولا يمتنع أن يكون التقدير : وجعلناه هدىً لبني إسرائيل بألا تتخذوا . وقرئ بالياء ، ويكون المعنى : جعلناه لهم هدى ، لئلا يتخذوا وكيلاً من دوني .

﴿ ذرية ﴾ بالنصب إما بدل من ﴿ وكيلاً ﴾ أو منصوب على النداء ، أو منصوب على أنه مفعول أول لتتخذوا ، و ﴿ وكيلاً ﴾ : المفعول الثاني ، أو منصوب بتقدير : أعني ، أو على الاختصاص . ومن قرأ بالرفع فهو بدل من واو ﴿ ألا تتخذوا ﴾ .

البلاغة :

﴿ سبحان الذي أسرى ﴾ براعة استهلال ؛ لأنه لما كان الإسراء أمراً خارقاً للعادة ، بدأ السورة بما يشير إلى كمال القدرة وتنزهه تعالى عن صفات النقص .

﴿ بعبده ﴾ إضافة تشريف وتكريم .

﴿ لنريه ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم ، لتعظيم تلك البركات الدينية والدنيوية والآيات .

﴿ وآتينا موسى ﴾ التفات أيضاً عن الغيبة إلى الحضور .

المفردات اللغوية :

﴿ سبحان ﴾ اسم علم كعثمان للرجل بمعنى التسبيح (المصدر) الذي هو التنزيه عن كل صفات العجز والنقص ، مما لا يليق بجلال الله وكماله ﴿ أسرى ﴾ وسرى : سار بالليل خاصة ، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة ، وحكمة الإسراء لبيت المقدس : أنه مجمع أرواح الأنبياء ، وموطن نزول الوحي على الرسل والأنبياء ، فشرفه الله بزيارته ، وصلى بالأنبياء إماماً . ﴿ بعبده ﴾ محمد ﷺ ، والعبد يشمل الروح والجسد معاً ، وقد وصفه الله هنا بالعبودية ؛ لأنه أشرف المقامات ، كما وصفه في مقام الوحي بالوصف نفسه : ﴿ فأوحى إلى عبده ماأوحى ﴾ [النجم ٥٣/١٠] وكذلك وصفه بالوصف ذاته في مقام الدعوة : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ [الجن ٧٢/١٩] .

﴿ ليلاً ﴾ فائدة ذكره : الإشارة بتنكيره إلى تقليل مدته ﴿ من المسجد الحرام ﴾ أي مسجد مكة بعينه ؛ لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : « بينا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عند البيت بين النائم واليقظان ، إذ أتاني جبريل بالبراق » . أو المراد به الحرم المكي كله أي مكة ، وسماه المسجد الحرام ؛ لأن كله مسجد ، لما روي أنه ﷺ كان نائماً في بيت أم هانئ ، بعد صلاة العشاء ، فأُسري به ورجع من ليلته ، وقص القصة عليها ، وقال : « مُثِّل لي النبيون ، فصليت بهم ».

﴿ المسجد الأقصى ﴾ بيت المقدس ، ووصف بالأقصى ، لبعده بالنظر لمن هو في الحجاز ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ ببركات الدين والدنيا ؛ لأنه مهبط الوحي ، ومتعبد الأنبياء من لدن موسى عليه السلام ، ومحفوف بالأنهار والأشجار والثمار ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ عجائب قدرتنا ، كذهابه في برهة من الليل ، مسيرة شهر ، ومشاهدته بيت المقدس ، وتمثل الأنبياء عليهم السلام له ، ووقوفه على مقاماتهم ﴿ السميع ﴾ لأقوال النبي ﷺ ﴿ البصير ﴾ بأفعاله ، فيكرمه ويقربه على حسب ذلك ، فاجتمع بالأنبياء ، وعرج إلى السماء ، ورأى عجائب الملكوت ، وناجى ربه تعالى .

وقال ابن عطية : هذا وعيد من الله للكفار على تكذيبهم محمداً ﷺ في أمر الإسراء ، أي هو السميع لما تقولون ، البصير بأفعالكم .

﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ التوراة ﴿ ألا تتخذوا ﴾ أي لئلا تتخذوا ، أو بألا تتخذوا ، أو على ألا تتخذوا ، ومن قرأ بالياء فهو بمعنى : لئلا يتخذوا ﴿ وكيلاً ﴾ رباً أو كفيلاً يفوضون إليه أمرهم ، دون غيره ﴿ من حملنا مع نوح ﴾ في السفينة ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ كثير الشكر ، يحمد الله تعالى في جميع أحواله .

سبب نزول آية الإسراء :

ذكر رسول الله ﷺ لقريش الإسراء به وتكذيبهم له ، فأنزل الله ذلك تصديقاً له .

فبعد أن عاد النبي ﷺ من الإسراء والمعراج ، خرج إلى المسجد الحرام ، وأخبر به قريشاً ، فتعجبوا منه لاستحالة ذلك في نظرهم ، وارتد ناس ممن آمن به ، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، فقال : إن كان قال ، لقد صدق ، فقالوا : تصدقه على ذلك ؟ قال : إني لأصدقه على أبعد من ذلك ، فسمي « الصديق ». واستنعته طائفة سافروا إلى بيت المقدس ، فجُلّي له ، فطفق ينظر إليه ، وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب ، فقالوا : أخبرنا عن عِيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ، وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس ، يقدمها جمل أوْرَق[1] ، فخرجوا ينشدون العير إلى الثنية ، فصادفوا العير ، كما أخبر ، ثم لم يؤمنوا ، وقالوا : ما هذا إلا سحرٌ مبين .

رأي العلماء في الحادث :

الأكثر على أنه أسري بجسده إلى بيت المقدس ، ثم عُرج به إلى السموات ، حتى انتهى إلى سدرة المنتهى ، ولذلك تعجبت قريش واستحالوه .

قال أبو حيان : والظاهر أن هذا الإسراء كان بشخصه ، ولذلك كذبت قريش ، وشنعت عليه ، وحين قص ذلك على أم هانئ قالت : لا تحدّث الناس بها ، فيكذبوك ، ولو كان مناماً ، ما استنكر ذلك ، وهو قول جمهور أهل العلم ، وهو الذي ينبغي أن يعتقد . وحديث الإسراء مروي في المسانيد عن الصحابة في كل أقطار الإسلام ، وذكر أنه رواه عشرون من الصحابة[2] .

(١) الجمل الأورق من الإبل : الذي في لونه بياض إلى سواد ، وهو أطيب الإبل لحماً ، وليس بمحمود عندهم في عمله وسيره .

(٢) البحر المحيط : ٥/٦

وما روي عن عائشة ومعاوية : أنه كان مناماً فلم تثبت صحته ، ولو صح لم يكن في قولها حجة ؛ لأنها لم يشاهدا الحادث ، لصغر عائشة ، وكفر معاوية إذ ذاك ، ولأنها لم يسندا ذلك إلى الرسول ﷺ ، ولا حدثا به عنه .

ومناسبة آية ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ لما قبلها : أنه لما ذكر تشريف النبي ﷺ وإكرامه بالإسراء ، وإراءته الآيات ، ذكر تشريف موسى وإكرامه بإيتائه التوراة من قبله .

التفسير والبيان :

أنزّه الله تنزيهاً من كل سوء ، الذي أسرى بعبده محمد ﷺ في جزء من الليل ، من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس ، وعاد إلى بلده في ليلته ، وأبرئه تبرئة تامة عن كل صفات العجز والنقص وعما يقوله المشركون من وجود شريك أو ولد له ، وأثبت له القدرة الكاملة الفائقة ، فهو القادر على تحقيق ماهو أغرب من الخيال والتصور ، فلا غرابة إن أسرى بعبده تلك المسافة البعيدة في جزء من الزمن غيرَ طويل ، تشريفاً لنبيه ، ورفعاً لقدره وإعلاء لمجده ، ليكون معجزة دائمة له مع مرور الزمان .

والمراد ﴿ بعبده ﴾ بإجماع المفسرين محمد عليه الصلاة والسلام ، وأتى بقوله ﴿ ليلاً ﴾ بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به في بعض الليل ؛ لأن التنكير يدل على معنى البعضية ، والمسافة من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة بحسب وسائط النقل القديمة ، وذلك قبل الهجرة بسنة ، كما قال مقاتل[1] ، وذكر الحربي : أنه أسري به ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخرة قبل الهجرة بسنة .

---

(١) وهو قول الزهري وعروة ، فيكون الإسراء في شهر ربيع الأول . وأورد الحافظ عبد الغني بن سرور المقدسي في سيرته حديثاً لا يصح سنده أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب (البداية والنهاية لابن كثير : ٣/١٠٨ ـ ١٠٩).

وروى ابن سعد في طبقاته أن الإسراء كان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً .

والمكان الذي أسري به منه : هو المسجد الحرام بعينه ، كما يدل عليه ظاهر لفظ القرآن ، وما روي عنه ﷺ أنه قال : « بينا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عند البيت ، بين النائم واليقظان ، إذ أتاني جبريل بالبراق ».

وقال الأكثرون : المراد بالمسجد الحرام : الحرم ؛ لإحاطته بالمسجد ، والحرم كله مسجد ، كما قال ابن عباس ، وقد أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب سنة ٦٢١ م .

والمسجد الأقصى بالاتفاق : هو بيت المقدس ، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام ، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة .

والأكثرون من المسلمين اتفقوا على أنه أسري بجسد رسول الله ﷺ . وفي رأي ضعيف : أنه ما أسري إلا بروحه ، وذلك محكي عن حذيفة وعائشة ومعاوية . والأصح هو الرأي الأول وأنه تعالى أسرى بروح محمد ﷺ وجسده ، من مكة إلى بيت المقدس ، لأن كلمة العبد في قوله : ﴿ بعبده ﴾ اسم للجسد والروح ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً لمجموع الجسد والروح ، ولأن الخبر المروي عن أنس بن مالك وهو الحديث المشهور المروي في الصحاح عن المعراج والإسراء يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ، ثم منه إلى السموات العلا .

والخلاصة : أن الآية هنا دالة قطعاً على إثبات الإسراء ، وآية سورة النجم دالة على المعراج : وهو العروج والصعود إلى السموات ، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، بعد وصوله إلى بيت المقدس .

وقد وصف الله المسجد الأقصى بأنه مبارك ما حوله ، والبركة تشمل بركات

الدين والدنيا ، أما الأولى فهو أنه مهبط الأنبياء ، وأما الثانية فهو إحاطته بخيرات الدنيا ، لما اشتمل عليه من أنهار وأشجار وأثمار تكون سبباً في توفير المعايش والأقوات .

والهدف من الإسراء : أن يري الله عبده آياته الكبرى ، وأدلته العظمى على وجوده ووحدانيته وعظم قدرته ، فكانت فائدة الإسراء مختصة بالله تعالى وعائدة إليه على سبيل التعيين .

ولا عجب في ذلك كله ، فالله سبحانه هو السميع لكل قول ، البصير بكل نفس ، الذي يضع الأمور في مواضعها على وفق الحكمة ، وبمقتضى الحق والعدل . ومن ذلك : سماعه أقوال المشركين وتعليقاتهم على حادث الإسراء واستهجانهم لوقوعه ، واستهزاؤهم بالنبي ﷺ في إسرائه من مكة إلى القدس . وبصره بما يفعل أولئك المشركون ، وبما يكيدون لنبي الله ورسالته[1] .

﴿ وآتينا موسى الكتاب .. ﴾ بعد أن ذكر الله إكرام محمد ﷺ من نسل إسماعيل بالإسراء وإمامة الأنبياء في المسجد الأقصى ، ذكر في هذه الآية إكرام موسى عليه السلام قبل محمد ﷺ بالكتاب الذي آتاه وأعطاه إياه ، وهو التوراة ، الذي جعله الله هدى وهداية ، ليخرج بني إسرائيل بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والدين الحق ، وقلنا : لا تتخذوا من دوني وكيلاً ، أي لا تتخذوا من دون الله وكيلاً تفوضون إليه أموركم ، فقوله : ﴿ وكيلاً ﴾ معناه : رباً تكلون إليه أموركم .

---

(١) يلاحظ أن الاية انتقل فيها من الغيبية إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبية ، فقوله ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ في ذكر الله على سبيل الغيبة ، وقوله : ﴿ باركنا حوله لنريه من آياتنا ﴾ انتقال إلى الحضور ، وقوله : ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ يدل على الغيبة . ثم انتقل إلى الحضور بقوله : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ يدل على الحضور أي الخطاب . وهذا يسمى الالتفات .

وبين الإسراء بمحمد ﷺ إلى بيت المقدس ، وإيتاء موسى التوراة بمسيره إلى الطور تناسب واضح .

ثم أبان الله تعالى تشريفه لبني إسرائيل وإتمام نعمته عليهم ، لحملهم على اتباع الرسل ، فقال : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ..﴾ أي ياذرية أو نسل وحفدة أولئك الذين نجاهم الله من الغرق مع نوح ، وهداهم إلى طريق التوحيد والحق والخير ، تشبَّهوا بأصولكم ، فأنتم أولى الناس بالتوحيد واتباع سيرة الأنبياء والمرسلين ، وفي مقدمتهم أبوكم نوح عليه السلام الذي كان عبداً مبالغاً في الشكر لنعم الله وعرفان قدره وعظمته ، وإنما يكون العبد شكوراً إذا كان موحداً لا يرى حصول شيء من النعم إلا من فضل الله ، فاقتفوا أثره ، واتبعوا منهجه وسنته ، واقتدوا به كما أن آباءكم اقتدوا به .

ووصف نوح بكونه ﴿ عبداً ﴾ ووصف نبينا محمد بأنه « عبد » دليل واضح على مرتبة الأنبياء ، وهي مرتبة العبودية الخالصة لله ، فإن معجزة الإسراء والمعراج الخارقة لا يصح وصفها بغير حقيقتها ، ولا وضع النبي ﷺ في منزلة تتجاوز موضعه الحقيقي وهو كونه عبداً لله ، أي خاضعاً لعزة الله وسلطانه ، خلافاً لما وصفت به النصارى المسيح ، ووضعوه في غير موضعه الصحيح .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على مايأتي :

١ ـ ثبوت حادثة الإسراء بنص القرآن الكريم بدلالة قطعية ، وثبت الإسراء أيضاً في جميع مصنفات الحديث ، وروي عن عشرين صحابياً ، فهو من المتواتر .

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتيت بالبُراق ـ وهو دابة ، أبيض طويل فوق الحمار ، ودون البغل ،

يضع حافره عند منتهى طَرْفه ـ قال : فركبتُه حتى أتيتُ بيت المقدس ، فربطتُه بالحَلْقة التي يربطُ بها الأنبياء ، ثم دخلتُ المسجد ، فصليتُ فيه ركعتين ، ثم خرجتُ ، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر ، وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل عليه السلام : اخترتَ الفطرة ، ثم عُرج بنا إلى السماء ..» الحديث .

وروى مسلم أيضاً حديثاً آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلى بالأنبياء عليهم السلام وفيه : «.. فأَمَمْتُهم ، فلما فرغتُ من الصلاة ، قال لي قائل : يامحمد ، هذا مالِكٌ صاحب النار ، فسلِّمْ عليه ، فالتفتُّ إليه ، فبدأني بالسلام » .

٢ ـ كان الإسراء بالروح والجسد يقظة راكباً البراق ، لا في الرؤيا والمنام ، بدليل نص الآية ﴿ بعبده ﴾ وهو مجموع الروح والجسد ، ولو كان مناماً لقال : « بروح عبده » ولم يقل : ﴿ بعبده ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ما زَاغَ البصرُ وما طَغَى ﴾ [النجم ١٧/٥٣] يدل على ذلك ، ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما قالت له أم هانئ : لا تحدِّث الناس فيكذبوك ، ولا فضّل أبو بكر بالتصديق ، ولما أمكن قريشاً التشنيع والتكذيب ، وقد كذبته قريش فيما أخبر به ، حتى ارتدّ أقوام كانوا آمنوا ، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر[١] .

وأما المعراج أو العروج إلى السموات وإلى ما فوق العرش ، فلا تدل هذه الآية عليه ، وإنما تدل عليه أوائل سورة النجم[٢] .

والخلاصة : إن تلك الرؤيا لمحمد ﷺ كانت رؤيا عيان ، لا رؤيا منام .

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٠٨/١٠ ـ ٢٠٩

(٢) تفسير الرازي : ١٥٣/٢٠

وتاريخ الإسراء مختلف فيه ، والظاهر أنه كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة .

ولا خلاف بين العلماء وأهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج بالنبي ﷺ إلى السماء ، وذلك منصوص عليه في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما[1] . وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت ، فروى البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « فرض الله الصلاة ـ حين فرضها ـ ركعتين ، ثم أتمها في الحَضَر ، وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى » .

وروى مسلم وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : « فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحَضَر أربعاً ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة » .

٣ ـ إن المقصود من الإسراء والمعراج أن يري الله نبيه الآيات العظمى الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته ، ومن تلك الآيات : الجنة والنار واحوال السموات والكرسي والعرش ، فيصبح العالم في عينه حقيراً أمام عظمة الكون ، وتقوى نفسه على احتمال المكاره والجهاد في سبيل الله . ومن تلك الآيات التي أراه الله العجائب التي أخبر بها النبي الناس ، وإسراؤه في ليلة ، وعروجه إلى السماء ، ووصفه الأنبياء واحداً واحداً ، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره .

كما أن في الإسراء من مكة إلى بيت المقدس الإشارة إلى وحدة الأنبياء في الرسالة والهدف والتوجه إلى الله تعالى وحده ، وإن اختلفت القبلتان ، وتمايزت الشرائع ، وتمادى الزمان في فترات إرسال الأنبياء عليهم السلام ، فهم من أولهم آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ دعاة إلى توحيد الله وعبادته وإلى إصلاح

(١) جامع الأصول : ١٣١/٦

الإنسان والمجتمع ، وإسعاد الفرد والجماعة ، وتصحيح مسيرة الناس قاطبة على أساس من الحق والعدل والاستقامة والأخلاق السوية .

٤ ـ كرّم الله محمداً ﷺ بالإسراء والمعراج ، وكرم موسى عليه السلام بالكتاب وهو التوراة الذي جعله الله هدى وهداية لبني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان بالله تعالى وحده ، وتحريم اتخاذ ربّ سواه يتوكلون عليه في أمورهم . والوكيل : من يوكل إليه الأمر .

٥ ـ ثم نادى الله سبحانه البشرية قاطبة بأن ينضموا جميعاً تحت راية واحدة هي راية الإيمان بالله تعالى وحده ، قائلاً : ياذرية من حملنا مع نوح ، وهم جميع من على الأرض ، ومنهم موسى وقومه من بني إسرائيل : لاتشركوا مع الله إلهاً آخر .

وذكر الله تعالى نوحاً لتذكير البشرية بنعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم . .

ومقصود الآية : إنكم أيها البشر من ذرية نوح ، وقد كان عبداً شكوراً موحداً الله تعالى ، مقراً بآلائه ونعمه عليه ، ولا يرى الخير إلا من عنده ، فأنتم أحق بالاقتداء به ، دون آبائكم الجهال .

ويمكن مما ذكر تلخيص العظات والحقائق التالية :

أولاً ـ أدى حادث الإسراء والمعراج في ليلة واحدة إلى تمحيص المؤمنين ، وتبيان صادق الإيمان ، ومريض القلب منهم .

ثانياً ـ كان إطلاع الله رسوله ﷺ على آيات الكون الأرضية والسماوية ذات العجائب درساً واقعياً لتعليم الرسول بالمشاهدة والنظر ، ومن المعلوم أن التعليم المحسوس أوقع في النفس ، وأرسخ في الذهن .

ثالثاً ـ إن بشرية النبي ﷺ واحتياجه إلى الهواء في طبقات الجو والسموات

العليا والملأ الأعلى لم تمنع من إتمام تلك الرحلة ، لأن قدرة الله تعالى كفيلة بتوفير حاجياته ومتطلباته ، كما يزود الآن رواد الفضاء بالأكسجين .

وإن في غزو الفضاء الآن لدليلاً مؤكداً على صحة الإسراء والمعراج ، وأن محمداً ﷺ هو أول رواد الفضاء ، وأنه تجاوز أسرع ما توصلت إليه محطات الفضاء .

رابعاً ـ إن جمع الأنبياء في المسجد الأقصى وإمامة نبينا بهم دليل واضح على وحدة رسالاتهم وختمها برسالة النبي ﷺ ، وبلورتها وانصبابها في شريعته التي ختمت الشرائع السالفة .

أحوال بني إسرائيل في التاريخ

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

الإعراب :

﴿ خلال الدّيار ﴾ ظرف مكان منصوب ، وعامله ﴿ جاسوا ﴾ وقرئ : جاسوا وداسوا وهما بمعنى واحد ، وحاسوا .

﴿ وعد الآخرة ﴾ أي المرة الآخرة ، فَحُذف الموصوف ، وأقيمت الصفة مقامه .

﴿ وليتبّروا ماعلوا ﴾ ﴿ ما ﴾ : مصدرية ظرفية زمانية ، أي وليتبّروا مدّة علوهم ، فحذف المضاف ، كقولك : أتيتك مَقْدِم الحاج ، أي زمن مقدم الحاج ، فحذف المضاف .

البلاغة :

﴿ ولتعلُنّ علوّاً ﴾ جناس اشتقاق .

﴿ أحسنتم ﴾ ﴿ أسأتم ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ وقضينا ﴾ أعلمناهم وأخبرناهم بذلك من طريق الوحي . ﴿ في الكتاب ﴾ التوراة . ﴿ لتفسدنّ في الأرض ﴾ أرض الشّام بالمعاصي ، وهو جواب قسم محذوف . ﴿ مرّتين ﴾ من الإفساد ، أولاهما ـ مخالفة أحكام التوراة وقتل أشعيا ، وثانيتهما ـ قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى . ﴿ ولتعلنّ علوّاً كبيراً ﴾ لتستكبرنّ عن طاعة الله تعالى ، وتبغون بغياً عظيماً ، وتظلمون الناس .

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أولى مرّتي الفساد ، ووعد عقاب أولاهما . ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ أصحاب قوة في الحرب والبطش ، وهم بختنصّر وجنوده ، وقيل : جالوت الخزري ، وقيل : سنحاريب ملك بابل وجنوده . ﴿ فجاسوا خلال الدّيار ﴾ تردّدوا وسط دياركم لطلبكم وقتلكم وسبيكم ، فقتلوا الكبار ، وسبوا الصغار ، وأحرقوا التوراة ، وخرّبوا المسجد الأقصى وبيت المقدس . ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ وكان وعد عقابكم نافذاً ، لابدّ منه .

﴿ الكرّة ﴾ الدّولة والغلبة . ﴿ عليهم ﴾ بعد مئة سنة بقتل جالوت . ﴿ نفيراً ﴾ عشيرة . ﴿ إن أحسنتم ﴾ بالطاعة . ﴿ أحسنتم لأنفسكم ﴾ لأن ثوابه لها . ﴿ وإن أسأتم ﴾ بالفساد . ﴿ فلها ﴾ إساءتكم ، ووبالها عليها . ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أي جاء وعد المرة الآخرة . ﴿ ليسوؤا وجوهكم ﴾ أي بعثناهم ليسوؤا وجوهكم ، أي ليجعلوها بادية آثار السوء فيها ، بأن يحزنوكم بالقتل والسّبي حزناً يظهر في وجوهكم رحذف ﴿ بعثناهم ﴾ لدلالة ماذكر أولاً عليه . ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ بيت المقدس فيخربوه ، وهو متعلّق بمحذوف هو : بعثناهم . ﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ كما خربوه أول مرة . ﴿ وليتبّروا ﴾ يهلكوا . ﴿ ماعلوا ﴾ ماغلبوا عليه أو استولوا عليه من بلادكم ، أو مدة علوهم . ﴿ تتبيراً ﴾ هلاكاً ، وذلك بأن سلّط الله عليهم الفرس ، مرة أخرى ، فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ، اسمه : جوذرز أو خردوس ، وقتل منهم ألوفاً ، وسبى ذريّتهم ، وخرّب بيت المقدس .

﴿ عسى ربّكم أن يرحمكم ﴾ أي وقلنا في الكتاب : عسى ربّكم ، بعد المرة الثانية ، إن تبتم .

﴿ وإن عدتم ﴾ إلى الفساد . ﴿ عدنا ﴾ إلى العقوبة ، وقد عادوا بتكذيب محمد ﷺ ، فسلّط عليهم بقتل قريظة ، ونفي بني النضير ، وفرض الجزية عليهم . ﴿ حصيراً ﴾ محبساً وسجناً ، لا يقدرون على الخروج منها أبداً ، وقيل : بساطاً ، كما يبسط الحصير .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى إنعامه على بني إسرائيل بإنزال التوراة عليهم ، لتكون لهم هدى يهتدون بها ، ذكر أنهم ماتبعوا هداها ، بل أفسدوا في الأرض بقتل الأنبياء وسفك الدّماء ، فسلّط الله عليهم البابليين بقيادة بختنصّر ، فقتلوهم ونهبوا أموالهم ، وخربوا بيت المقدس ، وسبوا أولادهم ونساءهم ، وذلك أول الفسادَيْن وعقابه .

ثم لما تابوا ، أعاد الله لهم الدولة والغلبة ، وأمدّهم بالأموال والبنين ، ثم عادوا إلى فسادهم وعصيانهم ، فقتلوا زكريا ويحيى عليهما السّلام ، فسلّط الله عليهم الفرس ، فقتلوهم ، وسلبوهم ، وخربوا بيت المقدس مرة أخرى ، ثم وعدهم الله بالنصر إن أطاعوا ، وبالعقاب بنار جهنم إن عصوا وأفسدوا .

التفسير والبيان :

هذه الآيات بيان لتاريخ بني إسرائيل وإخبار عما يرتكبون من وقائع وأحداث دامغة ، ومفاسد عظيمة ، والمعنى : وأعلمنا بني إسرائيل وأخبرناهم وأوحينا إليهم وحياً مقضيّاً مقطوعاً بحصوله فيما أنزلناه في التوراة على موسى أنهم سيفسدون في الأرض : أرض الشام وبيت المقدس أو أرض مصر ، أو في كلّ أرض يحلّون فيها مرتين ، ويعصون الله ، ويخالفون شرع ربّهم في التوراة مخالفتين لا مخالفة واحدة ، وهما :

الأولى ـ مخالفة التوراة وتغييرها ، وقتل بعض الأنبياء ، مثل شعيا عليه السّلام ، وحبس إرْميا حين أنذرهم سخط الله تعالى .

والثانية ـ قتل زكريا ويحيى ومحاولة قتل عيسى عليهم السّلام .

ثم إنهم يتجبّرون ويطغون ويفجرون ويستعلون على الناس بغير الحق استعلاءً عظيماً ، ويظلمونهم ظلماً شديداً ، فقوله تعالى : ﴿ علوّاً كبيراً ﴾ أراد به التكبر والبغي والطغيان .

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما .. ﴾ أي فإذا حان موعد أولى المرتين من الإفساد ، وجاء وعد الفساق ووقت العقاب الموعود به على المرة الأولى ، سلّطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد ، أي قوة وشدّة وأصحاب عدّة في الحروب وعدد ، وهم أهل بابل بقيادة بُخْتَنَصّر ، حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه ، كما قال ابن عباس وغيره . وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم ، فهو وقومه أولو بأس شديد . وقال مجاهد : هم جند من فارس ، والظاهر الرأي الأول ، والمهم العبرة والعظة من تسلُّط فئة قوية على فئة باغية ، ولا يهم بيان الأشخاص والجماعات .

﴿ فجاسوا خلال الدّيار .. ﴾ ، أي أوغلوا في البلاد وتملكوها ، وتردّدوا فيها وفي أوساطها ذهاباً وإياباً ، لا يخافون أحداً ، يقتلون ويسلبون وينهبون ، ويقتلون العلماء والكبراء ، وكان من آثارهم إحراق التوراة ، وتخريب بيت المقدس ، وسبي عدد كثير من بني إسرائيل ، وكان ذلك وعداً منجزاً نافذاً ، وقضاءً كائناً لا خلف فيه ، أو قضاء حتماً جزماً لا يقبل النقض والنسخ ؛ لأنهم تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء .

وكان هذا الدّرس القاسي البليغ محقّقاً الثّمرة والغاية ، فاتّعظ بنو إسرائيل بما حدث ، وثابوا لرشدهم ، وعدلوا عن غيّهم وضلالهم ، وتمسّكوا بمبادئ كتابهم ودينهم ، فكان ذلك مؤذناً بنصر جديد كما قال تعالى :

﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم .. ﴾ أي ثم أعدنا لكم الدولة والغلبة عليهم ،

ورددنا لكم القوة ، وأهلكنا أعداءكم ، وجعلناكم أكثر نفيراً ، أي عدداً من الرجال ، وأمددناكم بالأموال والأولاد والسّلاح بفضل طاعة الله والاستقامة على أمره : ﴿ وتلكَ الأيّامُ نُداولُها بين النّاسِ ﴾ [آل عمران ١٤٠/٣] ولذا قال تعالى :

﴿ إن أحسنْتُم أحسنْتُم لأنفسِكم .. ﴾ أي إن أحسنتم العمل ، فأطعتم الله واتّبعتم أوامره واجتنبتم نواهيه ، أو إن أحسنتم بفعل الطاعات ، فقد أحسنتم إلى أنفسكم ؛ لأنكم بالطاعة تنفعونها ، فيفتح الله عليكم أبواب الخيرات والبركات ، ويدفع عنكم أذى أهل السوء في الدُّنيا ، ويثيبكم في الآخرة ، وإن أسأتم بفعل المحرّمات أسأتم إلى أنفسكم ؛ لأنكم بالمعصية تضرّونها ، فبشؤم تلك المعاصي يعاقبكم الله بالعقوبات المختلفة ، من تسليط الأعداء في الدُّنيا ، وإيقاع العذاب المهين في الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ فلها ﴾ أي فعليها ، كما قال تعالى : ﴿ من عَمِلَ صالحاً فلنفسِهِ ، ومن أساءَ فعلَيْها ﴾ [فصلت ٤٦/٤١] .

وهذه سنّة الله في خلقه ، إن عصوا سلّط الله عليهم القتل والنّهب والسّبي ، وإن تابوا أزال عنهم تلك المحنة ، وأعاد لهم الدولة ، ﴿ جزاءً وِفاقاً ﴾ [النبأ ٢٦/٧٨] ، ﴿ وما ربُّكَ بظلاّمٍ للعبيدِ ﴾ [فصلت ٤٦/٤١] .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة .. ﴾ أي فإذا حان موعد المرة الأخيرة ، وجاء وقت العقاب على الكرة الثانية من الإفساد والإقدام على قتل زكريا ويحيى عليهما السّلام ، أرسلنا أعداءكم ليسوؤا وجوهكم ، أي ليظهروا المساءة في وجوهكم بالإهانة والقهر ، وليدخلوا المسجد ، أي بيت المقدس قاهرين ، كما دخلوه في أول مرة للتخريب والتدمير وإحراق التوراة ، ﴿ وليتبّروا ﴾ ، أي يدمّروا ويخرّبوا ، ﴿ ما علوا ﴾ ، أي ظهروا عليه ، ﴿ تتبيراً ﴾ ، أي تخريباً وهلاكاً شديداً ، فلا يبقون شيئاً من آثار الحضارة والعمران ، ويبيدون الأرض ومن عليها ، ويهلكون الحرث والزرع والثمر ، وقد سلّط الله عليهم في هذه المرة

الفرس ، فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف المسمى بيردوس أو خردوس ، كما ذكر البيضاوي .

والخلاصة : إن بُخْتُنَصَّر هو الذي أغار على بني إسرائيل أولاً فخرَّب بيتَ المقدس ، وكان ذلك في زمن إرْميا عليه السّلام ، وهذا موافق لتاريخ اليهود ، أما في المرة الثانية فإن المغير هو بيردوس ملك بابل ، كما ذكر البيضاوي ، وهو أسبيانوس ، قيصر الروم كما ذكر اليهود في تاريخهم ، وكان بين الإغارتين نحو من خمس مئة سنة .

ثم فتح الله تعالى باب الأمل أمامهم مرة أخرى ، فقال : ﴿ عسى ربّكم أن يرحمكم ﴾ أي لعل ربّكم أن يرحمكم يابني إسرائيل ، ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم في المرة الثانية من تسليط الأعداء عليكم ، إن تبتم وأقلعتم عن المعاصي ، فيصرفهم عنكم ، وقد وفى الله بوعده ، فأعزّهم بعد الذّلة ، وأعاد لهم الملك ، وجعل منهم الأنبياء .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثم أنذرهم الله بقوله : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ ، أي وإن عدتم إلى الإفساد والمعاصي في المرة الثالثة ، عدنا إلى إذلالكم ، وتسليط الأعداء عليكم وعقوبتكم بأشدّ مما مضى في الدُّنيا ، مع ماندخره لكم في الآخرة من العذاب والنّكال ، ولهذا قال تعالى :

﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ ، أي مستقرّاً وسجناً لا محيد عنه ، كما قال ابن عباس ، وقال الحسن البصري : فراشاً ومهاداً وبساطاً ، كما قال تعالى : ﴿ لهمْ من جَهَنَّمَ مهادٌ ، ومن فوقِهم غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف ٤١/٧] ولأن العرب تسمّي البساط الصغير حصيراً .

والخلاصة : إن لبني إسرائيل بسبب عصيانهم ذلّ الدُّنيا وعذاب جهنّم في الآخرة . وهذا عبرة لكلّ مخالف أوامر الله تعالى .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات الكريمة إلى ما يأتي :

١ ـ صدق إخبار الله لبني إسرائيل أنهم سيقدمون على الفساد والمعاصي ، لما علم الله منهم في علمه السابق الأزلي أنهم أرباب انحراف وفساد وتخريب ، والمراد بالفساد : مخالفة أحكام التوراة .

٢ ـ تكرر العقاب مرتين والإنقاذ من العذاب والذلّ مرتين أيضاً فيه رحمة من الله بعباده ؛ لأن العقاب قد يكون سبيلاً للإصلاح والتربية والتهذيب ، ولأن التغلّب على الأزمات والتخلّص من المهانة والإذلال فيه تجديد للنفس ، وعون على فتح باب الأمل ، وطرد اليأس من النفوس .

وقد عوقب اليهود أولاً على يد بختنصّر ، وثانياً على يد ملك بابل : بيردوس الفارسي ، أو قيصر الروم ؛ لأنهم في المرة الأولى قتلوا إرْميا أو شَعْيا نبي الله عليه السّلام وجرحوه وحبسوه ، وفي المرة الثانية قتلوا يحيى وزكريا عليهما السّلام قتلهما هيردوس أو لاخت أحد ملوك بني إسرائيل ، وعزموا على قتل عيسى عليه السّلام ، وكان العقاب شديداً في الحالتين ، ومن أهم صنوفه إحراق التوراة وهدم بيت المقدس .

وكانت النّجاة بإعادة العزّة والدّولة لبني إسرائيل كما كانت بالإمداد بالأموال والبنين ، وجعلهم أكثر عدداً ورجالاً من عدوّهم ؛ لأنهم صاروا بعد الهزيمة الأولى أكثر التزاماً للطاعة وأصلح أحوالاً ، جزاء من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة .

٣ ـ إن نفع الإحسان والاستقامة على الطاعة لله عائد للإنسان نفسه ، وكذلك سوء الإساءة ومخالفة أوامر الله مردود للإنسان ذاته : ﴿ وما الله يريدُ

ظُلْماً للعبـــادِ ﴾ [غـافر ٣١/٤٠] ، ﴿ ومـــا الله يريـــدُ ظُلْمـــاً للعـــالمين ﴾ [آل عمران ١٠٨/٣] .

٤ ـ تشير آية ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ إلى أن رحمة الله تعالى غالبة على غضبه ؛ لأنه تعالى لما حكى عنهم الإحسان أعاده مرتين فقال : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ ولما حكى عنهم الإساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال تعالى : ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ ولولم يكن جانب الرّحمة غالباً ، لما فرق بين التعبيرين[1] .

أكّد تعالى ذلك بقوله : ﴿ عسى ربّكم أن يرحمكم ﴾ فهو وعد من الله بكشف العذاب عنهم إن تابوا وأنابوا إليه .

٥ ـ إن عدل الله يقضي بأن من عاد إلى العصيان عاد الله إلى عقابه : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ ومن عاد إلى التوبة والرّشد والهداية والاستقامة عادت رحمة الله إليه : ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ .

٦ ـ ليس عذاب العصاة مقصوراً على الدّنيا بالإذلال والإهانة والقتل والنّهب والسّبي ، وإنما هناك عذاب آخر ادّخره الله لهم في جهنّم ، بإحاطة نارها بهم ، وجعلها مقرّاً ومَحْبساً وسجناً لهم ، أو مهاداً وفراشاً وبساطاً .

٧ ـ إن ذكر ماقضي إلى بني إسرائيل دليل على نبوة محمد ﷺ ، لمطابقة ما أخبر به القرآن الواقع الحادث .

(١) تفسير الرازي : ١٥٨/٢٠

أهداف القرآن الكريم

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ۝١١

الإعراب :

﴿ ويدعُ الإنسان بالشّرّ دعاءه بالخير ﴾ فيه حذف ، أي ويدعو الإنسان بالشّر دعاءً مثل دعائه بالخير ، ثم حذف المصدر وصفته ، وأقيم ما أضيفت الصفة إليه مقامه .

المفردات اللغوية :

﴿ يهدي للتي هي أقوم ﴾ يهدي إلى الطريقة التي هي أعدل وأصوب . ﴿ وأن الذين لا يؤمنون .. ﴾ عطفاً على ﴿ أن لهم أجراً كبيراً ﴾ أي يبشّر المؤمنين ببشارتين : ثوابهم وعقاب أعدائهم ، أو عطفاً على ﴿ يبشّر ﴾ بإضمار : ويخبر أن ﴿ أعتدنا ﴾ أعددنا . ﴿ أليماً ﴾ مؤلماً هو النار . ﴿ ويَدْعُ الإنسان بالشّرّ ﴾ أي يدعو عند غضبه بالشّر على نفسه وأهله وماله . ﴿ دعاءه بالخير ﴾ أي كدعائه له . ﴿ وكان الإنسان ﴾ جنس الإنسان . ﴿ عجولاً ﴾ بالدعاء على نفسه ، وعدم النّظر في عاقبته .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى ما أكرم به محمداً ﷺ وهو الإسراء وأكرم موسى عليه السّلام بالتوراة ، وأنها هدى لبني إسرائيل ، وماسلط عليهم بذنوبهم من عذاب الدُّنيا والآخرة ، مما يستدعي ردع العقلاء عن معاصي الله ، ذكر ماشرّف الله به رسوله أيضاً من القرآن الناسخ لحكم التوراة وكل كتاب إلهي ، وأبان أهدافه من الهداية للطريقة أو الحالة التي هي أقوم ، والتّبشير بالثواب العظيم لمن أطاعه ، وإنذار الكافرين بالعذاب الأليم .

التفسير والبيان :

لم لاتؤمنون بالقرآن يابني إسرائيل ، والقرآن كالتوراة أنزله الله على رسوله محمد ﷺ ، وهو متّصف بثلاث صفات :

الصفة الأولى :

أنه يرشد للسبيل التي هي أقوم ، فهو يهدي لأقوم الطرق وأوضح السُّبل ، وإلى الطريقة المثلى التي هي الدِّين القيِّم ، والملّة الحنيفية السمحة التي تقوم على أساس التوحيد الخالص لله ، وأنه الفرد الصمد ، صاحب الملك ، والعزّة والجبروت ، المعزّ المذلّ الذي يحيي ويميت ، وتدعو إلى فضائل الأعمال ، وإلى خيري الدُّنيا والآخرة . فقوله تعالى : ﴿ للتي هي أقوم ﴾ معناه : الطريقة التي هي أسدّ وأعدل وأصوب .

الصفة الثانية :

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أنه يبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً يوم القيامة ، جزاء عملهم .

الصفة الثالثة :

أنه ينذرُ الذين لا يصدقون بوجود الله ووحدانيته ، ولا بالمعاد والثواب والعقاب ، ولا يعملون الخير بأن لهم عذاب جهنم ، جزاء ماقدمت أنفسهم .

والمعنى أنه تعالى بشّر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم ، وإطلاق البشارة على البشارة بالعذاب من قبيل التهكُّم ، كما في قوله تعالى : ﴿ فبشِّرْهم بعذابٍ أليمٍ ﴾ [آل عمران ٣/٢١] ، أو من إطلاق اسم الشيء على ضدّه ، كقوله تعالى : ﴿ وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلُها ﴾ [الشورى ٤٢/٤٠] .

وبعد أن بيَّن الله تعالى لبني إسرائيل وغيرهم صفات الهادي وهو القرآن ، بيَّن حال المهدي وهو الإنسان ، ليقوي الترابط بينهما ، ويدلّ على وحدة المهديين بالكتب السماوية ، فقال تعالى :

﴿ ويدعو الإنسان بالشّر .. ﴾ أي إن صفة الإنسان العجلة ، فيدعو في بعض الأحيان حين الغضب على نفسه أو ولده أو ماله بالشّر ، أي بالموت أو الهلاك والدّمار واللعنة ، كما يدعو ربّه بالخير ، أي بالعافية والسّلامة والرزق ، ولو استجيب دعاؤه لهلك ، ولكن الله بفضله ورحمته لا يستجيب دعاءه ، كما قال تعالى : ﴿ ولو يعجّل الله للنّاسِ الشّرّ استعجالَهم بالخيرِ ، لقُضي إليهم أجلُهم ﴾ [يونس ١٠/١١] ، وروى أبو داود عن جابر أن النّبي ﷺ قال : « لاتدْعوا على أنفسكم ، ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة ، يستجيب فيها » .

والذي يحمل الإنسان على ذلك قلقه وعجلته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ أي يتعجّل تحصيل المطلوب دون تفكير في عواقبه .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ سبب اهتداء للبشرية قاطبة ، يرشدها لأقوم الطرق ، وأصح المناهج ، وأعدل المسالك ، وهي توحيد الله والإيمان برسله ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وأفضل مناهج الحياة .

٢ ـ وللقرآن هدف آخر وهو التّبشير والإنذار ، تبشير المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بالجنّة ، وإنذار أعدائهم الكفار بالعقاب في نار جهنم ، والقرآن معظمه وعد ووعيد .

٣ ـ إن طبع الإنسان القلق والعجلة ، فيَعْجَلُ بسؤال الشّرّ كما يعجل بسؤال

الخير ، فيدعو على نفسه وولده وماله عند الضجر بما لا ينبغي ، قائلاً : اللهم أهلكه ونحوه ، كما يدعو ربَّه أن يهب له العافية ويوسِّع له في الرِّزق ، فلواستجاب الله تعالى دعاءه على نفسه بالشَّرّ ، هلك ، لكن بفضله لا يستجيب له في ذلك . ونظير الآية آية : ﴿ ولو يُعَجِّلُ الله للنّاسِ الشَّرّ استعجالَهم بالخيرِ ﴾ كما تقدّم ، نزلت في النّضر بن الحارث ، كان يدعو ويقول : ﴿ اللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندكَ ، فأمطر علينا حجارةً من السّماء ، أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ ﴾ [الأنفال ٣٢/٨] .

التذكير بنعم الله في الدنيا ودلائل القدرة الإلهية

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

الإعراب :

﴿ منشوراً ﴾ حال . ﴿ بذنوب ﴾ متعلق بقوله : ﴿ خبيراً بصيراً ﴾ .

البلاغة :

﴿ آية النهار مبصرة ﴾ مجاز عقلي ؛ لأن النهار لا يُبْصر ، بل يُرى فيه ، فهو مجاز من إسناد الشيء إلى زمانه .

﴿ طائره في عنقه ﴾ استعير الطائر لعمل الإنسان ؛ لأن العرب الذين كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير ، سموا نفس الخير والشر بالطائر بطريق الاستعارة .

﴿ اقرأ كتابك ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي يقال له يوم القيامة : اقرأ كتابك ، وكذلك ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي أمرناهم بطاعة الله فعصوا .

﴿ اهتدى ﴾ ﴿ ضل ﴾ بينهما طباق .

﴿ تزر وازرة ﴾ جناس اشتقاق .

المفردات اللغوية :

﴿ آيتين ﴾ علامتين دالتين على قدرة الله تعالى ، بتعاقبهما على نسق واحد . ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ أي جعلنا الآية التي هي الليل ممحوَّة لا نور فيها ، والإضافة فيها للتبيين ، كإضافة العدد إلى المعدود . ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ مضيئة أو مبصرة للناس . ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ لتطلبوا في بياض النهار أسباب معاشكم ، وتتوصلوا به إلى استبانة أعمالكم . ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي ولتعلموا باختلافها أو بحركتها عدد السنوات وجنس الحساب . والفرق بين العدد والحساب : أن العدد إحصاء أمثال الشيء المكونة له ، والحساب : إحصاء طائفة معينة يتكون منها الشيء ، فالسنة بالنظر إلى أنها أيام (٣٦٥ يوماً) فقط فذلك العدد ، وبالنظر إلى تكونها من اثني عشر شهراً ، وكل شهر ثلاثون يوماً ، وكل يوم ٢٤ ساعة ، فذلك هو الحساب ، كما ذكر الشوكاني في فتح القدير ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ أي وكل شيء تحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا ، بيَّناه بياناً غير ملتبس .

﴿ طائره ﴾ عمله من خير أو شر . ﴿ في عنقه ﴾ لزوم الطوق في عنقه : إذ اعتادوا التفاؤل بالطير ، ويسمونه زجراً ، فإن مرَّ بهم من اليسار إلى اليمين ، تيمنوا به ، وسموه سانحاً ، وإن مرّ من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه ، وسموه بارحاً ، وسموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه . ﴿ كتاباً ﴾ هو صحيفة عمله . ﴿ منشوراً ﴾ أي غير مطوي . ﴿ حسيباً ﴾ محاسباً عادّاً يعد عليه أعماله .

﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ أي أن ثواب اهتدائه له . ﴿ ومن ضلّ فإنما يضل عليها ﴾ أي أن إثمه عليها . ﴿ ولا تزر وازرة ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة وزر نفس أخرى ، والوزر :

الإثم . ﴿ معذبين ﴾ أحداً ﴿ حتى نبعث رسولاً ﴾ يبين له ما يجب عليه . ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ﴾ وإذا تعلقت إرادتنا بإهلاك قوم ، لإنفاذنا قضاءنا السابق . ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ منعميها أي رؤساءها ، بالطاعة على لسان رسلنا . ﴿ ففسقوا فيها ﴾ فخرجوا عن أمرنا . ﴿ فحق عليها القول ﴾ بالعذاب . ﴿ فدمرناها تدميراً ﴾ أي أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها .

﴿ وكم ﴾ أي كثيراً . ﴿ القرون ﴾ الأمم . ﴿ خبيراً بصيراً ﴾ عالماً ببواطنها وظواهرها .

سبب النزول :

نزول الآية (١٥) :

﴿ من اهتدى ﴾ قالت فرقة : نزلت الإشارة في الهدى إلى أبي سلمة بن عبد الأسود ، وفي الضلال إلى الوليد بن المغيرة . وقيل : نزلت في الوليد هذا قال : يا أهل مكة ، اكفروا بمحمد ، وإثمكم علي .

المناسبة :

بعد أن بيَّن الله تعالى ماأنعم به من نعم الدين على الناس وهو القرآن ، أتبعه ببيان ماأنعم عليهم من نعم الدنيا ، وهو في ذاته استدلال بالدلائل الواضحة على قدرة الله وحكمته .

وبعد أن أبان تعالى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وأوضح أحوال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، ذكر مبدأ رفيعاً ومهماً جداً ، وهو مبدأ المسؤولية الفردية أو الشخصية عن أعمال الإنسان ؛ وأن ذلك المبدأ قد تقرر بعد إرسال الرسل وبيان معالم الهدى ، فلا تكليف قبل الشرع ، ولا عقاب ولا عذاب قبل البيان والإنذار ؛ وأن العقاب العام للقرى والأمم لا يكون إلا بعد الأمر بالطاعات والخيرات ، ومخالفة ذلك الأمر ، والفسق .

التفسير والبيان :

وجعلنا الليل والنهار علامتين دالتين على قدرتنا وبديع صنعنا ، وفي

تعاقبهما واختلافهما تحقيق لمصالح الإنسان ، ففي الليل سكنه وهدوءه وراحته ، وفي النهار حركته وشغله وتقلبه في أنحاء الدنيا للمعيشة والكسب ، والصناعة والعمل .

وجعلنا ظرف كل من الليل والنهار مناسباً للهدف المنشود والغاية المقصودة ، ففي الليل ظلام دامس ومحو للضوء يتلاءم مع راحة النفس والعين والسمع ، وفي النهار ضوء ونور يناسب الحركة والعمل وإبصار الأشياء .

فهذا امتنان من الله تعالى على خلقه بجعل الليل ممحو الضوء مطموساً مظلماً لا يستبان فيه شيء ، وجعل النهار مبصراً ، أي تبصر فيه الأشياء وتستبان .

﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ أي جعلنا تعاقب الليل والنهار لتتمكنوا كيف تتصرفون في أعمالكم ، وتطلبون الرزق من الله ربكم الذي يربيكم ويمدكم من فضله وإحسانه شيئاً فشيئاً ، وعلى وفق الزمان الدائر بكم صيفاً وشتاء .

﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي ولتعرفوا بتعاقب الليل والنهار عدد الأيام والشهور والأعوام ، وتعلموا بحساب الأشهر والليالي والأيام أوقات مصالحكم من الدورات الزراعية ، وآجال الديون والإجارات والمعاملات ، وأزمان العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة ، فلو لم يتغاير الليل والنهار ، لما تمكن الإنسان من الراحة التامة ليلاً واكتساب المعايش والأرزاق نهاراً ، ولو كان الزمان كله نسقاً واحداً لما عرف الحساب على نحو صحيح يسير .

ونظير الآية قول الله تعالى : ﴿ قل : أرأيتم إن جَعَلَ اللهُ عليكم الليلَ سَرْمداً إلى يومِ القيامةِ ، من إلـهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بضياءٍ ؟ أفلا تَسْمَعُون ؟ قل : أرأيتم إن جَعَلَ اللهُ عليكم النهارَ سَرْمَداً إلى يومِ القِيامَةِ ، من إلـهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تَسْكُنون فيه ؟ أفلا تُبْصِرون ؟ ومن رَحْمَتِه جَعَلَ لكم الليلَ والنهارَ لتَسْكُنُوا فيه ، ولِتَبْتَغُوا من فَضْلِه ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرون ؟! ﴾ [القصص ٢٨/٧٠ـ٧٣]

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي جَعلَ الليلَ والنهارَ خِلْفةً لمن أرادَ أن يَـذَّكَّر ، أو أراد شُكوراً ﴾ [الفرقان ٦٢/٢٥] وقال سبحانه : ﴿ هو الذي جَعَل الشمسَ ضيـاءً ، والقمرَ نُوراً ، وقدَّره منازلَ لتعلموا عددَ السنينَ والحسـابَ ، مـا خَلَق الله ذلـك إلا بالحقِّ ، يُفصّل الآياتِ لقومٍ يَعْلَمُون ﴾ [يونس ٥/١٠] .

﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ أي وكل شيء لكم به حاجة في مصالح دينكم ودنياكم قد بيناه وشرحناه بيـاناً نـافعاً ، وشرحـاً كاملاً وافيـاً ، كما قـال تعـالى : ﴿ مـا فرَّطْنـا في الكتـابِ من شَيءٍ ﴾ [الأنعام ٣٨/٦] وقـال : ﴿ ونـزَّلنـا عليـك الكتابَ تبياناً لكلِّ شيء ﴾ [النحل ٨٩/١٦] .

وبعد ذكر الزمان وما يقع فيه من أعمال الناس ، ذكر تعالى مبدأ التبعية أي المسؤوليـة عن الأعمـال من خير أو شر فقـال : ﴿ وكلَّ إنسـان ألـزمنـاه طـائره في عنقه ﴾ أي وجعلنا عمل كل إنسان ملازمـاً لـه لزوم القلادة للعنق إن كان خيراً ، ولزوم الغُلّ للعنق لا يفك عنه إن كان شرّاً . فالمراد بالطـائر : العمل الصـادر من الإنسـان . والعرب تعبر عن تلازم الشيء بـالشيء بمـا يوضـع في العنـق ، يقـال : جعلت هذا في عنقك ، أي قلدتك هذا العمل ، وألزمتك الاحتفاظ به .

وجعل العمل ملازمـاً للإنسـان أمر محتوم وقضـاء معلـوم ، على وفـق علم الله الأزلي السـابق بـالأشيـاء وبمـا يصـدر عن النـاس ، وهـذا لا يعني الإجبـار ونفي الاختيار الذي هو مناط الثواب والعقاب ، فكل إنسان مخير في اختيار مـا هو خير يقتضي ثواباً حسناً وما هو شرّ يقتضي عقاباً سيئاً .

﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً .. ﴾ أي سنخرج لكل إنسـان يوم القيـامـة كتاباً يراه ويستقبله منشوراً أمامه ، فيه جميع أعماله خيرها وشرهـا . ذكر الحسن البصري حديثاً قدسياً : « قال الله : يا بن آدم ، بسطنا لك صحيفة ، ووَكَّل بك مَلَكان كريمان : أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الـذي عن يمينـك

فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ماشئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا متَّ طويت صحيفتك ، فجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج لك يوم القيامة » .

﴿ اقرأ كتابك ، كفى بنفسك .. ﴾ ويقال لك حين تلقى كتابك : اقرأ كتابك أي كتاب عملك في الدنيا ، كفى بنفسك حاسباً تحسب أعمالك وتحصيها . كان الحسن إذا قرأها قال : يا بن آدم ، أنصفك ـ والله ـ من جعلك حسيب نفسك . والقائل : هو الله تعالى على ألسنة الملائكة .

﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ... ﴾ أي إذا كان كل واحد مختصاً بعمل نفسه ، فمن اهتدى إلى الحق والصواب واتبع شرع الله وهدي النبوة ، فإنما ينفع نفسه ، ومن ضلَّ في عمله وحاد عن شرع الله وكفر به وبرسله ، فإنما يضرّ نفسه ؛ لأن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله ، لا يتجاوزه إلى غيره ، وعقاب العمل السيء ملازم صاحبه ، لا يفارقه .

ثم أكد تعالى معنى الشق الثاني بقوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لاتتحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، بل على كل نفس إثمها دون إثم غيرها ، أو لايحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه .

وهذا ردّ واضح على الذين يحرضون غيرهم على ارتكاب المنكر ، واقتراف الكفر ، ويزعمون أنهم يتحملون عاقبة ذلك . روي عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة حين قال : اكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم .

وهو ردّ أيضاً على الجاهليين الذين كانوا يقولون : نحن لانعذب في شيء ، وإن كان هناك عقاب فهو على آبائنا ، إذ نحن مقلدوهم فقط ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ قل : لاتُسألون عما أجرمنا ، ولا نُسأل عما تعملون ﴾ [سبأ ٢٥/٣٤] .

وتقرير مبدأ المسؤولية الشخصية من مفاخر الإسلام ومبادئه التي صححت

مفهوم العقاب عند الرومان والعرب وغيرهم ، إذ كانوا يعاقبون غير المجرم .

ويتضاعف العقاب والإثم على دعاة الضلال بسبب تأثيرهم في الآخرين ، دون إعفاء من يتبعونهم في ضلالهم من الوزر والعقاب ، لقوله تعالى : ﴿ لِيحمِلُوا أوزارَهم كاملةً يومَ القيامة ، ومن أوزارِ الذين يُضلُّونهم بغيرِ علمٍ ﴾ [النحل ٢٥/١٦] وقوله سبحانه : ﴿ وليحمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالاً مع أثقالِهم ﴾ [العنكبوت ١٣/٢٩] فعلى الدعاة إثم ضلالتهم في أنفسهم ، وإثم آخر بسبب إضلالهم غيرهم .

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ أي لكن مقتضى العدل والحكمة والرحمة أننا لانعذبُ أحداً في الدنيا أو الآخرة على فعل شيء أو تركه إلا بعد إنذار ، ولا نعاقب الناس إلا بعد إعذار وبعث الرسل إليهم ، لإقامة الحجة عليهم بالآيات المبينة للأحكام والحلال والحرام والثواب والعقاب ، كما قال تعالى : ﴿ كلما أُلقي فيها فوْجٌ سألَهم خزنتُها : ألم يأتِكُمْ نذيرٌ ؟ قالوا : بَلَى ، قد جاءَنا نذيرٌ ، فكذَّبْنَا وقُلْنا : ما نزَّل اللهُ من شيءٍ .. ﴾ [المُلك ٨/٦٧ـ٩] وقال عز وجل : ﴿ وقال لهم خزنتُها : ألم يأتِكُم رسلٌ منكم يَتْلُون عليكم آياتِ ربِّكم ، ويُنْذِرُونَكم لقاءَ يومِكم هذا ، قالوا : بَلَى ، ولكن حَقَّت كلمةُ العذابِ على الكافرين ﴾ [الزمر ٧١/٣٩] ونحو ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ، ودعوته إلى الخير ، وتحذيره من الشرّ .

وأما كيفية وقوع العذاب بعد إرسال الرسل فهي كما أخبر تعالى :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ... ﴾ أي إذا دنا وقت إهلاك قوم بعذاب الاستئصال أمرنا مترفيها بالطاعات والخيرات ، أي الأمر بالفعل ، فإذا خالفوا ذلك الأمر وفسقوا وخرجوا عن الطاعة وتمردوا ، حق أو وجب عليهم العذاب جزاء وفاقاً لعصيانهم ، فدمرناهم تدميراً وأبدناهم إبادة تامة ، شملت جميع أهل

تلك البلدة . والمترف : هو المتنعم ، وهو أولى بالشكر من غيره وأوجب عليه . ودمرناها : استأصلناها بالهلاك .

والإبادة الشاملة بسبب الأمر العام لجميع المكلفين ، أغنياء كانوا أو فقراء ، مترفين كانوا أو غير مترفين ، لكن خصّ الأمر بالمترفين ؛ لأنهم القادة وغيرهم تبع لهم ، وشأن العامة والأتباع تقليد الكبراء والزعماء دائماً . قال ابن عباس في قوله : ﴿ أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ﴾ أي سلطنا أشرارها ، فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وكذلك جَعَلْنا في كل قريةٍ أكابرَ مُجْرِميها لِيَمْكُروا فيها ﴾ [الأنعام ١٢٣/٦] .

ثم أنذر الله تعالى كفار قريش وأمثالهم في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأن كثيراً من الأمم وجب عليهم العذاب بذنوبهم ، فقال : ﴿ وكم أهلكنا من القرون .. ﴾ أي وكثيراً ما أهلكنا أمماً من بعد نوح عليه السلام إلى زمانكم لما بغوا وعصوا ، وجحدوا آيات الله ، وكذبوا رسله ، كما أنتم الآن ، وأنتم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم ، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق ، فعقوبتكم أولى وأحرى .

وهذا وعيد وتهديد لمكذبي الرسول ﷺ في كل زمان بشديد العقاب ، وفيه دلالة على أن القرون التي مضت بين آدم ونوح كانت على الإسلام ، قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام .

﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ أي وكفى بالله خبيراً بذنوب خلقه مطلعاً عليها ، يحصي عليهم أعمالهم ومعاصيهم ، فلا يخفى عليه شيء من أفعال المشركين وغيرهم ، وهو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها ، لا يخفى عليه منها خافية . والخبير : العليم بهم ، والبصير : الذي يبصر أعمالهم . وفي هذا تنبيه

على أن الذنوب هي أسباب الدمار والهلاك لا غير ، وأن الله عالم بها ، ومعاقب عليها .

وكل ماذكر حثّ للعقلاء على العمل الصالح النافع في الدنيا والآخرة ، ودفع إلى الجد وعدم الكسل .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقص ، وتعاقبهما ، وضوء النهار وظلمة الليل ، دليل على وحدانية الله تعالى ووجوده وكمال علمه وقدرته .

٢ ـ ودورة الليل والنهار تعرفنا بعدد السنوات والأشهر والأيام المتماثلة ، وتعلمنا حساب المدة المكونة من طوائف ومجموعات ، كالسنة المكونة من اثني عشر شهراً ، والشهر من ثلاثين يوماً ، واليوم من أربع وعشرين ساعة .

٣ ـ النهار وقت مناسب للعمل والحركة والتقلب في الأرض لكسب المعايش وتحصيل الأرزاق .

٤ ـ كل إنسان معلّق بعمله ، وعمله مختص به ولازم له ، خيراً أو شراً .

٥ ـ إن كتاب الإنسان وسجله الذي يلقاه أمامه يوم القيامة حافل بكل ماقدم وما أخر . وكفى بالإنسان محاسباً لنفسه . قال الحسن البصري : يقرأ الإنسان كتابه أمّياً كان أو غير أمّي .

٦ ـ كل أحد إنما يحاسب عن نفسه لا عن غيره ، فمن اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضلّ فعقاب كفره عليه .

٧ ـ إقرار مبدأ المسؤولية الشخصية عدلاً من الله ورحمة بعباده ، فلا يحمل

أحد ذنب أحد ، ولا يجني جان إلا على نفسه . قال ابن عباس عن آية : ﴿ ولا تزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ : نزلت في الوليد بن المغيرة قال لأهل مكة : اتبعوني ، واكفروا بمحمد ، وعليَّ أوزاركم ، فنزلت هذه الآية . ومعناها : أن الوليد لا يحمل آثامكم ، وإنما إثم كل واحد عليه .

أما ما روي عن عائشة رضي الله عنها في الرد على ابن عمر حيث قال النبي في حديث رواه الشيخان : « إن الميت ليعذّب ببكاء أهله » فلا وجه لإنكارها وتخطئتها ؛ إذ لا معارضة بين الآية والحديث ؛ فإن الحديث محمول على ما إذا كان النَّوْح من وصية الميت وسنته وبسببه ، كما كانت الجاهلية تفعله ، حتى قال طرفة :

إذا متُّ فانعيني بما أنا أهله وشُقِّي عليَّ الجيب يا ابنة مَعْبَدِ

وقال :

إلى الحول ، ثم اسمُ السلام عليكما ومن يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقد اعتذر

٨ ـ لم يترك الله الخلق سدىً ، بل أرسل الرسل ، وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ، وهذا في رأي الجمهور ، في حكم الدنيا ، بمعنى أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار ، ولا يهلك الله القرى قبل ابتعاث الرسل .

وقالت المعتزلة بأن العقل يقبّح ويحسّن ويبيح ويحظر .

٩ ـ تدل آية ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ على أن أهل الفترة (فترة انقطاع الرسل) الذين لم تصلهم رسالة ، وماتوا ولم تبلغهم الدعوة وهم أهل الجاهلية وأمثالهم في الجزر النائية الذين لم يسمعوا بالإسلام في زماننا هم ناجون ، من أهل الجنة . ومثلهم أولاد المشركين والكفار الذين ماتوا وهم صغار قبل التكليف ، وآباؤهم كفار ، وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف .

أما الناس بعد البعثة ـ بعثة الرسول ﷺ ـ فهم كما أبان الغزالي رحمه الله أصناف ثلاثة :

الأول ـ من لم تبلغهم دعوته ، ولم يسمعوا به أصلاً ، فهؤلاء في الجنة .

الثاني ـ من بلغتهم دعوته ومعجزاته ولم يؤمنوا به كالكفار في زماننا ، فهؤلاء في النار .

الثالث ـ من بلغتهم دعوته ﷺ بأخبار مكذوبة أو بنحو مشوه ، فهؤلاء يرجى لهم الجنة .

١٠ ـ إن عذاب الاستئصال لا يكون إلا بشيوع المعاصي والذنوب والمنكرات ، فإذا أراد الله إهلاك قرية أمر مترفيها وغيرهم بالطاعة والرجوع عن المعاصي ، ففسقوا وظلموا وبغوا ، أي آثروا الفسوق على الطاعة ، خلافاً للأمر ، فحق عليها القول بالتدمير والهلاك .

وعلى قراءة ﴿ أمَّرنا ﴾ بالتشديد يكون المعنى : سلطنا شرارها ، فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم .

وذكر قتادة والحسن أن معنى ﴿ أمِرنا ﴾ بكسر الميم : أكثرنا ، يقال : أمِر القوم ـ بكسر الميم ـ : إذا كثروا ، ومنه الحديث الذي رواه أحمد والطبراني عن سويد بن هبيرة : « خيرُ مال المرء : مَهْرةٌ مأمورة ، أو سِكَّةٌ مأبورة[1] » أي مهرة كثيرة النتاج والنَّسْل ، وصف من النخل مأبورة . وفي حديث هِرَقْل ـ الحديث الصحيح : « لقد أمِر أمرُ ابنِ أبي كَبْشة[2] ، ليخافه ملك بني الأصفر » أي كثر .

---

(١) السِّكَّة : الطريقة المصطفة من النخل ، والمأبورة : الملقحة .

(٢) يريد : رسول الله ﷺ ، وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ : « ابن أبي كبشة » شبهوه بأبي كبشة : رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان .

١١ ـ كم من قوم كثيرين كفروا ، فحلّ بهم الهلاك أو البوار ، وهذا إنذار ووعيد وتهديد بالعقاب الشديد لكل من كفر بالله وبرسوله محمد ﷺ .

١٢ ـ إن المعاصي إذا ظهرت ، ولم تُغيَّر ، كانت سبباً لهلاك الجميع .

١٣ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، راءٍ لجميع المرئيات ، فلا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق . وثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات ، فكان قادراً على إيصال الجزاء إلى كل أحد بقدر استحقاقه ، وأيضاً أنه منزه عن العبث والظلم ، وهذه الصفات الثلاث (العلم التام ، والقدرة الكاملة ، والبراءة عن الظلم) أمان لأهل الطاعة ، وخوف لأهل الكفر والمعصية .

جزاء من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

الإعراب :

﴿ لمن نريد ﴾ بدل من ﴿ له ﴾ بدل البعض من الكل بإعادة حرف الجر ، مثل قوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعفوا ، لمن آمن منهم ﴾ [الأعراف ٧٥/٧] فقوله : ﴿ لمن آمن منهم ﴾ بدل من قوله ﴿ للذين استضعفوا ﴾ .

﴿ وهو مؤمن ﴾ حال

﴿ كلاً نمدّ ﴾ كلاً : مفعول به لـ ﴿ نمد ﴾ و ﴿ هؤلاء ﴾ بدل من كل ومعناه : إنا نرزق المؤمنين والكافرين .

﴿ كيف فضّلنا ﴾ ﴿ كيف ﴾ : منصوب بفضلنا ، وليس العامل فيه ﴿ انظر ﴾ لأن ﴿ كيف ﴾ معناها الاستفهام ، والاستفهام له صدر الكلام ، فلا يعمل فيه ماقبله .

﴿ درجاتٍ ﴾ تمييز منصوب ، وكذلك ﴿ تفضيلاً ﴾ .

المفردات اللغوية :

﴿ من كان يريد ﴾ بعمله . ﴿ العاجلة ﴾ أي الدنيا ، مقصوراً عليها همه ، والمراد الدار العاجلة ، فعبر بالنعت عن المنعوت . ﴿ عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ﴾ قيد المعجّل والمعجّل له بالمشيئة والإرادة ؛ لأنه لايجد كل متمنّ ما يتمناه ، ولا كل واحد جميع ما يهواه . ﴿ ثم جعلنا له ﴾ في الآخرة . ﴿ يصلاها ﴾ يدخلها . ﴿ مذموماً ﴾ ملوماً . ﴿ مدحوراً ﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى .

﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ﴾ أي عمل عملها اللائق بها ، وهو الإتيان بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه ، لاالتقرب بما يخترعون بآرائهم . وفائدة لام ﴿ لها ﴾ اعتبار النية والخلوص . ﴿ وهو مؤمن ﴾ إيماناً صحيحاً لاشرك فيه ولا تكذيب . ﴿ فأولئك ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة : إرادة الآخرة ، والسعي لها بحق ، والإيمان . ﴿ كان سعيهم مشكوراً ﴾ عند الله تعالى ، أي مقبولاً عنده ، مثاباً عليه ، فإن شكر الله : الثواب على الطاعة .

﴿ كلاً ﴾ من الفريقين . ﴿ نمد ﴾ نعطي مرة بعد أخرى . ﴿ من عطاء ربك ﴾ من معطاه في الدنيا . ﴿ وما كان عطاء ربك ﴾ فيها . ﴿ محظوراً ﴾ ممنوعاً عن أحد ، لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر ، تفضلاً .

﴿ فضلنا بعضهم على بعض ﴾ في الرزق والجاه . ﴿ وللآخرة أكبر ﴾ أعظم . ﴿ وأكبر تفضيلاً ﴾ من الدنيا ، أي إن التفاوت في الآخرة أكبر ؛ لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها ، والنار ودركاتها ، فينبغي الاعتناء بالآخرة دون الدنيا .

المناسبة :

الآيات مرتبطة بما قبلها بنحو واضح ، فبعد أن بيّن الله تعالى ارتباط كل إنسان بعمله ، قسم العباد قسمين : قسم يريد الدنيا ويعمل لها ، وعاقبته النار ، وقسم يريد الآخرة ، ومآله إلى الجنان .

وكل من الفريقين يرزقهم ربهم في الدنيا ؛ لأن عطاءه ليس ممنوعاً عن أحد ، ولكنهم متفاضلون في الرزق ، ومراتب التفاوت في الآخرة أكثر من مراتب تفاوت الدنيا .

التفسير والبيان :

هذه الآيات تصنيف عام لأحوال الناس في الدنيا ، فهم فريقان : فريق يعمل للدنيا ، وفريق يعمل للآخرة . أما الفريق الأول فهو : ﴿ من كان يريد العاجلة ... ﴾ أي من كان طلبه الدنيا العاجلة ، وكانت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه ، فخصها بكل جهده وعمله ، ونسي الآخرة ، عجل الله فيها تحقيق أمله حسبما يشاء ويريد ، من سعة الرزق وترف الحياة ، فليس كل من طلب الدنيا ونعمها يحصل له مراده ، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء ، فالعطاء الدنيوي مقيد بالإرادة والمشيئة الإلهية ، والقيد يشمل أمرين : ما يشاؤه الله لا ما يحبه العبد ، ولمن يشاء الله ، لا لكل من أراد الدنيا ، فهؤلاء الماديون لا يعطون كل ما يريدون ، وإنما يعطون بعض أمانيهم ، والكثير من الماديين لا يعطون شيئاً أبداً ، فيجمعون بين فقر الدنيا وفقر الآخرة ، وبين الحرمان من الدنيا والدين .

ولكل من هؤلاء الماديين ، سواء أعطوا مرادهم أم لا جهنم يصلونها أي يقاسون حرها بصفة دائمة ، مذمومين من الله والملائكة والناس أجمعين على قلة الشكر وسوء العمل والتصرف ، مطرودين من رحمة الله تعالى .

فهذا العقاب ذو أوصاف ثلاثة في الآية : الدوام والخلود ، والإذلال والإهانة ، والطرد من رحمة الله . وهذا تهديد للماديين الكفرة وزجر شديد ، فإنهم يحصرون همهم في الدنيا ، وربما لم ينلهم شيء منها . روى أحمد عن عائشة مرفوعاً : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » .

وأما الفريق الثاني وهم المؤمنون الأتقياء فهم الذين أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها .. ﴾ أي ومن طلب الآخرة ، وكانت هي همه ومقصده ، فعمل لها ما استطاع من القرب والطاعات ، وهو مؤمن مصدق بالله وبكتبه ورسله واليوم الآخر ، فأولئك أهل الكمال المشكورون على طاعاتهم ، المثابون على أعمالهم من قبل الله تعالى .

فلا يثاب هؤلاء ولا ينالون هذا الجزاء الحسن إلا بشروط ثلاثة :

الأول ـ إرادة ثواب الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ، جاء في الحديث الذي رواه الشيخان عن عمر : « إنما الأعمال بالنيات » .

الثاني ـ أن يكون العمل من القرب والطاعات ومتابعة الرسول ﷺ ، لا من الأعمال الباطلة ، فإن الكفار يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأوثان ، والكواكب والملائكة وبعض البشر من الأنبياء ، فقوله : ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أي أعطاها حقها من السعي بالأعمال الصالحة .

الثالث ـ أن يكون العمل في دائرة الإيمان والتصديق بالثواب والجزاء ، فلا ينفع العمل بغير الإيمان الصحيح . وهذه هي الشرائط الثلاثة في كون السعي مشكوراً .

قال بعض السلف : من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب ، وتلا هذه الآية .

هؤلاء المؤمنون الصلحاء الذين اختاروا غنى الآخرة لا يبالون بشيء بعدها ، فإن أوتوا حظاً من الدنيا شكروا ربهم ، وإن حرموا منه صبروا ، ورضوا ؛ لأن ما عند الله خير وأبقى .

ثم أبان الله تعالى أن الرزق في الدنيا مضمون مكفول لكلا الفريقين ، فقال :

﴿ كلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك .. ﴾ أي إنه تعالى يمد الفريقين : مريدي الدنيا ومريدي الآخرة بالأموال والأرزاق والأولاد وغيرها من مظاهر العز والزينة في الدنيا ، فإن عطاءه لا يمنع عن أحد ، مؤمناً كان أو كافراً ؛ لأن الكل مخلوقون في دار العمل ، فاقتضى عدل الله ورحمته ألا يترك لأحد مجالاً للعذر ، وأبان أن عطاءه ليس بمحظور ، أي غير ممنوع ، لتوفير متطلبات الحياة ومقوماتها .

ثم أوضح الله تعالى أن عطاءه لكلا الفريقين متفاوت فقال :

﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض .. ﴾ أي انظر بعين الاعتبار كيف جعلنا الفريقين متفاوتين في عطاء الدنيا ، وكيف فضلنا بعضهم على بعض في الرزق ومتاع الدنيا ، فمنحناه مؤمناً ، وحجبناه عن مؤمن آخر ، وأعطيناه كافراً ، ومنعناه عن كافر آخر ، وذلك لحكمة بالغة نحن أعلم بها ، كما قال : ﴿ نحن قَسَمْنَا بينهم معيشتَهم في الحياةِ الدنيا ، ورفعنَا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ، ليتخذَ بعضُهم بَعْضاً سُخْرياً ﴾ [الزخرف ٣٢/٤٣] وفي آية أخرى : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ [الأنعام ١٦٥/٦] وقال سبحانه أيضاً : ﴿ ولو بَسَطَ اللهُ الرِّزقَ لعبادِه لَبغَوْا في الأرضِ ، ولكن ينزّل بقدرٍ ما يشاءُ ، إنه بعبادِه خبيرٌ بصيرٌ ﴾ [الشورى ٢٧/٤٢] .

﴿ ولـلآخرة أكبر درجات .. ﴾ أي والتفاوت في الآخرة أكبر وأعظم ، والتفاضل في درجات منافع الآخرة أكبر من التفاضل في درجات منافع الدنيا ، فالدرجات أكبر ، والتفاضل أعظم ؛ لأن الآخرة ثواب وأعواض وتفضل وكلها متفاوتة ، فأهل النار في دركات سفلى متفاوتة ، وأهل الجنة في درجات عليا متفاضلة ، فإن الجنة مئة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، جاء في الصحيحين : « إن أهل الدرجات العلا ليرون أهل عليين ، كما ترون

الكوكب الغابر في أفق السماء » وقال بعضهم : أيها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا ، أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة ، وهي أكبر وأفضل » .

وهذه واقعة طريفة معبرة مناسبة للآية ، رواها ابن عبد البر عن الحسن البصري قال : حضر جماعة من الناس فيهم الأشراف ومن دونهم من العامة باب عمر رضي الله عنه ، وفيهم سُهيل بن عمرو القرشي (أحد أشراف مكة) وأبو سفيان بن حَرْب ، ومشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر ، وكان يحبهم ، فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليُؤذَن لهؤلاء العبيد ، ونحن جلوس لا يُلتفت إلينا ، فقال سهيل وكان أعقلهم : أيها القوم ، إني والله قد أرى الذي في وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، إنهم دُعُوا ودُعينا ـ يعني إلى الإسلام ـ فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر ، فكيف التفاوت في الآخرة ؟ ولئن حسدتموهم على باب عمر ، لما أعد الله لهم في الجنة أكبر .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الناس في مجال العمل في الدنيا صنفان : صنف يريد الدنيا ، وصنف يريد الآخرة ، أما الصنف الأول : فلا يعطيه الله من الدنيا إلا ما يشاء ، ولمن يشاء ، ثم يؤاخذه بعمله ، وعاقبته دخول النار حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه ، إذ اختار الفاني على الباقي ، مدحوراً مطروداً مبعَداً من رحمة الله . قال القرطبي : وهذه صفة المنافقين الفاسقين ، والمرائين المداجين ، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها ، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ، ولا يُعطون في الدنيا إلا ماقُسم لهم[1] .

(١) تفسير القرطبي : ٢٣٥/١٠

وأما الصنف الثاني وهو الذي يريد الدار الآخرة ، ويعمل لها عملها من الطاعات ، وكان مؤمناً ؛ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن ، فيكون عمله مقبولاً غير مردود .

٢ ـ اقتضت حكمة الله ورحمته أن يرزق المؤمنين والكافرين ، فلا يكون عطاؤه محبوساً ممنوعاً عن أحد ، غير أن الناس في الدنيا متفاوتون في الرزق ، بين مُقلّ ومُكْثر ، ولا يرتبط التفاوت في الرزق بالإيمان والكفر ، فقد يكون مؤمن غنياً وآخر فقيراً ، وقد يكون كافر موسراً مترفاً وآخر معسراً معدماً .

أما في الآخرة فدرجات تفاضل المؤمنين أكبر وأكثر ، فالكافر وإن وُسِّع عليه في الدنيا مرة ، وقُتِّر على المؤمن مرة ، فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم ، فمن فاته شيء منها لم يستدركه فيها .

٣ ـ إن هذه الآية : ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ مقيدة لإطلاق آية هود : ﴿ من كان يريدُ الحياةَ الدنيا وزينتها ، نوفّ إليهم أعمالَهم فيها ، وهُمْ فيها لا يُبْخسون ﴾ [١٥] وآية الشورى : ﴿ من كان يريدُ حَرْث الآخرة نَزِدْ له في حَرْثه ، ومن كان يريدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِه منها ، وما لَه في الآخرة من نصيب ﴾ [٢٠] .

٤ ـ في الآية نفسها ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ فوائد ثلاث :

الأولى ـ العقاب مضرة مقرونة بالإهانة والذم الدائمين .

الثانية ـ إن الرفاهية في الدنيا لا ينبغي أن يستدل بها على رضا الله تعالى ؛ لأن الدنيا قد تحصل مع أن عاقبتها المصير إلى عذاب الله وإهانته ، وهذا تنبيه للجهال الذين يغترون بالدنيا إذا أقبلت عليهم ، ويظنون أن ذلك لأجل كرامتهم على الله تعالى .

الثالثة ـ قوله تعالى ﴿ لمن نريد ﴾ يدل على أنه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد ، بل كثير من الكفار والضلال يطلبون الدنيا ، ويبقون محرومين منها ومن الدين ، وفي هذا زجر عظيم لهم ، فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

٥ ـ إن قبول الأعمال عند الله مشروط بشرائط ثلاث : الإيمان الصحيح ، والنية الطيبة الحسنة ، والعمل الصالح الذي يرضي الله تعالى .

٦ ـ إن رزق الله وعطاءه مكفول لكل إنسان بشرط السعي والعمل ، وليس الرزق محظوراً عن أحد من المؤمنين والكفار .

٧ ـ ليس الرزق معطى بدرجة متساوية ونسبة واحدة ، وإنما هناك تفاوت في الأرزاق ، لا يرتبط ذلك بالإيمان والكفر ، وإنما يقسمه الله تعالى بين الخلائق على وفق ما يراه من الحكمة والمصلحة .

٨ ـ إن التفاوت في الدركات للكفار والفساق في نار جهنم وفي الدرجات للمؤمنين الأخيار الأتقياء في الجنة أشد بكثير من التفاوت في الدنيا ، فالجنة مثلاً مئة درجة ، ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض .

أصول تنظيم المجتمع المسلم

التوحيد أساس الإيمان وترابط الأسرة المسلمة دعامة المجتمع

لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ

إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

الإعراب :

﴿ إما يبلغنّ ﴾ قرئ : ﴿ يبلَغَنّ ﴾ : وحدّ الفعل لمجيء الفاعل بعده واحداً ، فإن الفعل متى تقدم توحّد ، والفاعل : أحدهما . ومن قرأ : ﴿ يبلَغان ﴾ : فيكون ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ بدلاً من ألف ﴿ يبلغان ﴾ أو تكون الألف لمجرد التثنية ولا حظّ للاسمية فيها ، فيرتفع ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ بالفعل الذي قبلها على لغة من قال : قاما أخواك ، وأكلوني البراغيث . و ﴿ إما ﴾ : هي إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً .

﴿ أفّ ﴾ اسم من أسماء الأفعال ، فكانت مبنية ، والبناء إما على الكسر لالتقاء الساكنين ، أو على الفتح لأنه أخف الحركات ، أو على الضم لأنه أتبع الضمّ الضمّ . ومن نون ﴿ أفّ ﴾ أراد به التنكير ، ومن لم ينوّن أراد التعريف . وفي ﴿ أف ﴾ إحدى عشرة لغة ، مثل « هيهات » .

﴿ ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾ ﴿ ابتغاء ﴾ : مصدر منصوب في موضع الحال ، أي : وإما تعرضنّ عنهم مبتغياً رحمة من ربك ترجوها . وجملة ﴿ ترجوها ﴾ حال منصوب ، أي راجياً إياها .

البلاغة :

﴿ واخفض لهما جناح الذلّ ﴾ استعارة مكنية ، شبّه الذل بطائر ذي جناح ، ثم حذف الطائر ، ورمز له بشيء من لوازمه ، وهو الجناح ، فهذه استعارة في الشفقة والرحمة بها والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والخدم للسادة .

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ﴾ : استعارة تمثيلية ، مثّل للبخيل الذي حبس يده عن العطاء بمن شُدّت يده إلى عنقه ، بحيث لا يستطيع مدّها ، وشبّه السرف ببسط الكف ، حيث لا تمسك شيئاً .

﴿ فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ لف ونشر مرتب ، أعاد لفظ ﴿ ملوماً ﴾ إلى البخيل ، ولفظ ﴿ محسوراً ﴾ إلى الإسراف .

﴿ يبسط ﴾ ﴿ ويقدر ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته ، أو الخطاب لكل أحد . ﴿ فتقعد ﴾ إما بمعناها الأصلي ، أي فتعجز عن تحصيل الخيرات ، أو بمعنى : تصير ، مأخوذ من قولهم : شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، أي صارت مثل الحربة . ﴿ مذموماً ﴾ يذمك الملائكة والمؤمنون . ﴿ مخذولاً ﴾ يخذلك الله تعالى ، وتصير : لا ناصر لك ؛ لأنك أشركت معه إلهاً آخر . وهذا بناء على المفهوم يدل على أن الموحد يكون ممدوحاً منصوراً .

﴿ وقضى ربك ﴾ حكم وأمر أمراً مقطوعاً به . ﴿ أن لا تعبدوا ﴾ بألا تعبدوا . ﴿ إلا إياه ﴾ حصر العبادة بنفسه تعالى ؛ لأن غاية التعظيم لا يستحقها إلا من له غاية العظمة وغاية الإنعام ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي وبأن تحسنوا لهما إحساناً ، بأن تبروهما ، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً ؛ لأنهما السبب الظاهر للوجود والمعيشة . ولا يجوز أن تتعلق الباء بالإحسان ؛ لأنه صلته وهي لا تتقدم عليه . ﴿ أفّ ﴾ اسم صوت يدل على التضجر والاستثقال ، أي تباً وقبحاً . ﴿ ولا تنهرهما ﴾ تزجرهما ، والنهر : الزجر بغلظة . ﴿ قولاً كريماً ﴾ جميلاً ليناً .

﴿ جناح الذل ﴾ ألن لهما جانبك الذليل ، والمراد به التواضع والتذلل ، أو حسن الرعاية والعناية . ﴿ من الرحمة ﴾ أي لرقتك عليهما وفرط رحمتك بهما . ﴿ ارحمهما كما ﴾ رحماني حين . ﴿ ربياني صغيراً ﴾ أو رحمة مثل رحمتهما علي . ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ﴾ من إضمار البر والعقوق . ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ طائعين لله ، قاصدين للصلاح . ﴿ للأوابين ﴾ للتوابين أو الرجاعين إلى طاعته . ﴿ غفوراً ﴾ لما صدر منهم في حق الوالدين من بادرة ، وهم لا يضمرون عقوقاً .

﴿ وآتِ ﴾ أعط . ﴿ ذا القربى ﴾ القرابة . ﴿ حقه ﴾ من البر والصلة ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ التبذير : إنفاق المال في غير موضعه الموافق للشرع والحكمة . ﴿ إخوان الشياطين ﴾ أي قرناءهم وعلى طريقتهم ﴿ كفوراً ﴾ شديد الكفر لنعمه . فكذلك قرينه المبذر . ﴿ وإما تعرضن عنهم ﴾ أي وإن أعرضت عن المذكورين من ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، حياء من الرد ، فلم تعطهم .

﴿ ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾ أي لطلب رزق تنتظره يأتيك ، فتعطيهم منه ﴿ قولاً ميسوراً ﴾ ليناً سهلاً ، بأن تعدهم بالإعطاء عند مجيء الرزق .

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ أي لاتمسكها عن الإنفاق تماماً ، والمغلولة : المقيدة بالغل : وهو القيد الذي يوضع في اليدين والعنق ، وهو تمثيل لمنع الشح وكناية عن البخل . ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ أي تتوسع في الإنفاق ، وهو تمثيل وكناية لمنع الإسراف . ﴿ فتقعد ملوماً ﴾ فتصير ملوماً عند الله وعند الناس بالبخل ، فهو راجع للأول : البخل . ﴿ محسوراً ﴾ نادماً ، أو منقطعاً لاشيء عندك ، وهو راجع للثاني : الإسراف . ﴿ إن ربك يبسط الرزق ﴾ يوسعه لمن يشاء . ﴿ ويقدر ﴾ يضيقه لمن يشاء . ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ عالماً بسرهم وعلنهم ، فيرزقهم على حسب مصالحهم .

سبب النزول :

نزول الآية (٢٦) :

﴿ وآت ذا القربى ﴾ : أخرج الطبراني وغيره عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة ، فأعطاها فَدَك . قال ابن كثير : هذا مشكل ، فإنه يشعر بأن الآية مدنية ، والمشهور خلافه . لكن ذكر في مطلع السورة أن هذه الآية مدنية . وروى ابن مردويه عن ابن عباس مثله .

نزول الآية (٢٨) :

﴿ وإما تعرضن ﴾ : أخرج سعيد بن منصور عن عطاء الخراساني قال : جاء ناس من مُزَيْنة يستحملون رسول الله ﷺ فقال : لاأجد ماأحملكم عليه ، فتولوا وأعينُهم تفيض من الدمع حزناً ، ظنوا ذلك ، من غضب رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ وإما تعرضنَّ عنهم ابتغاء رحمة ﴾ الآية . والرحمة : الفيء .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نزلت في كل من كان يسأل النبي ﷺ

من المساكين . قال ابن زيد : نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم ؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد .

نزول الآية (٢٩) :

﴿ ولا تجعل يدك ﴾ : أخرج سعيد بن منصور عن سيار أبي الحكم قال : أتى رسولَ الله ﷺ بزّ (ثياب) وكان معطياً كريماً ، فقسمه بين الناس ، فأتاه قوم ، فوجدوه قد فرغ منه ، فأنزل الله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه وغيره عن ابن مسعود قال : جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال : إن أمي تسألك كذا وكذا ، قال : ماعندنا شيء اليوم ، قال : فتقول لك : اكسني قميصاً ، فخلع قميصه ، فدفعه إليه ، فجلس في البيت حاسراً ، فأنزل الله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك .. ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه أيضاً عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال لعائشة : أنفق ماعلى ظهر كفي ، قالت : إذن لا يبقى شيء ، فأنزل الله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ الآية . قال السيوطي : وظاهر ذلك أنها مدنية .

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى أن الناس فريقان : فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وعاقبتهم العذاب والعقاب ، وفريق يريد بعمله طاعة الله ، وهم أهل الثواب بشروط ثلاثة : هي إرادة الآخرة ، والسعي بحق لطلب الآخرة ، وأن يكون مؤمناً ، أتبعه ببيان حقيقة الإيمان وأن جوهره التوحيد ونفي الشركاء والأضداد .

وبعد أن ذكر الركن الأعظم في الإيمان ، أتبعه بذكر شعائر الإيمان

وشرائطه ، ودعائم بنيان المجتمع الإسلامي ، مبتدئاً بأصول نظام الأسرة ، وتقوية الروابط بين أفرادها .

التفسير والبيان :

يخاطب الله تعالى الرسول ﷺ لبيان حقيقة الإيمان وهو التوحيد ونفي الشركاء ، والمراد بالخطاب : المكلفون من الأمة ، إذ لم يكن له ﷺ في ذلك الوقت أبوان .

ومضونه : لا تجعل أيها الإنسان المكلف شريكاً مع الله تعالى في ألوهيته وعبادته ، وإنما أفرد له الألوهية والربوبية ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، ولا معبود بحق إلا هو ، فإن جعلت مع الله إلهاً آخر ، صرت ملوماً على إشراكك به ، مخذولاً لا ينصرك ربك ، بل يتركك إلى من عبدته معه ، وهو لا يملك ضراً ولا نفعاً . روى أحمد وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله ، فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل » . والخلاصة : إن أول دعامة للمجتمع المسلم : توحيد الله وعدم الشرك به .

وبعد بيان الركن الأعظم في العقيدة والإيمان وهو التوحيد ، ذكر تعالى شعائر الإيمان ومظاهره ، وهي ما يأتي :

أولاً ـ عبادة الله تعالى وحده : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ أي أمر الله تعالى ألا تعبدوا غيره ، وهذا يتضمن أمرين : الاشتغال بعبادة الله تعالى ، والتحرز عن عبادة غير الله تعالى ؛ لأن العبادة نهاية التعظيم ، ولا يستحق ذلك غير الله عز وجل ؛ لأنه مصدر النعم والإنعام من إعطاء الوجود والحياة والقدرة والعقل .

ثانياً ـ الإحسان إلى الوالدين : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ قرن الله في كثير من الآيات الأمر بعبادته بالأمر ببر الوالدين والإحسان لهما إحساناً تاماً في المعاملة ؛ لأنها بعد الله الذي هو السبب الحقيقي لوجود الإنسان ، كانا السبب الظاهري في وجود الأولاد وتربيتهم في جو مشحون بالحنان واللطف والعطف والإيثار ، والمعنى : وأمر بالوالدين إحساناً ، أو وأن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ أن اشكرْ لي ولوالدَيْك ، إليَّ المصيرُ ﴾ [لقمان ١٤/٣١] وذلك لشفقتهما على الولد ، وإنعامها عليه ، وبذل أقصى الجهد في تربيته وصونه حتى يصبح رجلاً سوياً ، فكان من الوفاء والمروءة رد شيء من الجميل والمعروف لهما ، إما بالمعاملة الحسنة والأخلاق المرضية ، وإما بالإمداد المادي إذا كانا بحاجة وكان الولد موسراً ، لذا أبان تعالى بعض وجوه الإحسان إليهما ، فقال :

﴿ إما يبلغن عندك الكبر .. ﴾ أي إذا بلغ الوالدان أو أحدهما سن الكبر ، وصارا عندك في آخر العمر بحال من الضعف والعجز ، كما كنتَ عندهما في بدء حياتك ، فعليك اتباع الواجبات الخمسة التالية :

الأول ـ ﴿ فلا تقل لهما أفٍ ﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً فيه أدنى تبرّم ، حتى ولا التأفف وهو التضجر والتألم الذي هو أدنى مراتب القول السيء ، وذلك في أي حال ، ولا سيما حال الضعف والكبر والعجز عن الكسب ، لأن الحاجة إلى الإحسان حينئذ أشد وأولى وألزم ، لذا خص حالة الكبر ؛ لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى البر ، للضعف والكبر .

روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنفه ، رغم أنفه ، رغم أنفه ، قيل ؛ من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة » .

الثاني ـ ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح . والفرق بين النهي عن التأفف والنهي عن الانتهار : أن الأول للمنع من إظهار الضجر بالقليل أو الكثير ، وأن الثاني للمنع من إظهار المخالفة في القول ، بالرد أو التكذيب ، فالتأفف : الكلام الرديء الخفي ، والنهر : الزجر والغلظة .

الثالث ـ ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ أي وقل لهما قولاً ليناً طيباً حسناً مقروناً بالتوقير والتعظيم والحياء والأدب الجم . ويلاحظ أنه تعالى قدم النهي عن المؤذي ، ثم أمر بالقول الحسن والكلام الطيب ؛ لأن التخلي مقدم على التحلي ، ومنع الأذى أولى من إحسان القول والفعل . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه مفسراً القول الكريم : هو أن يقول له : ياأبتاه ياأماه ، أي لا يدعوهما بأسمائهما ، ولا يرفع الصوت أمامهما ، ولا يحملق بنظره فيهما ، وسئل سعيد بن المسيّب عن القول الكريم فقال : هو قول العبد المذنب للسيد الفظّ .

الرابع ـ ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ أي تواضع لهما بفعلك ، والمقصود منه المبالغة في التواضع وإلانة الجانب ، فإن خفض الجناح كناية عن فعل التواضع ، وتشبيه بحال الطائر إذا ضم إليه فرخه ، فيخفض له جناحه . والتواضع ينبغي أن يكون رحمة بهما وشفقة عليهما ، لا لأجل امتثال الأمر وخوف العار والنقد فقط .

الخامس ـ ﴿ وقل : ربِّ ارحمهما كما رَبَّياني صغيراً ﴾ أي اطلب لهما الرحمة من الله في حال كبرهما وعند وفاتهما . قال القفال رحمه الله تعالى : إنه لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقوال ، بل أضاف إليه تعليم الأفعال ، وهو أن يدعو لهما بالرحمة ، فيقول : ﴿ ربِّ ارحمهما ﴾ ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا . وقوله ﴿ كما ربياني صغيراً ﴾ أي أحسن إليهما كما أحسنا إلي في تربيتهما إياي ، والتربية : هي التنمية ، وخصها بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية ، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما .

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة ، منها ماأخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ صعد المنبر ، ثم قال : « آمين آمين آمين ، قيل : يارسول الله ، علامَ أمَّنتَ ؟ قال : أتاني جبريل ، فقال : يامحمد ، رغم أنف رجل ذكرتُ عنده ، فلم يصل عليك ، قل : آمين ، فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم خرج ، فلم يغفر له ، قل : آمين ، فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما ، فلم يدخلاه الجنة ، قل : آمين ، فقلت : آمين ».

والبر يكون في حال الحياة وبعد الموت أيضاً بدليل ما أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن مالك بن ربيعة الساعدي قال : بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذا جاءه رجل من الأنصار ، فقال : يارسول الله ، هل بقي علي من برّ أبوي شيء بعد موتهما أبرُّهما به ؟ قال : « نعم ، خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما ».

فإذا كان الوالدان كافرين فللولد أن يدعو لهما حال الحياة بالهداية والإرشاد ، وأن يطلب لهما الرحمة بعد حصول الإيمان . أما بعد الموت فقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ، ولو كانوا أولي قربى في الآية : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ [التوبة ١١٢/٩] . فيعامل المسلم أبويه الذميين معاملة حسنة إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر .

ويكفي في العمل بمقتضى هذه الآية طلب الرحمة لهما مرة واحدة ؛ لأن ظاهر الأمر للوجوب ، وظاهر الأمر لا يقتضي التكرار . سئل سفيان : كم يدعو الإنسان لوالديه ؟ أفي اليوم مرة أو في الشهر ، أو في السنة ؟ فقال : نرجو أن يجزئه إذا دعا لهما في أواخر التشهدات .

وكفى بالشريعة التي جعلت عقوق الوالدين من الكبائر ، أخرج الترمذي عن عبد الله بن عمر حديثاً : « رضا الرب في رضا الوالد ، وسخط الرب في سخط الوالد » .

ثم حذر الله تعالى من التهاون في بر الوالدين فقال : ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ... ﴾ أي أن العبرة بما في القلب وماتضمرونه في أنفسكم من الإخلاص في الطاعة وعدم الإخلاص فيها ، فإن الله تعالى مطلع على مافي نفوسكم ، بل هو أعلم بتلك الأحوال منكم بها ؛ لاختلاطها بالسهو والنسيان وعدم الإحاطة بالكل ، فمن بدرت منه بادرة غير مقصودة ، فلا يعاقبه الله عليها مادامت نيته حسنة وهو من الصالحين ، فإنه سبحانه غفور للتائبين الراجعين إلى الخير ، النادمين على مافرط منهم من غير قصد . والتائب من الذنب : هو الرجّاع من المعصية إلى الطاعة ، مما يكره الله ، إلى مايحبه ويرضاه . والمقصود من الآية : التحذير من ترك الإخلاص .

ثالثاً ـ الإحسان إلى ذوي القربى والمساكين وابن السبيل : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾ لما ذكر تعالى بر الوالدين ، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ، والمعنى : وأعط أيها الإنسان المكلف القريب والمسكين والمسافر المنقطع في الطريق إلى بلده حقه ، من صلة الرحم والود ، والزيارة وحسن المعاشرة ، والنفقة إن كان محتاجاً إليها ، وإعانة المسكين ذي الحاجة ، ومساعدة ابن السبيل بالمال الذي يكفيه زاده وراحلته إلى أن يبلغ مقصده . والخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته من بعده . جاء في الحديث الذي أخرجه أبو داود عن بكر بن الحارث الأنماري : « أمك وأباك ، ثم أدناك أدناك » أو « ثم الأقرب فالأقرب » وأخرج الشيخان عن أنس عن النبي ﷺ قال : « من أحبَّ أن يُبْسَط له في رزقه ، ويُنْسأ له في أثره ، فليصل رحمَه ».

والأمر في رأي أبي حنيفة بالنسبة للأقارب المحارم كالأخت والأخ والوالدين للوجوب ، وفي رأي الشافعي للندب ، ولا تجب عند الجمهور إلا نفقة الأصول والفروع دون غيرهما من الأقارب ، وعند الحنابلة : تجب لكل الأقارب حتى الحواشي .

أما مساعدة المساكين وأبناء السبيل فهي من الصدقات المندوبة .

رابعاً ـ منع التبذير : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾: لما أمر الله تعالى بالإنفاق والبذل نهى عن الإسراف وبيَّن سياسة الإنفاق ، أي لا تنفق المال إلا باعتدال وفي غير معصية وللمستحقين ، بالوسط الذي لا إسراف فيه ولا تبذير ، والتبذير لغة : إفساد المال وإنفاقه في السرف ، والوسطية والاعتدال هي سياسة الإسلام المالية والاجتماعية والدينية ، قال تعالى : ﴿ والذين إذا أنْفَقُوا لم يُسرفوا ولم يَقْتُروا ، وكان بينَ ذلك قَوَاماً ﴾ [الفرقان ٦٧/٢٥] .

ثم نبّه الله تعالى على قبح التبذير بإضافته إلى أفعال الشياطين ، فقال : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ أي إن المبذرين المنفقين أموالهم في معاصي الله يشبهون في هذا الفعل القبيح الشياطين ، فهم قرناء الشياطين في الدنيا والآخرة ، وأشباههم في ذلك في الصفة والفعل ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحمنِ نقيِّضْ له شَيْطَاناً ، فهو له قَرينٌ ﴾ [الزخرف ٣٦/٤٣] وقال تعالى : ﴿ آحْشُروا الذين ظَلَموا وأزواجَهم ﴾ [الصافات ٢٢/٣٧] أي قرناءهم من الشياطين .

قال ابن مسعود : التبذير : الإنفاق في غير حق ، وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق ، لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مداً في غير حق ، كان مبذراً . وعن علي كرم الله وجهه قال : ما أنفقتَ على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير ، وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة ، فذلك حظ

الشيطان . وأنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر ، فقيل له : لا خير في السرف ، فقال : لا سرف في الخير .

﴿ وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ أي وكان الشيطان لنعمة ربه جحوداً ؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ، ولم يعمل بطاعته ، بل أقبل على معصيته ومخالفته ، فاستعمل نفسه في المعاصي والإفساد في الأرض ، وإضلال الناس .

قال الكرخي : وكذلك من رزقه الله جاهاً أو مالاً ، فصرفه إلى غير مرضاة الله ، كان كفوراً لنعمة الله ؛ لأنه موافق للشيطان في الصفة والفعل .

وفي صفة الشيطان أنه كفور لربه دلالة على كون المبذر أيضاً كفوراً لربه .

وقال بعض العلماء : خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب ، وذلك لأنهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب والغارة ، ثم كانوا ينفقونها في طلب الخيلاء والتفاخر ، وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله ، وإعانة أعدائه ، فنزلت هذه الآية تنبيهاً على قبح أعمالهم .

خامساً ـ الوعد الجميل بالعطاء أو القول الميسور : ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة ﴾ أي إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة ، بعد أن سألوك ، فقل لهم قولاً سهلاً لطيفاً ليناً ، وعدهم وعداً بسهولة ولين بالصلة والعطاء إذا جاء رزق الله ، واعتذر بعذر مقبول .

سادساً ـ القصد في الإنفاق : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ..﴾ لما أمر الله تعالى بالإنفاق ذكر هنا أدب الإنفاق ، والاقتصاد في العيش ، بذم البخل ، والنهي عن السرف ، أي لا تمسك عن الإنفاق بحيث تبخل على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات ، ولا تسرف ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً

مفرطاً ، فتعطي فوق طاقتك ، وتنفق أكثر من دَخْلك ، بحيث لا يبقى في يدك شيء .

والخلاصة : إن أصول الإنفاق هو الاقتصاد في العيش ، والتوسط في الإنفاق ، دون بخل ولا سرف ، فالبخل إفراط في الإمساك ، والتبذير إفراط في الإنفاق ، وهما مذمومان ، وخير الأمور أوساطها ، والفضيلة وسط بين رذيلتين .

روى أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عال من اقتصد » وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة » . وروى الديلمي في مسند الفردوس عن أنس مرفوعاً : « التدبير نصف العيش ، والتودد نصف العقل ، والهمّ نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين »[1] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا وملَكان ينزلان من السماء ، يقول أحدهما : اللهم أعطِ مُنْفقاً خَلَفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » . وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : « ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله » . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : « إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا » .

ثم أبان الله تعالى ربط الرزق بمشيئته وإرادته ، ليدرك الناس أن تضييق الرزق أحياناً على بعضهم ليس لسوء حالهم عند الله ، فقال : ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي إن ربك أيها الرسول هو الرزاق ، القابض الباسط ، المتصرف في خلقه بما يشاء ، فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ، لما له في ذلك

(١) ورواه القضاعي عن علي رضي الله عنه ، وهو حديث حسن .

من الحكمة ، لذا قال : ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي أنه تعالى عالم بأن مصلحة كل إنسان في أن لا يعطيه إلا ذلك القدر ، فهو خبير بصير بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر ، فالتفاوت في أرزاق العباد ليس لأجل البخل ، بل لأجل رعاية المصالح ، جاء في الحديث الذي ذكره السيوطي في المسانيد (الجامع الكبير) : « إن من عبادي المؤمنين لَمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه » . وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً ، والفقر عقوبة .

والمقصود بالآية أنه تعالى عرف رسوله ﷺ كونه رباً ، والرب : هو الذي يربي المربوب ويقوم بإصلاح مهماته ودفع حاجاته على مقدار الصلاح والصواب ، فيوسع الرزق على البعض ، ويضيقه على البعض .

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم مما ذكر أن الآيات ترشد إلى الأحكام التالية :

١ ـ التوحيد أساس الإيمان ، والإشراك رأس الكفر والضلال .

٢ ـ الإحسان إلى الوالدين فرض لازم واجب ، وقد أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده ، وجعل بر الوالدين مقروناً بذلك ، كما قرن شكرهما بشكره ، فقال : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ﴾ وقال : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ، إلي المصير ﴾ .

٣ ـ من البرّ بالأبوين والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبِّهما ولا لعقوقهما ؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف .

٤ ـ عقوق الوالدين : مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما ، كما أن برّهما موافقتهما على أغراضهما ، فتجب طاعتهما في المباح المعروف غير المعصية ، ولا تجب طاعتهما في المعصية .

روى الترمذي عن ابن عمر قال : كانت تحتي امرأة أحبّها ، وكان أبي يكرهها ، فأمرني أن أطلّقها فأبَيْت ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : « ياعبد الله بن عمر ، طلّق امرأتك » .

٥ ـ لا يختص برّ الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل يجب برهما ولو كانا كافرين ، ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد ، قال الله تعالى : ﴿ لا ينهاكمُ اللهُ عن الذين لم يُقاتِلُوكم في الدّينِ ولم يُخْرِجُوكم من دياركم أن تَبرُّوهم ﴾ [الممتحنة ٨/٦٠] . وفي صحيح البخاري عن أسماء قالت : « قدِمت أمّي وهي مشركة في عهد قريش ومُدّتهم ، إذ عاهدوا النبي ﷺ ، مع أبيها ، فاستفتيت النبي ﷺ فقلت : إن أمي قدمت ، وهي راغبة[1] ، أفأصلها ؟ قال : نعم ، صِلي أمّك » .

٦ ـ من الإحسان إلى الأبوين والبِرّ بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد الولد إلا بإذنهما . روى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد ، فقال : « أحيٌ والداك » ؟ قال : نعم ، قال : « ففيهما فجاهد » .

أما الوالدان المشركان فكان الثوري يقول : لا يغزو إلا بإذنهما ، وقال الشافعي : له أن يغزو بغير إذنهما .

٧ ـ من تمام برّ الوالدين : صلة أهل وُدّهما ، ففي صحيح مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن من أبرّ البرّ : صلة الرجل أهل وُدّ أبيه ، بعد أن يُولّي » وقد ذكر حديث أبي أُسيد الساعدي البدري .

٨ ـ هناك رقابة خاصة من الله تعالى على معاملة الأبوين ؛ لقوله سبحانه : ﴿ ربُّكم أعلمُ بما في نفوسِكم ﴾ أي من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما ، أو من غير ذلك من العقوق ، أو من جعل ظاهر برهما رياءً .

(١) أي راغبة في بري وصلتي .

٩ ـ وكما أمر الله بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حقهما ، أمر أيضاً بصلة الرحم ، وبالتصدق على المسكين وابن السبيل .

١٠ ـ يحرّم الإسلام التبذير ، والتبذير كما قال الشافعي رضي الله عنه : إنفاق المال في غير حقه ، ولا تبذير في عمل الخير . وهذا قول الجمهور . وقال مالك : التبذير : هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام ؛ لقوله تعالى : ﴿ إن المبذّرين كانوا إخوانَ الشياطين ﴾ أي أنهم في حكمهم ؛ إذ المبذر ساعٍ في إفساد كالشياطين .

١١ ـ من أنفق ماله في الشهوات زائداً على قدر الحاجات ، وعرَّضه بذلك للنفاد فهو مبذر ، ومن أنفق درهماً في حرام فهو مبذر ، ويحجر عليه . ومن أنفق ربح ماله في شهواته ، مع المحافظة على أصل رأس المال ، فليس بمبذر .

١٢ ـ الأدب الرفيع هو رد ذوي القربى بلطف ووعدهم وعداً جميلاً بالصلة عند اليسر ، والاعتذار إليهم بما هو مقبول وفيه تطييب الخاطر ، ولا يعرض الشخص عنهم إعراض مستهين ، وهو في حال الغنى والقدرة ، فيَحْرِمهم حقهم . لقوله تعالى : ﴿ وإما تعرضن ﴾ أي إن أعرضت يامحمد عن إعطائهم لضيق يد ، فأحسن القول ، وابسط العذر ، وادع لهم بسعة الرزق ، وقل : إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ ، فإن ذلك يعمل في مَسَرَّة نفسه عمل المواساة .

١٣ ـ الإنفاق في الإسلام : هو التوسط والاعتدال من غير بخل ولا إسراف ، ولا تضييع المنفق عياله في المستقبل ، أو ألا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له ، فإن الإسراف وإتلاف المال بغير حق يوقع المسرف في الحسرة والندامة والملامة . والملوم : الذي يلام على إتلاف ماله ، أو يلومه من لا يعطيه .

١٤ ـ إن الله أعلم بمصالح عباده وبأحوالهم ، فيرزق من يشاء ، ويمنع من يشاء على وفق الحكمة والمصلحة .

أصول أخرى
لنظام المجتمع الإسلامي

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ
إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ
جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ
أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟
بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ
وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ
طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

الإعراب :

﴿ وساء سبيلاً ﴾ نصب على التمييز ، التقدير : وساء سبيله سبيلاً ، أي لأنه يؤدي إلى النار .

﴿ إنه كان منصوراً ﴾ الهاء إما أن تعود على القتل أو على المقتول أو على الولي .

﴿ ولا تمش في الأرض مَرَحاً ﴾ منصوب على المصدر ، ومن قرأ : ﴿ مَرِحاً ﴾ بكسر الراء كان منصوباً على الحال .

﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال من الجبال أو من الفاعل .

﴿ كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً ﴾ ﴿ كل ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ ذلك ﴾ : إشارة إلى المذكور المتقدم من قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ﴾ إلى هذا الموضع . و ﴿ سيئه ﴾ : اسم ﴿ كان ﴾ ، و ﴿ مكروهاً ﴾ : خبر ﴿ كان ﴾ . و ﴿ عند ربك ﴾ ظرف حشو ، أو أنه خبر ﴿ كان ﴾ أي كائناً عند ربك مكروهاً ، و ﴿ مكروهاً ﴾ : حال من المضر في الظرف . ومن قرأ : ﴿ سيئةً ﴾ بالتنوين ، جعل اسم ﴿ كان ﴾ ضميراً يعود إلى ﴿ كل ﴾ و ﴿ سيئة ﴾ : خبرها ، و ﴿ مكروهاً ﴾ : صفة ثانية . وقال : مكروهاً لا مكروهة ؛ لأن تأنيث السيئة مجازي غير حقيقي ، أو أنه خبر آخر لكان ، وذكّره لأن ضمير ﴿ كل ﴾ مذكر ، ويكون ﴿ عند ربك ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ مكروهاً ﴾ .

البلاغة :

﴿ ولا تقربوا الزنى ﴾ أبلغ من القول : لا تأتوه ، أو لا تزنوا .

﴿ كل أولئك ﴾ عبر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك ؛ لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها مسؤولة ، فهي حالة من يعقل ، فعبر عنها بأولئك .

المفردات اللغوية :

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ بالوأد ﴿ خشية إملاق ﴾ خوف الفقر ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ قدّم هنا رزق الأبناء على رزق الآباء : لأن قتل الأولاد كان خشية وقوع الفقر بسببهم ، فقدم رزقهم ، وفي سورة الأنعام ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ [١٥١] قدم رزق الآباء على رزق الأولاد ، لأن قتلهم كان بسبب فقر الآباء ﴿ خِطْئاً ﴾ إثماً ﴿ كبيراً ﴾ عظيماً .

﴿ فاحشة ﴾ فعلة قبيحة ظاهرة القبح ﴿ وساء سبيلاً ﴾ بئس طريقاً هو ، لأنه اعتداء على الأعراض ، وغصب الأبضاع المؤدي إلى اختلاط الأنساب وقطعها ، وتهييج الفتن ﴿ لوليه ﴾ لوارثه ﴿ سلطاناً ﴾ تسلطاً على القاتل بمؤاخذته على القتل ، بإشراف الحاكم وحكمه ، أو بالقصاص من القاتل ، فإن قوله تعالى : ﴿ مظلوماً ﴾ يدل على أن القتل قتل عمد عدوان ؛ لأن الخطأ لا يسمى ظلماً ﴿ فلا يسرف ﴾ يتجاوز الحد المشروع ﴿ في القتل ﴾ بأن يقتل غير القاتل ، أو بغير ما قتل به ، أو أكثر من شخص ، منعاً لعادة الأخذ بالثأر في الجاهلية .

﴿ بالتي هي أحسن ﴾ أي الطريق التي هي أحسن ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ عهد الله أي تكاليفه ، أو عهد الناس الذي تبرمونه معهم إبراماً موثقاً مؤكداً ﴿ مسؤولاً ﴾ عنه ، ومطلوباً من المعاهد ألا يضيعه ويفي به ﴿ وأوفوا الكيل ﴾ أتموه ﴿ بالقسطاس المستقيم ﴾ الميزان السوي أو العدل

﴿ تأويلاً ﴾ مآلاً أو عاقبة ﴿ ولا تقْفُ ﴾ لا تتبع ما لا تعلم ﴿ والفؤاد ﴾ القلب ﴿ مسؤولاً ﴾ صاحبه : ماذا فعل به ؟ فكل هذه الأعضاء يسأل صاحبها عما فعل بها ، وأجراها مجرى العقلاء ، لما كانت مسؤولة عن أحوالها ، شاهدة على صاحبها .

﴿ مرحاً ﴾ فخراً وتكبراً ، أو ذا مرح بالكبر والخيلاء ﴿ لن تخرق الأرض ﴾ تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك أو لن تجعل فيها طرقاً بشدة وطأتك ﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ أي لا تبلغ هذا المبلغ ، فكيف تختال ؟! ﴿ كل ذلك ﴾ المذكور من قوله : ﴿ وقضى ربك ﴾ إلى هذا الموضع ﴿ مما أوحى إليك ﴾ يامحمد ﴿ من الحكمة ﴾ هي معرفة الحق سبحانه لذاته ، والخير والموعظة للعمل بها . ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ كرره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه ، فإن من لا قصد له لا يقبل عمله ، ومن قصد بفعله أو تركه غير التوحيد ، ضاع سعيه ، وأنه ـ أي التوحيد ـ رأس الحكمة وملاكها ﴿ ملوماً ﴾ تلام نفسك ﴿ مدحوراً ﴾ مطروداً من رحمة الله . ثم رتب على الشرك نتيجته في الآخرة ، وهو الإلقاء في جهنم .

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى بخمسة أشياء أولاً هي (التوحيد ، والاشتغال بعبادة الله بإخلاص والاحتراز عن عبادة غير الله ، والإحسان إلى الوالدين والتواضع لهما ، وإيتاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل ، والقول الميسور) ثم ذكر أدب الإنفاق وهو التوسط دون إسراف ولا تقتير ، أتبعه بالنهي عن ثلاثة أشياء وهي (النهي عن الزنى ، وعن القتل إلا بالحق ، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) .

ثم أتبعه بأوامر ثلاثة : هي الوفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل ، ووزن الميزان بالقسط أو العدل . ثم نهى عن ثلاثة أشياء : اتباع ما لا علم له به ، والتكبر والخيلاء ، واتخاذ الشركاء آلهة مع الله .

والخلاصة : أنه تعالى جمع في هذه الآيات وماقبلها خمسة وعشرين نوعاً من التكاليف وهي ما يأتي ، مبتدئاً بالأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك ، مختتماً به

أيضاً ، للتنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب أن يكون ذكر التوحيد[١] :

١ ـ نبذ الشرك : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ .

٢، ٣ ـ الأمر بعبادة الله ، والنهي عن عبادة غير الله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ .

٤ ـ الإحسان إلى الوالدين : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ .

٥، ٩ ـ نواحي الإحسان للوالدين وهي خمسة : ﴿ فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما ﴾ .

١٠، ١٢ ـ إيتاء المستضعفين الثلاثة : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾ .

١٣ ـ عدم التبذير : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ .

١٤ ـ القول الميسور : ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ .

١٥ ـ عدم البخل والتقتير : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ .

١٦ ـ تحريم وأد البنات أو قتل الأولاد : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ .

١٧ ـ تحريم القتل إلا بالحق : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ .

١٨ ـ حق الولي في القصاص : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ .

١٩ ـ تحريم الإسراف في القصاص : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ .

---

(١) تفسير الرازي : ٢١٣/٢٠

٢٠ ـ الوفاء بالعهد : ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ .
٢١ ـ إيفاء الكيل : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ .
٢٢ ـ الوزن بالعدل : ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ .
٢٣ ـ عدم اتباع الظن : ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم ﴾ .
٢٤ ـ تحريم التكبر والخيلاء : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ .
٢٥ ـ تحريم الشرك : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ .

التفسير والبيان :

هذا هو النوع الخامس من الطاعات المذكورة في هذه الآيات التي تبين دعائم المجتمع الإسلامي[1] ، وهو تحريم وأد البنات ، فبعد أن بيّن تعالى كيفية البر بالوالدين ، بيّن كيفية البر بالأولاد .

والمعنى : ولا تقتلوا بناتكم خوف الفقر أو العار ، فنحن نرزقهم لا أنتم ، ونرزقكم أيضاً ، إن قتلهم خوف الفقر أو العار كان إثماً وذنباً عظيماً ، وخطأ جسيماً . وقدم الإخبار برزق الأولاد هنا ؛ لأنه خاطب الموسرين منهم وذكر الاهتمام برزقهم ، وقدم الإخبار برزق الآباء في سورة الأنعام ﴿ نحن نرزقكم وإيّاهم ﴾ [١٥١] لأنه خاطب الفقراء ، ونهاهم عن قتلهم من فقر ، فالأرزاق للآباء والأولاد بيد الله ، وقتل الأولاد خوف الفقر من سوء الظن بالله ، وإن كان خوف العار ، والغيرة على البنات ، فهو سعي في تخريب العالم .

والآية دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده ؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد ، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث . وكان أهل الجاهلية لا يورثون

(١) والأنواع الأربعة السابقة : هي الأمر بالتوحيد ، والاشتغال بعبادة الله تعالى دون غيره ، والأمر ببر الوالدين ، وإيتاء القريب والمسكين وابن السبيل حقه دون بخل ولا تبذير . وحق الوالدين خمسة أشياء : عدم التأفيف ، وعدم الانتهار بكلام زاجر ، والقول الكريم الطيب ، والمبالغة في التواضع ، والدعاء لهما بالرحمة .

البنات دائماً ، ويقتلون البنات أحياناً بوأدهن أحياء في التراب ؛ لعجزهن عن الكسب ، وقدرة البنين عليه بالغارة والنهب والسلب ، وأيضاً كانوا يخافون من أن فقر البنات ينفر الأكفاء عن الرغبة فيهن ، فيحتاجون إلى تزويجهن من غير الأكفاء .

جاء في الصحيحين عن ابن مسعود : « قلت : يارسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك » .

النوع السادس ـ تحريم الزنى : وبعد أن أمر الله تعالى بالأشياء الخمسة المتقدمة ، أتبعه بالنهي عن ثلاثة أشياء هي الزنى والقتل وأكل مال اليتيم ، وبدأ بتحريم الزنى ، لأنه نوع من الإسراف ، عقب النهي عن قتل الأولاد الذي هو مظهر من مظاهر البخل ، فقال سبحانه : ﴿ ولا تقربوا الزنى ، إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ أي لا تقتربوا من الزنى ، ولا من أسبابه ودواعيه ؛ لأن تعاطي الأسباب مؤد إليه ، والزنى فعلة فاحشة شديدة القبح ، وذنب عظيم ، وساء طريقاً ومسلكاً ؛ لأن فيه هتك الأعراض ، واختلاط الأنساب ، واقتحام الحرمات ، والاعتداء على حقوق الآخرين ، وتقويض دعائم المجتمع بهدم الأسرة ، ونشر الفوضى ، وفتح باب الاضطراب ، وانتشار الأمراض الفتاكة ، والوقوع في الفقر والذل والهوان . قال القفال : إذا قيل للإنسان : لا تقرب هذا ، فهذا آكد من أن يقول له : لا تفعله ، ثم إنه تعالى علل هذا النهي بكونه ﴿ فاحشة وساء سبيلاً ﴾ .

أخرج ابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : « مامن ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له » .

وقد علّم النبي ﷺ في حديث أخرجه أحمد فتى شاباً درساً بليغاً واقعياً في أن الزنى كما هو مبغوض مكروه في أمهات الإنسان وبناته وأخواته وعماته وخالاته ، فكذلك هو مبغوض لا يحبه الناس لأمهاتهم وبناتهم وأخواتهم وعماتهم وخالاتهم ، ثم وضع يده عليه ، وقال : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وأحصن فرجه » فلم يكن ذلك الفتى بَعْدُ يلتفت إلى شيء .

أما بلاد الشرق والغرب التي تبيح الزنى ولو علانية ، فإنها لا تهتم باختلاط الأنساب ، ولا بما يسمى بالعرض ، فقد رُفع هذا من القيم الأخلاقية عندهم ، وجعلوا الاستمتاع بالمرأة كالطعام والشراب ، وهذا نذير سوء ، وقلب للأوضاع ، ونكسة في الفطرة الإنسانية .

وقد وصف الله تعالى الزنى بصفات ثلاث : كونه فاحشة ، ومقتاً في آية أخرى ، وساء سبيلاً . أما كونه فاحشة : فلاشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم ، ولاشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج ، وهو أيضاً يوجب خراب العالم . وأما المقت : فلأن الزانية تصير ممقوتة مكروهة ، حتى في الأوساط المتحللة ، وذلك يوجب عدم السكن والازدواج ، وأن لا يعتمد الإنسان عليها في شيء من مهماته ومصالحه . وأما أنه ساء سبيلاً : فلأنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكور بالإناث ، وأيضاً يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة ، من غير أن يصير مجبوراً بشيء من المنافع[1] .

النوع السابع ـ تحريم القتل : ﴿ ولا تقتلوا النفس ..﴾ هذا هو ثاني الأمور المنهي عنها ، وسابع أحكام المجتمع ، وناسب ذكره بعد الزنى ؛ لأن الزنى يؤدي إلى عدم وجود الإنسان ، ويقلل من النسل البشري ، أما القتل فيهدم وجود الإنسان ، وهو إعدام الناس بعد وجودهم ، وهو حرام لكونه اعتداء على خلق

(١) تفسير الرازي : ٢٠/١٩٨ـ١٩٩

الله ، وهدم له ؛ لأن الإنسان ليس ملكاً لنفسه ، إنما هو ملك لخالقه ، وثروة لمجتمعه ودولته ، ولذلك حَرّم الانتحار وحَرّم قتل النفس إلا بالحق ، فمن قتل نفسه فهو آثم معتد ، ومن قتل غيره فهو أيضاً معتد أثيم .

ومعنى الآية : ولا تقتلوا النفس الإنسانية التي حرم الشرع قتلها إلا إذا كان بحق شرعي ، وهو أحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان (ردة) وزنى بعد إحصان ، وقتل معصوم الدم عمداً ، ثبت في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . وثبت في السنن للترمذي والنسائي عن ابن عمرو : « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم » .

فالقتل بغير حق جريمة عظمى ؛ لأنه إفساد والله تعالى لا يحب الفساد ، وضرر واعتداء ، وإخلال بالأمن ، وإحداث للاضطراب في المجتمع ، وسبيل لانقراض الإنسانية .

وبعد أن استثنى الله تعالى من تحريم القتل حالة القتل بالحق بقوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ أثبت الحق في تنفيذ القصاص بإشراف الدولة لولي الدم ، مع تقييده بحصر القتل في القاتل نفسه دون غيره ، فقال : ﴿ ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ..﴾ أي ومن قتل ظلماً وعدواناً بغير حق يوجب قتله ، فقد جعلنا لمن يلي أمره من وارث أو سلطان حاكم عند عدم الوارث سلطة على القاتل ومنحه الخيار بأحد أمرين : إما القصاص (القَوَد) منه بعد حكم قضائي وبإشراف القاضي ، وإما العفو عنه على الدية أو مجاناً كما ثبت في السنة ، لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القِصاصُ في القَتْلى ﴾ [البقرة ١٧٨/٢] وقوله ﷺ فيما رواه أبو داود والنسائي عن أبي شُريح الْخُزاعي : « من قُتِل له قتيلٌ بعد مقالتي هذه ، فأهله بين خِيَرتين : إما أن يأخذوا العَقْل ـ الدية ـ أو يَقْتلوا » .

وهذا السلطان لولي الدم مقيد بألا يسرف في القتل ، أي فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به ، أو يقتص من غير القاتل ، كعادة أهل الجاهلية والجاهلين اليوم الذين يقتلون الجماعة في الواحد تشفياً واستعلاء ، قال مهلهل بن أبي ربيعة حين قُتل بُجَير بن الحارث بن عباد : بُؤْ بشِسْع نعل كليب أخي ، أي أنت تساوي نعل كليب ، ولا يكفيني في كليب إلا قتل آل مُرّة جميعاً .

لا تسرف أيها الولي في استيفاء القتل ، فإنك معانٌ منصورٌ على القاتل شرعاً وقدراً ، حيث وجب لك القصاص ، ويعوضك الله خيراً في الدنيا والآخرة ، بتكفير الخطايا ، وتعذيب القاتل في النار .

والمقصود بذلك : أن الأولى ألا يقدم ولي الدم على استيفاء القتل ، وأن يكتفي بأخذ الدية ، أو يعفو مجاناً ؛ لقوله تعالى : ﴿ فمن عُفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾ [البقرة ١٧٨/٢] وقوله سبحانه .: ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ [البقرة ٢٣٧/٢] .

النوع الثامن ـ تحريم أكل مال اليتيم :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ..﴾ بعد أن حرم الله تعالى إتلاف الأنفس حرم إتلاف الأموال ، والمعنى لا تتصرفوا في مال اليتيم ولا تقربوا منه أكلاً وإتلافاً إلا بما يحقق الفائدة أو المصلحة الظاهرة لليتيم ، وهي الطريقة الحسنى بحفظ ماله وتثميره حتى يبلغ رشيداً ، ويبلغ أشده مبلغ الرجال ، ويكتمل عقله ، فالمراد بالأشد : بلوغه إلى سن يتمكن فيه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله ، وعند الرشد تزول ولاية غيره عنه ، وهو حد البلوغ رشيداً . فإن بلغ غير عاقل أو غير رشيد ، بقيت الولاية السابقة عليه . وبلوغ العقل : هو أن يكمل عقله وقواه الحسية والحركية .

ونظير الآية : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً

فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ [النساء ٦/٤] . فيجوز لولي اليتيم إذا كان فقيراً أن يأخذ شيئاً من مال اليتيم للحاجة بقدر المعروف .

ولما نزلت آية ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ شق ذلك على الصحابة ، فكانوا لا يخالطون اليتامى في طعام ولا غيره ، مما أدى إلى إهمال شؤون الأيتام ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وإنْ تُخَالِطُوهُمْ فإخوانُكم ، واللهُ يَعْلَمُ المفسدَ من المصلحِ ﴾ [البقرة ٢٢٠/٢] .

النوع التاسع ـ الوفاء بالعهد : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً ﴾ : بعد أن أمر الله تعالى بخمسة أشياء أولاً ، ثم نهى عن ثلاثة أشياء (الزنى ، والقتل إلا بالحق ، وقربان مال اليتيم) أمر بأوامر ثلاثة : أولها ـ الوفاء بالعهد ، والمعنى : وفّوا بالعهد الذي تعاهدون عليه الناس ، وبالعقود التي تعاملونهم بها ، فإن العهد والعقد ، كل منهما يسأل صاحبه عنه ، ونظير الآية : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أوْفُوا بالعقودِ ﴾ [المائدة ١/٥] فالعهد فضيلة وميثاق ، والعقد التزام وارتباط ، والإخلال بالعهد خيانة ونفاق ، والتحلل من العقد إهدار للثقة وتضييع للحقوق ، فيجب شرعاً الوفاء بالعهد ، وتنفيذ مقتضى العقد ، فمن أخلف بوعده ، ولم يوف بعهده ، ولم ينفذ التزام عقده ، وقع في الإثم والمعصية ، وأخل بمقتضى الإيمان والدين ، والعهد : أمر عام يشمل كل مابين الإنسان وبين الله والنفس والناس . والعقد : كل التزام يلتزمه الإنسان ، كعقد اليمين والنذر ، وعقد البيع والشركة والإجارة والصلح والزواج .

وكل عقد لأجل توثيق الأمر وتوكيده ، فهو عهد .

لذا تواردت الآيات الدالة على وجوب الوفاء بالعهود والعقود ، كقوله تعالى : ﴿ والْمُوفُون بعهدِهم إذا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة ١٧٧/٢] وقوله : ﴿ والذين هم لأماناتِهم وعهدِهم راعون ﴾ [المؤمنون ٨/٢٣ ، المعارج ٣٢/٧٠] وقوله : ﴿ وأحلَّ الله

البيعَ ﴾ [البقرة ٢/٢٧٥] وقوله : ﴿ يـاأيها الـذين آمنـوا لا تَـأْكُلُوا أمـوالكم بينكم بالباطلِ إلا أن تكونَ تجارةً عن تراضٍ منكم ﴾ [النساء ٤/٢٩] .

والوفـاء بـالعهـد أو بـالعقـد : تنفيـذ مقتضـاه ، والحفـاظ عليـه على الوجـه الشرعي ، وعلى وفق التراضي الذي لا يصادم الشرع .

النوع العاشر ـ إيفاء الكيل والوزن بالعدل : ﴿ وأوفوا الكيـل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ... ﴾ هذا هو الأمر الثاني من الأوامر الثلاثـة المـذكورة في هذه الآيـة ، وهو إتمـام الكيل وإتمـام الوزن ، أي أتموا الكيل من غير تطفيف ونقص ، وأتموا الوزن بالعـدل دون جور أو حيف ، فـإن كلتم لأنفسكم أو وزنتم فلا تزيدوا في الكيل أو الوزن ، ولا مانع إن نقصتم عن حقكم . ﴿ ذلك خير .. ﴾ أي فإن عاقبة الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والوزن بالعدل خير لكم في الـدين والـدنيـا في معاشكم ومعادكم ، وأحسن مآلاً ومنقلباً في آخرتكم ، فلا تؤاخـذون أو تعـاقبون يوم القيامة ، ويرغب الناس في معاملتكم ، ويثنون عليكم ، ولا تتعرضون لإسـاءة السمعة ، أو عقاب السلطة ، فقـد ثبت بـالتجربـة أن التـاجر الثقـة الصـدوق هو المحبوب الرابح الذي يقبل عليه الناس ، وأن التاجر الذي يطفف الكيل أو الوزن هو المنبوذ المبغوض الخاسر الذي يعرض الناس عنه .

وقـد وردت آيـات كثيرة في معنى هـذه الآيـة ، منهـا ﴿ وأقيموا الـوزنَ بـالقِسطِ ، ولا تُخْسروا الميزانَ ﴾ [الرحمن ٥٥/٩] ومنهـا : ﴿ ولا تَبْخَسُوا النـاسَ أشيـاءَهم ولا تَعْثَـوْا في الأرضِ مُفْسـدين ﴾ [الأعراف ٧/٨٥] ومنهـا : ﴿ ويـلٌ للمطفِّفين ، الـذين إذا اكْتَـالوا على النـاسِ يَسْتـوفـون ، وإذا كالُـوهم أو وَزَنُـوهم يُخْسِرُون ﴾ [سورة المطففين ٨٣/١ـ٣] .

وكل من الوفـاء بـالعقود والعهـود وإتمـام الكيـل والميزان قـاعـدة حضـاريـة اجتماعية سامية ، وأساس راسخ ضروري في صرح التعـامل بين النـاس ، يؤدي إلى

توفير الثقة والطمأنينة ، ويكون سبباً لتنمية العلاقات وزيادة الكسب والأرباح .

النوع الحادي عشر ـ التخمين وسوء الظن : ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم .. ﴾ أي أنه تعالى بعد بيان الأوامر الثلاثة عاد إلى ذكر النواهي ، فنهى عن ثلاثة أشياء :

أولها ـ القول بالحدس والتخمين وسوء الظن ، فهذا عيب في السلوك ، وتشويه للحقائق ، وطعن في الآخرين بغير حق ، وإهدار لقدسية العلم والحقيقة . والمعنى : ولا تتبع ولا تقتف مالا علم لك به من قول أو فعل ، والمقصود النهي عن الحكم على الأشياء بما لا يكون معلوماً علماً صحيحاً ، ولا دليل عليه . وهذا يشمل نهي المشركين عن الاعتقاد الفاسد في القضايا الإلهية والنبوات ، بسبب تقليد أسلافهم ، واتباع الهوى : ﴿ إِنْ يَتَّبِعون إلا الظنَّ وما تَهْوى الأنفسُ ﴾ [النجم ٢٣/٥٣] .

ويشمل أيضاً شهادة الزور وقول الزور ، والقذف ورمي المحصنين والمحصنات (العفائف) بالأكاذيب ، والكذب والبهتان والافتراء ، والطعن في الآخرين بالظن وتتبع العورات ، وتزييف الحقائق العلمية والأخبار وغير ذلك ، فلا يصح لإنسان أن يقول مالا يعلم ، أو يعمل بما لا علم له به ، أو أن يذم أحداً بما لا يعلم .

وقد شاع هذا الخلق المذموم بين المسلمين ، وصار التحدث بغير علم ولا معرفة ولا ثقة ظاهرة منتشرة بسبب ضعف الدين والإيمان ، وتفسخ الأخلاق ، وانحلال القيم ، واتباع الأهواء ، وضعف النفوس والانغماس في المادة ، وتحلل القيم .

لذا حذر القرآن من تلك الظاهرة المرضية ، فقال تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد .. ﴾ أي إن مفاتيح العلوم والمعارف من السمع والبصر وهما واسطة العلوم الحسية والتجريبية ، والفؤاد وبه تتحصل العلوم العقلية ، يسأل عنها صاحبها يوم القيامة ، وتسأل عنه ، فإذا سمع الإنسان مالا يحل له سماعه ،

وأبصر أو نظر إلى مالا يحل له النظر إليه ، وعزم على مالا يحل العزم عليه ، كان مسؤولاً عنه ، معاقباً عليه ؛ لأن أدوات المعرفة هذه ينبغي استعمالها في الطاعة لا في المعصية . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجْتَنِبُوا كثيراً من الظنِّ ، إن بعضَ الظنِ إثمٌ ﴾ [الحجرات ١٢/٤٩] وقال ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ».

بل إن هذه الأدوات تسأل عن صاحبها بأن يخلق الله فيها الحياة ، ثم تشهد على الإنسان ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يوم تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يَعْملون ﴾ [النور ٢٤/٢٤] .

قال ابن عباس : لاتشهد إلا بما رأت عيناك ، وسمعته أذناك ، ووعاه قلبك . وقال قتادة : لاتقل : سمعتُ ولم تسمع ، ولا رأيتُ ولم تر ، ولا علمتُ ولم تعلم .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

النوع الثاني عشر ـ تحريم التكبر والخيلاء : ﴿ ولاتمش في الأرض مرحاً .. ﴾ هذا هو الأمر الثاني المنهي عنه هنا ، وهو تحريم الكبر والتجبر والتبختر في المشية ، والمعنى : ولاتمش في الأرض مَرَحاً أي متبَختراً متمايلاً مشي الجبارين ، فذلك المشي يدل على الكبرياء والعظمة ، إنك لن تخرق الأرض أي تنقبها أو تقطعها بمشيك إذا سرت عليها ، ولن تبلغ الجبال طولاً ، أي لن تصل بتطاولك وتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك إلى قمم الجبال ، وهذا تهكم بالمتكبر والمختال .

بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده ، كما ثبت في صحيح مسلم : « بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم ، وعليه بُرْدان يتبَختر فيهما ، إذ خُسف به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وأخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على

قومه في زينته ، فخسف الله به وبداره الأرض . وفي الحديث الحسن الذي رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة من تواضع لله رفعه الله » فهو في نفسه حقير ، وعند الله كبير .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ وعبادُ الرحمنِ الذين يَمْشون على الأرضِ هَوْناً ﴾ [الفرقان ٦٣/٢٥] وقوله سبحانه : ﴿ واقصدْ في مَشْيِك واغْضُضْ من صوتِك ﴾ [لقمان ١٩/٣١] .

خاتمة معبرة :

﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ كل ماتقدم من الخصال القبيحة المفهومة من الأوامر والنواهي ، وهي خمس وعشرون ، من قوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ إلى هنا ، كان سيئه أي قبيحه مكروهاً عند ربك ، أي مبغوضاً عنده ، ومنهياً عنه ، ومعاقباً عليه ، وإن كان مراداً له تعالى بالإرادة التكوينية التي لاتستدعي الرضا منه سبحانه ، كما قال ﷺ : « ماشاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن » .

وكلمة ﴿ ذلك ﴾ تصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر .

﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ أي ذلك الذي أمرناك به من الأخلاق الحميدة ، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة ، هو مما أوحينا إليك يا محمد من أصول الشريعة والدين ، والحكم به ، لتأمر به الناس ، والمراد بالحكمة : التكاليف المذكورة .

﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر .. ﴾ لاتتخذ إلهاً آخر شريكاً مع الله ، فتعاقب بالإلقاء في جهنم ملوماً : تلومك نفسك ، ويلومك الله والخَلْق ، مدحوراً ، أي مطروداً مبعداً من رحمة الله تعالى ومن كل خير .

والخطاب في هذه الآية للأمة ، بواسطة الرسول ﷺ ، فإنه معصوم فيكون

المراد به : كل من سمع الآية من البشر . وقد بدأ الله تعالى هذه التكاليف بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك ، وختمها بعين هذا المعنى . والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذِكْر وآخره يجب أن يكون مبتدئاً ومقترناً بالتوحيد ، وأن المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والتعمق فيه .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل ، ثم تلا : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾ الآية . أو إن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه السلام ، وأولها : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر ﴾.

وقد رتب الله تعالى على الإشراك وترك التوحيد في البداية كون الشخص مخذولاً ، وفي آخر الآيات كونه ملوماً مدحوراً ، فثبت أن أول الأمر يصير مخذولاً ، وآخره أن يصير مدحوراً . والمخذول : ترك إعانته وتفويضه إلى نفسه ، والمدحور : إهانته والاستخفاف به .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الأحكام التالية :

١ ـ تحريم وأد البنات خشية الفقر أو العار أو غير ذلك مطلقاً .

٢ ـ تحريم الاقتراب من الزنى ودواعيه وأسبابه التي تؤدي إليه عادة .

٣ ـ تحريم قتل النفس بغير حق شرعي . وللولي الوارث سلطة استيفاء القصاص من القاتل وحده دون غيره ، بغير تمثيل ولا قتل غير القاتل ، فإنه معان عليه بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى ، وبمجموعها ثالثة ، فأيها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى .

٤ ـ تحريم قربان مال اليتيم إلا بالطريقة الحسنى التي تؤدي إلى الحفاظ عليه وتحقيق مصلحته الظاهرة ، إلى أن يبلغ رشده .

٥ ـ وجوب الوفاء بالعهد فالإنسان مسؤول عنه ، قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد .

٦ ـ إيفاء الكيل وإتمام الوزن بالحق والعدل دون بخس ولا زيادة ولا نقص ، فذلك خير للإنسان عند ربه وأبرك ، وأحسن عاقبة . قال الحسن البصري : ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقدر رجل على حرام ، ثم يَدَعُه ، ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك ».

٧ ـ عدم اتباع مالا يعلم به الإنسان ولا يعنيه ، قال مجاهد : لا تَذُمّ أحداً بما ليس لك به علم . لكن يجوز الحكم بالقيافة ؛ لأن الآية ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم ﴾ دل على جواز مالنا به علم ، فكل ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه ، جاز أن يحكم به .

ويجوز أيضاً إثبات الشيء بالقرعة ، والخَرْص (التقدير والتخمين) لأنه نوع من غلبة الظن ، فالقائف يُلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما ، كما يلحق الفقيه الفرع بالأصل من طريق الشبه . وقد أقر النبي ﷺ العمل بالقيافة في إثبات نسب أسامة وكان أسود ، من زيد بن حارثة وكان أبيض ، ثبت في صحيح مسلم عن عائشة : أن رسول الله ﷺ دخل عليّ مسروراً ، تبرق أسارير وجهه ، فقال : « ألم تَرَيْ أن مُجَزِّزاً ـ وكان قائفاً ـ نظر إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد ، عليهما قطيفة ، قد غطّيا رؤوسهما ، وبدت أقدامهما ، فقال : « إن بعض هذه الأقدام لَمِن بعض » . واستدل جمهور العلماء على القيافة عند التنازع في الولد بسرور النبي ﷺ بقول هذا القائف .

ولم يأخذ الحنفية بالقيافة متمسكين بإلغاء النبي ﷺ الشبه في حديث اللعان .

٨ ـ يسأل كل واحد من السمع والبصر والفؤاد عما اكتسب ، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه الإنسان واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع .

٩ ـ النهي عن الخُيَلاء وتحريمه ، والأمر بالتواضع والحض عليه . وذكر القرطبي أن إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفعاً دون حاجة إليه داخل في هذه الآية ، وفيه تعذيب الحيوان .

١٠ ـ استدل العلماء بهذه الآية : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ على ذم الرقص وتعاطيه ، قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل : قد نص القرآن على النهي عن الرقص ، فقال : ﴿ ولا تمش في الأرض مَرَحاً ﴾ وذمّ المختال . والرقص أشد المرح والبطر . قال القرطبي : أولسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسكر ، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشِّعْر معه على الطُّنبور والمِزْمار والطبل لاجتماعهما[1] .

١١ ـ هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل تقتضيها حكمة الله عز وجل في عباده ، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة .

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٦٣/١٠

تقريع على نسبة الولد والشريك إلى الله تعالى

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

البلاغة :

﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ ؟ الهمزة للإنكار والتوبيخ .

﴿ لو كان معه آلهة كما يقولون ﴾ وارد على سبيل الفرض والاحتمال .

المفردات اللغوية :

﴿ أفأصفاكم ﴾ اختاركم وخصكم يا أهل مكة ، والإصفاء : جعله خالصاً له ﴿ إناثاً ﴾ بنات لنفسه بزعمكم ﴿ لتقولون ﴾ بذلك ﴿ قولاً عظيماً ﴾ عظيم الإنكار ، بإضافة الأولاد إليه ﴿ صرفنا ﴾ بينا ﴿ في هذا القرآن ﴾ من الأمثال والوعد والوعيد ﴿ ليذكّروا ﴾ يتعظوا ويتذكروا ﴿ وما يزيدهم إلا نفوراً ﴾ وما يزيدهم ذلك إلا نفوراً عن الحق وقلة طمأنينة إليه ، والنفور : البعد عن الشيء .

﴿ قل ﴾ لهم أي للمشركين ﴿ لو كان معه ﴾ أي مع الله ﴿ لابتغوا ﴾ طلبوا ﴿ إلى ذي العرش ﴾ أي الله ﴿ سبيلاً ﴾ طريقاً ، وللكلام معنيان : الأول ـ هو أنا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى ، لغلب بعضهم بعضاً ، والثاني ـ لو كانت هذه الأصنام كما تقولون أيها الكفار من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، لطلبت لأنفسها أيضاً قربة إلى الله تعالى ، وسبيلاً إليه ، وأعدت لأنفسها المراتب العالية ، فلما لم تقدر على اتخاذ سبيل لأنفسها إلى الله ، فكيف يعقل أن تقربكم إلى الله ؟!

﴿ سبحانه ﴾ تنزيهاً له ﴿ وتعالى ﴾ تعاظم ﴿ عما يقولون ﴾ من الشركاء . ﴿ علواً كبيراً ﴾ تعالياً متباعداً غاية البعد عما يقولون ، فإنه في أعلى مراتب الوجود ، وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته ، وأما اتخاذ الولد فمن أدنى مراتبه ، فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه .

﴿ تسبح له ﴾ تنزهه ﴿ وإن ﴾ ما ﴿ من شيء ﴾ من المخلوقات ﴿ إلا يسبح بحمده ﴾ إلا ينزهه تنزيهاً مقترناً بحمده ، فيقول : سبحان الله وبحمده ﴿ لا تفقهون ﴾ لا تفهمون ﴿ تسبيحهم ﴾ لأنه ليس بلغتكم ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وشرككم ، غفوراً لمن تاب منكم .

المناسبة :

بعد أن حذر الله تعالى من الشرك ، نبّه إلى جهل من أثبت لله شريكاً ، ونددّ بالمشركين وقرّع الذين أثبتوا لله ولداً ، وجعلوا البنين لأنفسهم ، مع علمهم بعجزهم ونقصهم ، ونسبوا البنات لله ، مع علمهم بأن الله تعالى هو الموصوف بالكمال الذي لا نهاية له ، والجلال الذي لا غاية له ، مما يدل على نهاية جهلهم .

ثم أبان أنه ضرب في القرآن الأمثال للناس ليتدبروا ويتأملوا فيها ، وذكر أنه لو كانت هذه الأصنام تقرب إلى الله زلفى ، لطلبت لنفسها القربة إلى الله ، ولكنها لم تفعل ذلك ، فبان خطؤهم في ادعائهم أن الملائكة بنات الله ، وتبين إبطال تعدد الآلهة ، وإثبات الوحدانية لله ، والتنزيه له ؛ لأن كل ما في الكون تدل أحواله على توحيد الله وتقديسه وعزته ، ولكنكم بسبب الجهل والغفلة لا تدركون دلالة تلك الأدلة .

التفسير والبيان :

بعد أن فند الله تعالى زعم من نسب لله شريكاً ، شنع هنا على من نسب له الولد ، وردّ الله تعالى في هذه الآية على المشركين الذين جعلوا الملائكة إناثاً ، ثم ادعوا أنهن بنات الله ، ثم عبدوهن ، مقرعاً لهم ومنكراً عليهم ، ومبيناً خطأهم العظيم قائلاً : أيكرمكم ربكم فيخصكم بالذكور من الأولاد ، ويختار لنفسه على

زعمكم البنات ، وأنتم تئدوهن ولا ترضونهن لأنفسكم . ثم يشدد الإنكار عليهم قائلاً : إنكم في زعمكم أن لله ولداً ، وهو من الإناث اللاتي تأنفون أن يكن لكم ، لتفترون على الله الكذب ، وتقولون على الله قولاً عظيماً إثمه ، موجباً العذاب عليكم ، منافياً لأبسط مبادئ العقول بنسبة الضعيف للقوي ، والقوي للضعيف . ﴿ تلك إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم ٢٢/٥٣] أي جائرة .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ وقالوا : اتَّخذ الرحمنُ وَلَداً ، لقد جِئْتُمْ شَيْئاً إدّاً ، تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منه ، وتنشقُّ الأرضُ ، وتَخِرُّ الجبالُ هدّاً ، أن دَعَوْا للرحمنِ وَلَداً ، وما يَنْبَغي للرحمنِ أن يتَّخِذَ وَلَداً ، إنْ كلُّ من في السمواتِ والأرضِ إلا أتي الرحمنِ عَبْداً ، لقد أَحْصَاهم وعَدَّهم عَدّاً ، وكلُّهم آتيه يومَ القيامةِ فَرْداً ﴾ [مريم ٨٨/١٩ـ٩٥] .

ثم نبّه الله تعالى إلى كون هذه المناقشة وذلك الكلام غاية في الوضوح بقوله : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكّروا .. ﴾ أي ولقد بينا في هذا القرآن الحجج والبينات والمواعظ ، وأوضحنا الأمثال لهم ، وحذرنا وأنذرنا ليتعظوا وينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ، وهم مع ذلك ما يزيدهم التذكير إلا نفوراً عن الحق وبعداً عنه .

ثم رد الله تعالى على المشركين الذين يتخذون شريكاً لله ، فقال :

﴿ قل : لو كان معه آلهة .. ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يزعمون أن لله شريكاً من خلقه ، ويتخذون مع الله إلهاً آخر : لو كان الأمر كما تقولون ، وأن الله معه آلهة تُعْبَد لتقرب إليه وتشفع لديه ، لكان أولئك المعبودون المتخذون آلهة يعبدونه ، ويتقربون إليه ، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة بعبادتهم ، فاعبدوه أنتم وحده ، كما يعبده من تدعونه من دونه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، فإنه تعالى لا يحب ذلك ولا يرضاه ، بل يكرهه ويأباه ، وقد نهى عن ذلك على ألسنة أنبيائه ورسله ، ثم نزه نفسه الكريمة عن ذلك فقال :

﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾ أي تنزه الله تعالى عما لا يليق به ، وتعالى ، أي ارتفع وعلا عما يقول هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ، تعالياً كبيراً ، بل هو الله الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وفي وصف العلو بالكبر إشارة إلى وجود التغاير المطلق بين ذاته وصفاته تعالى ، وبين نسبة الصاحبة والولد والشركاء والأضداد والأنداد إليه ، لوجود المنافاة بين القديم والمحْدَث ، وبين الغني والمحتاج ، منافاة لا يتصور الزيادة عليها ، كما قال تعالى : ﴿ تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منه وتنشقُّ الأرضُ ، وتخرُّ الجبالُ هَدّاً ، أن دَعَوْ للرحمنِ وَلَداً ﴾ [مريم ١٩/٩٠-٩١] .

ثم أبان الله تعالى مبلغ عظمته فقال : ﴿ تسبّح له السموات السبع .. ﴾ أي تقدسه وتنزهه السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وألوهيته ، وما من شيء من المخلوقات (الحيوانات والجمادات والنباتات) إلا يسبح بحمد الله تعالى ، أي يشهد ويدل بخلقه من غيره على وجوب وجود الله تعالى الخالق لكل الأكوان ، فالتسبيح من الناس هو قولهم : سبحان الله ، وهذا حقيقة ، ومن الجمادات وغيرها : معناه الدلالة على تنزيه الله تعالى ، وهذا مجاز. وقال بعضهم : إنه حقيقة أيضاً .

﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أي ولكن لا تفهمون أيها البشر تسبيحهم ؛ لأنه بخلاف لغاتكم ، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وقال قتادة : كل شيء فيه روح يسبح ، من شجر أو غيره .

﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ إنه تعالى كان وما يزال حليماً لا يعاجل بالعقوبة من عصاه ، وإنما يمهل ويؤجل ، ويغفر لمن تاب منكم .

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن نسبة الملائكة بجعلها بنات الله افتراء كبير وقول عظيم الإثم عند الله عز وجل . وهذا تنديد بقول بعض العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله .

٢ ـ بالرغم من بيان القرآن الشافي للحجج والبينات الدالة على توحيد الله ووحدانيته المطلقة ، والاتعاظ بما فيها ، فإن المشركين المعاندين الظالمين لا يزدادون بعد هذا البيان إلا التباعد عن الحق ، والغفلة عن النظر والاعتبار ، لسوء نظرهم وخلل تفكيرهم ، واعتقادهم في القرآن أنه حيلة وسحر ، وكهانة وشعر .

٣ ـ لو كان هناك آلهة شفعاء مع الله كما يزعم المشركون ، لكانت هذه الآلهة بحاجة إلى التقرب إلى الله ، بالعبادة والتعظيم ، لتجعل لنفسها مكانة عند الله ، وتلتمس الزُّلْفة عنده ؛ لأنهم دونه ، والمشركون اعتقدوا أن الأصنام تقرّبهم إلى الله زلفى ، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى ، فقد بطل أنها آلهة ، وكان الأحرى بعبدتها أن يعبدوا الإله الحقيقي وهو الله جل جلاله .

وهذا ردّ على عباد الأصنام ، كما أن الآية الأولى ردّ على الذين يجعلون الملائكة بنات الله .

٤ ـ ما من مخلوق في السموات والأرض إلا يسبح بحمد الله تعالى ، وتسبيح البشر العقلاء هو حقيقة بأن يقولوا : سبحان الله أي تنزيهاً لله تعالى وتمجيداً وتقديساً ، وتسبيح غير البشر مجاز ، والمراد به تسبيح الدلالة أي دلالة هذه المخلوقات بذاتها على وجود الإله الخالق ، فكل مُحْدَث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر . وقالت طائفة : هذا التسبيح أيضاً حقيقة ، وكل شيء بصفة

عامة يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه ؛ لأن الآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه . وثبت في السنة أنه يخفف على الأموات بالأشجار في حديث الصحيحين عن ابن عباس مرفوعاً المتضمن تعذيب صاحبي القبرين بسبب عدم الاستنزاه من البول والنميمة . قال القرطبي : وإذا خُفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن ؟! فالثابت أنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهدى إليه . وهو رأي المذاهب الأربعة .

أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمر : أن النبي ﷺ قال : « إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنيه : آمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء ، وبها يُرْزَق كل شيء » .

والخلاصة :

إن الرازي وجماعة يرون أن تسبيح الجمادات مجاز وهو تسبيح الدلالة ، وأن القرطبي وآخرين يرون أن كل شيء من الموجودات على الصحيح يسبح ؛ للأخبار الدالة عليه ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأي تخصيص لداود ؟ كما حكى القرآن : ﴿ واذكرْ عبدَنا داودَ ذا الأيدِ إنّه أوّابٌ ، إنا سخّرنا الجبالَ معه يُسبّحن بالعَشِيّ والإشراقِ ﴾ [ص ٣٨/١٧ـ١٨] وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح ، وقد نصت السنة على مادلّ عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء ، فالقول به أولى . قال رسول الله ﷺ ـ فيما رواه ابن ماجه ومالك عن أبي سعيد الخدري ـ : « لا يسمع صوت المؤذن جنٌّ ولا إنس ولا شجر ولا حَجَر ولا مَدَر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » .

٥ ـ من صفات الله السامية أنه حليم عن ذنوب عباده في الدنيا ، غفور للمؤمنين في الآخرة إذا تابوا وأنابوا إليه ، وحلمه أنه لا يعاجل المشركين بالعقوبة على غفلتهم وسوء نظرهم وجهلهم بالتسبيح والشرك .

حماية النبي ﷺ من أذى المشركين إذا قرأ القرآن

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

الإعراب :

﴿ حجاباً مستوراً ﴾ أي ذا سِتْر ، على النَّسَب ، مثل : امرأة حائض وطالق وطامث أي ذات حيض وطَمْث وطلاق ، أو بمعنى ساتر ، فيجيء مفعول بمعنى فاعل ، كما يجيء فاعل بمعنى مفعول ، مثل : سرّ كاتم ، وماء دافق ، أي سر مكتوم ، وماء مدفوق . ﴿ وحده ﴾ مصدر وقع موقع الحال ، أي واحداً .

﴿ وإذ هم نجوى ﴾ إما جمع نَجِيّ ، كجريح وجرحى ، وقتيل وقتلى ، وإما مصدر ، مثل قوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ [المجادلة ٧/٥٨] .

﴿ إذ يقول الظالمون ﴾ ﴿ إذ ﴾ بدل من ﴿ إذ ﴾ قبله .

المفردات اللغوية :

﴿ حجاباً ﴾ وحجباً : أي منعاً من الوصول إلى الشيء ، والمراد : حاجباً . ﴿ مستوراً ﴾ أي ساتراً لك عنهم ، فلا يرونك . ﴿ أكنّة ﴾ أغطية ، جمع كنان . ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي منعناهم أن يفهموه ، أو كراهة أن يفهموه . ﴿ وقراً ﴾ ثقلاً وصمماً يمنعهم عن استماعه استماع تأمل في لفظه ، وتدبر في معناه . ﴿ وحده ﴾ واحداً غير مشفوع به آلهتهم ، قال الزمخشري : وحد يحد وحداً وحدة نحو وعد يعد وعداً وعدة ، ووحده هنا : مصدر سادّ مسدّ الحال ، أصله : يحد وحده بمعنى واحداً وحده .

﴿ بما يستمعون به ﴾ بسببه من الهزء . ﴿ إذ يستمعون إليك ﴾ إلى قراءتك . ﴿ نجوى ﴾ يتناجون بينهم ، أي يتحدثون . ﴿ إذ يقول الظالمون ﴾ في تناجيهم . ﴿ إن ﴾ ماتتبعون . ﴿ مسحوراً ﴾ مخبول العقل ، كقولهم : ﴿ إن هو إلا رجل به جِنَّة ﴾ [المؤمنون ٢٣/٢٥] . ﴿ كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ بالمسحور والكاهن والشاعر . ﴿ فضلوا ﴾ جاروا عن طريق الهدى . ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ طريقاً إليه .

سبب النزول :

نزول الآية (٤٥) :

﴿ وإذا قرأت القرآن ﴾ الآية : أخرج ابن المنذر عن ابن شهاب الزهري قال : كان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن على مشركي قريش ، ودعاهم إلى الكتاب قالوا يهزؤون به : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت ٤١/٥] ، فأنزل الله في ذلك من قولهم : ﴿ وإذا قرأت القرآن ﴾ الآيات .

وروى ابن عباس : أن أبا سفيان ، والنضر بن الحارث ، وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي ﷺ ، ويستمعون إلى حديثه ، فقال النضر يوماً : ماأدري ما يقول محمد ، غير أني أرى شفتيه تتحرك بشيء ، وقال أبو سفيان : إني لأرى بعض ما يقوله حقاً ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب : هو كاهن ، وقال حويطب بن عبد العُزّى : هو شاعر ، فنزلت هذه الآية .

وكان رسول الله ﷺ إذا أراد تلاوة القرآن ، قرأ قبلها ثلاث آيات ، وهي قوله في سورة الكهف : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقراً ﴾ [٥٧] وفي النحل : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ [١٠٨] وفي حم الجاثية : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ [٢٣] إلى آخر الآية ، فكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين[1] .

---

(١) تفسير الرازي : ٢٢١/٢٠

فهذه الآية نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على الناس . روي أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن ، قام عن يمينه رجلان ، وعن يساره آخران من ولد قصي يصفّقون ويصْفِرون ، ويُخَلِّطون عليه بالأشعار .

نزول الآية (٤٦) :

﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ﴾ : قيل : دخل ملأ قريش على أبي طالب يزورونه ، فدخل رسول الله ﷺ ، فقرأ ، ومرّ بالتوحيد ، ثم قال : يا معشر قريش ، قولوا : لا إله إلا الله ، تملكون بها العرب ، وتدين لكم العجم ، فولّوا ، فنزلت هذه الآية .

قال أبو حيان : والظاهر أن الآية في حال الفارّين عند وقت قراءته القرآن ، ومروره بتوحيد الله تعالى ، والمعنى : إذا جاءت مواضع التوحيد ، فرَّ الكفار إنكاراً له ، واستبشاعاً لرفض آلهتهم ، واطراحها[1] .

المناسبة :

بعد أن تكلّم الله تعالى في المسائل الإلهية ، وجادل المشركين بضرب الأمثال لهم ، تكلّم في هذه الآية فيما يتعلّق بتقرير النّبوة ، والنّعي عليهم بعدم فهمهم للقرآن ونفورهم منه وهزئهم به ، وإيذائهم النّبي ﷺ ، واتّهامهم له بأنه كاهن أو ساحر أو مجنون أو شاعر .

التفسير والبيان :

وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث ولا بالثواب والعقاب ، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً ، أي حائلاً مانعاً يمنع

(١) البحر المحيط : ٤٢/٦

قلوبهم عن فهم معاني القرآن وتدبُّر آياته ، وجعلنا على قلوبهم أغطية بحيث لا يتسرّب إليها فهم مدارك القرآن ومعرفة أحكامه وأسراره وغاياته ، وفي آذانهم ما يمنع من سماع صوته . فمعنى قوله تعالى : ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي لئلا يفهموا القرآن ، والوقر : هو الثقل الذي يمنع من سماع القرآن سماع انتفاع واهتداء به .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ وقالوا : قلوبُنا في أكنّةٍ مما تَدْعُونا إليه ، وفي آذانِنا وَقْرٌ ، ومن بيننا وبينك حجابٌ ﴾ [فصلت ٥/٤١] .

والحجاب المستور أي الساتر ، فهو يستر البصائر عن أن تبصر حقائق الأشياء ، ومعنى جعل الأكنة على القلوب : أي جعل القلوب في الأكنّة ، والأكنّة جمع كنان : الذي يغشى القلب ، فصار التغليف والحيلولة دون الفهم من الظاهر والباطن والأعلى والأسفل ، وأوصد الله الآذان وصمّها عن السّماع سماع وعي وفهم وتدبُّر ، فهم كانوا عقلاء سامعين فاهمين ، والمراد بالآية منعهم عن الإيمان ، ومنعهم عن سماع القرآن بحيث لا يقفون على أسراره ، ولا يفهمون دقائقه وحقائقه ، وذلك لتأصُّل الشرك في نفوسهم ، وعدم إعمال أفكارهم في حقائق الدّين .

وقد تقدّم ما روي أنه ﷺ كان إذا قرأ القرآن ، قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قُصَيّ يصفّقون ، ويصْفِرون ، ويخلّطون عليه بالأشعار .

﴿ وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده .. ﴾ أي وإذا وحّدت الله في تلاوتك وقلت : لا إله إلا الله ، ولم تقل : واللات والعُزّى ، ولّوا أي أدبروا راجعين على أدبارهم نافرين نفوراً ، تكبُّراً من ذكر الله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشمأزّتْ قلوبُ الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ ﴾ [الزمر ٤٥/٣٩] وذلك لأنهم مشركون ، فإذا سمعوا بالتّوحيد نفروا .

﴿ نحن أعلم بما يستمعون به .. ﴾ نحن يا محمد أعلم بالنّحو الذي يستمعون به

حين يستمعون إليك هزءاً وسخريةً وتكذيباً ، وأعرف بما يتناجى به رؤساء كفار قريش ، ويتسارّون ، حين جاؤوا يستمعون قراءتك سرّاً قائلين : إنك رجل مسحور ، أو مجنون ، أو كاهن ، لذا قال تعالى :

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال .. ﴾ أي تأمل يا محمد كيف مثّلوا لك الأمثال ، وأعطوك الأشباه ، فقالوا : هو مسحور ، وهو شاعر مجنون ، فحادوا عن سواء السّبيل ، ولم يهتدوا إلى الحقّ لضلالهم ، ولم يجدوا إليه مخلصاً يتخلّصون من متاهة ماهم فيه من الضّياع . وهذا وعيد لهم وإيناس لرسول الله ﷺ .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الثّابت الذي دلّ عليه القرآن والسّيرة أن الله تعالى حجب رسوله ﷺ عن أبصار كفار قريش عند قراءة القرآن ، فكانوا يمرّون به ولا يرونه .

٢ ـ حجب الله القرآن عن أبصار المشركين وعقولهم وأفهامهم ، وجعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوه أو كراهية أن يفقهوه ، أي أن يفهموا مافيه من الأوامر والنّواهي ، والحِكَم والمعاني ، وجعل أيضاً في آذانهم وَقْراً أي صمماً وثقلاً أن يسمعوه ، وإذا ذكر النّبي ﷺ ربه عند تلاوة القرآن فقال : لاإله إلا الله وحده ، ولّى المشركون نافرين نفوراً من سماع كلمة الحقّ والتّوحيد .

٣ ـ الله تعالى أعلم بالنّحو الذي يستمع فيه المشركون إلى القرآن حين يقول الظالمون منهم كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما للناس لتنفيرهم عن النّبي : ماتتبعون إلا رجلاً مسحوراً ، قد خَبَله السّحر ، فاختلط عليه أمره ، يقولون بينهم متناجين : هو ساحر وهو مسحور ، بعد أن قرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التّوحيد ، وقال : « قولوا : لاإله إلا الله لتطيعكم العرب ، وتدين لكم العجم » فأبوا .

٧ ـ تعجيب من الله لرسوله من صنع المشركين كيف يقولون تارة : ساحر ، وتارة مجنون ، وتارة شاعر ، فضلوا الطريق ، فأصبحوا لا يستطيعون حيلة في صدّ النّاس عن النّبي ﷺ ، وضلّوا عن الحقّ ، فلا يجدون سبيلاً إلى الهدى .

إنكار المشركين البعث والرّد عليهم

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ أئذا كنّا عظاماً ﴾ عامل ﴿ إذا ﴾ مقدّر ، أي أئذا كنّا عظاماً ورُفاتاً نُبعثنا ؟ ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿ لمبعوثون ﴾ لأن مابعد ﴿ إن ﴾ لا يعمل فيما قبلها . ﴿ أو خلقاً ﴾ مصدر أو حال أي بعثاً جديداً .

﴿ يوم يدعوكم ﴾ : ﴿ يوم ﴾ منصوب بفعل مقدر ، تقديره : اذكروا يوم يدعوكم ، أو نعيدكم يوم يدعوكم ، دل عليه قوله تعالى : ﴿ من يعيدنا ﴾ [الإسراء ٥١/١٧] فعلى التقدير الأول يكون مفعولاً ، وعلى التقدير الثاني يكون ظرفاً ، وهو أوجه الوجهين .

والباء في ﴿ بحمده ﴾ للحال أي تستجيبون حامدين له .

البلاغة :

﴿ أئذا كنّا عظاماً ﴾ استفهام إنكاري . ﴿ أئنا لمبعوثون ﴾ كرر الهمزة لتأكيد الإنكار ، ثم أكّده بإنّ واللام ، لإفادة قوة الإنكار .

﴿ قل : كونوا حجارةً أو حديداً ﴾ تعجيز وإهانة .

المفردات اللغوية :

﴿ وقالوا ﴾ أي قال المشركون منكرين للبعث . ﴿ ورفاتاً ﴾ بقايا ماتكسّر وبلي من كلّ شيء . ﴿ قل : كونوا حجارةً أو حديداً ﴾ أي قل لهم يامحمد : كونوا أي شيء ، حجارةً أو حديداً ، ولاتكونوا عظاماً ، فإنه يقدر على إحيائكم ، والمعنى : أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ، ويردّه إلى حال الحياة ، وإلى رطوبة الحيّ وغضاضته ، بعدما كنتم عظاماً يابسة ، مع أن العظام بعض أجزاء الحيّ ، بل هي عمود خلْقه الذي يبنى عليه سائره ، فالله قادر على أن يردّها إلى حالتها الأولى . ولوكنتم أبعد شيء عن الحياة ورطوبة الحي ، بأن تكونوا حجارة يابسة ، او حديداً ، مع أنها تتصف بالصّلابة ، لكان الله قادراً على أن يردّكم إلى حال الحياة .

﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ يعني : أو خلقاً مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ، ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه ، فإنه يحييه ، وينفخ فيه الرّوح . ﴿ من يعيدنا ﴾ إلى الحياة ؟ ﴿ فطركم ﴾ خلقكم . ﴿ أول مرة ﴾ ولم تكونوا شيئاً ؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة ، بل هي أهون . ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ سيحرّكون رؤوسهم تعجُّباً واستهزاء . ﴿ ويقولون ﴾ استهزاء . ﴿ متى هو ﴾ أي البعث . ﴿ أن يكون قريباً ﴾ خبر أو ظرف أي في زمان قريب . ﴿ يوم يدعوكم ﴾ يناديكم من القبور على لسان إسرافيل . ﴿ فتستجيبون ﴾ أي تجيبون الداعي . ﴿ بحمده ﴾ حال منهم ، أي حامدين الله تعالى على كمال قدرته ، أو منقادين لبعثه انقياد الحامدين عليه . ﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ وتستقصرون مدة لبثكم في القبور كالذي مرّ على قرية ، أو مدّة حياتكم ، لما ترون من الهول .

المناسبة :

بعد أن تكلّم الله تعالى في الإلهيّات ، ثم أتبعه بذكر شبهات المشركين في النبوّات ، ذكر في هذه الآية شبهاتهم في إنكار البعث والمعاد والقيامة ، وردّ عليها بما ينقضها .

ومن المعلوم أن مدار القرآن على المسائل الأربعة ، وهي : الإلهيّات ، والنّبوّات ، والمعاد ، والقضاء والقدر .

التفسير والبيان :

وقال المشركون منكرو البعث والمعاد استفهام إنكار لذلك حين سماع القرآن وسماع أمر البعث : أئذا كنّا عظاماً بالية في قبورنا ، ورفاتاً أي تراباً بسبب تكسر العظام وصيرورتها كالتّراب ، أئنا لمبعوثون عائدون يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدماً لاذكر خلقاً صحيحاً جديداً كما كنّا قبل الممات ، كما أخبر عنهم القرآن في موضع آخر : ﴿ يقولون : أئنا لمردودون في الحافرة ؟ أئذا كُنّا عِظاماً نَخِرة ، قالوا : تلكَ إذاً كَرّةٌ خاسرةٌ ﴾ [النازعات ٧٩/١٠ ـ ١٢] . وقوله تعالى : ﴿ وضَرَبَ لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ : مَنْ يُحْيِي العظامَ ، وهي رميمٌ ، قل : يُحْييها الذي أنْشأها أوّلَ مَرّةٍ ، وهو بكلّ خَلْقٍ عليمٌ ﴾ [يس ٣٦/٧٨ ـ ٧٩] .

فأمر الله تعالى نبيّه أن يجيبهم بقوله :

﴿ قل : كونوا حجارةً أو حديداً .. ﴾ أي قل يا محمد لهم : إن إعادة الميت إلى الحياة أمر يسير سهل ، وهو أهون على الله من الخلق أول مرة ، أي أهون في تصورنا وحكمنا على الأشياء وإلا فالخلق لأي شيء على الله يسير في أي حال ؛ لأن المادة المركبة إذا وجدت عناصرها وعرفت خواصها يسهل إحداث أشياء مماثلة لها ، ولوفرض أنكم أيها المشركون كنتم أبعد شيء من الحياة ، وأشدّ الأشياء صلابة من حجارة أو حديد ؛ إذ هما أشدّ امتناعاً من العظام والرّفات عن قبول الحياة ، أو أي خلق يعظم في تصوّركم وعقولكم كالسّماء والأرض والجبال عن قبول الحياة ، فإن الله قادر على إحيائه وبعثه من جديد ؛ لأن المواد الجامدة متساوية في قبولها ما يطرأ عليها من حياة أو عقل ؛ إذ لو لم يكن هذا القبول والاحتمال قائماً حاصلاً ، لما حصل العقل والحياة لها في أول الأمر ، والله قادر على كل الممكنات ، وعالم بجميع الجزئيات ، فإعادة الحياة إلى تلك الأجزاء المادية ممكن قطعاً ، سواء صارت عظاماً ورفاتاً ، أو صارت شيئاً أبعد في تصور الحياة وقبولها ، وهي أن تصير حجارةً أو حديداً .

وهذا من قبيل المبالغة وربط الأشياء بأقصى ما يمكن تصوره في الدلالة على قدرة الله تعالى على الإحياء والإعادة .

وبعد استبعاد الإعادة استبعدوا حدوثها كما قال تعالى :

﴿ فسيقولون : من يعيدنا ؟ .. ﴾ أي فسيقولون لك يا محمد : من يعيدنا إلى الحياة إذا كنّا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ، فقل لهم : المعيد هو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم صرتم بشراً عديدين منتشرين في الدُّنيا ، فإنه سبحانه وتعالى قادر على إعادتكم ، ولو صرتم إلى أي حال : ﴿ وهو الذي يبدأُ الْخَلْقَ ، ثم يُعيدُه ، وهو أهونُ عليه ﴾ [الرّوم ٢٧/٣٠] .

والمتوقع حين سماع ذلك هو كما قال تعالى : ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ أي لتأصل إنكار البعث في نفوسهم سيحركون رؤوسهم استهزاءً وتكذيباً .

﴿ ويقولون : متى هو ؟ ﴾ أي يقولون : متى هذا البعث والإعادة ؟ ﴿ عنّا الْحَزَن ﴾ [فاطر ٣٤/٣٥] وهي رواية ضعيفة ، والمراد من الحمد في الأصح كما نحا الطبري : هو حمد الله من النبي على صدق خبره بحدوث القيامة .

﴿ قل : عسى أن يكون قريباً ﴾ أي إن ذلك قريب منكم سيأتيكم لا محالة ، فكلّ ما هو آتٍ قريب ، كما قال سبحانه : ﴿ إنهم يَرَوْنَه بعيداً ونَراهُ قريباً ﴾ [المعارج ٦/٧٠ ـ ٧] . وقال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى . فقوله تعالى : ﴿ عسى أن يكون قريباً ﴾ معناه أنه هو قريب ؛ لأن ﴿ عسى ﴾ واجب ، نظيره : ﴿ لعلَّ الساعةَ قريبٌ ﴾ [الشورى ١٧/٤٢] .

﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾ أي يكون ذلك البعث يوم يدعوكم الرّب تبارك وتعالى ، فتستجيبون له من قبوركم حامدين طائعين منقادين ، وتقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته ، وهذا مبالغة في انقيادهم للبعث فقوله تعالى :

﴿ بحمده ﴾ أي بأمره ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إذا دَعَاكم دَعْوةً من الأرضِ إذا أنْتُم تَخْرجُونَ ﴾ [الروم ٢٥/٣٠] ، أي إذا أمركم بالخروج من الأرض فأمره لا يخالف .

روى أنس مرفوعاً : « ليس على أهل : لاإله إلا الله وحشة في قبورهم ، كأني بأهل لاإله إلا الله يقومون من قبورهم ، ينفضون التراب عن رؤوسهم ، يقولون : لاإله إلا الله » وفي رواية الطبراني عن ابن عمر : يقولون : ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنّا الْحَزَن ﴾ [فاطر ٣٤/٣٥] وهي رواية ضعيفة ، والمراد من الحمد في الأصح كما نحا الطبري : هو حمد الله من النبي على صدق خبره بحدوث القيامة .

﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ أي وتحسبون عند البعث يوم تقومون من قبوركم أنكم مالبثتم في الدار الدنيا إلا زمناً قليلاً ، كقوله تعالى : ﴿ كأنّهم يومَ يَرَوْنَها لم يَلْبَثُوا إلا عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا ﴾ [النازعات ٤٦/٧٩] ، وقوله تعالى : ﴿ نحنُ أعلمُ بما يَقُولونَ ، إذ يقولُ أمثلُهم طريقةً : إنْ لَبِثْتُم إلا يوماً ﴾ [طه ١٠٤/٢٠] ، وقوله تعالى : ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ يُقْسِمُ المجرمونَ مالَبِثُوا غيرَ ساعةٍ ﴾ [الروم ٥٥/٣٠] .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يلي :

١ ـ لم يقتصر فساد عقيدة المشركين على الشرك واتخاذ آلهة أخرى مع الله تعالى ، وإنما أنكروا وقوع البعث والمعاد ، وكانت هذه الآية مبيّنة غاية الإنكار منهم .

٢ ـ لا داعي للعجب من قدرة الله تعالى ، فإن البشر إذا عجبوا من إعادة الحياة للعظام البالية والرّفات الفانية ، فلقصور إدراكهم ، وضعف قدراتهم ، ونقص قواهم ، وأما الله تعالى فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، حتى لوفرض أنهم حجارة أو حديد في غاية الشدة والقوة ، لأعادهم كما بدأهم ، بل

لو كانوا ماشاؤوا فسيعادون إلى الحياة مرة أخرى ؛ لأن القدرة التي أنشأهم بها يعيدهم بها .

٣ ـ لا يسع البشر حين دعوتهم بالخروج من قبورهم إلا الامتثال والطاعة والانقياد ، وذلك يحصل بلحظة سريعة جداً ، كما قال تعالى : ﴿ وما أَمْرُ الساعةِ إلا كلَمْحِ البَصَرِ أو هو أقربُ ﴾ [النحل ٧٧/١٦] .

ويستجيب الناس بأمر الله وقدرته ودعائه إياهم ، وبحمده ، أي باستحقاقه الحمد على الإحياء . ورجح المالكية أن المراد بقوله تعالى : ﴿ بحمده ﴾ : بدعائه إياهم .

٤ ـ يقدّر الناس بعد البعث أنهم مالبثوا في الدنيا إلا زمناً قليلاً لطول لبثهم في الآخرة .

مجادلة المخالفين باللين وبالتي هي أحسن

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا
مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾
وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

الإعراب :

﴿ يقولوا : التي هي أحسن ﴾ ﴿ يقولوا ﴾ : جواب « قولوا » المقدرة ، أي قل لعبادي : قولوا التي هي أحسن ، يقولوها .

البلاغة :

﴿ يرحمكم ﴾ و ﴿ يعذبكم ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ وقل : لعبادي ﴾ المؤمنين . ﴿ يقولوا ﴾ للكفار الكلمة الحسنى وباللين ، ولا يخاشنوا المشركين . ﴿ ينزغ ﴾ يفسد بينهم بالوسوسة ، ويَهيجُ الشّر . ﴿ عدوّاً مبيناً ﴾ بيّن العداوة .

﴿ ربّكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم ﴾ بالتوبة والإيمان . ﴿ أو إن يشأ يعذّبكم ﴾ أي وإن يشأ يعذّبكم تعذيباً بالموت على الكفر ، وهذه الآية : تفسير للتي هي أحسن ، وما بينهما اعتراض ، أي قولوا لهم هذه الكلمة ، ولا يصرحوا بأنهم من أهل النار ، فإنه يهيجهم على الشّر ، مع أن ختام أمرهم غيب لا يعلمه إلا الله . ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ موكولاً أو مفوضاً إليك أمرهم ، تقسرهم على الإيمان ، وإنما أرسلناك مبشّراً ونذيراً ، فدارهم ، وأمر أصحابك بالاحتمال منهم .

﴿ وربّك أعلم بمن في السّموات والأرض ﴾ فيخصّهم بما شاء على قدر أحوالهم ، ويختار منهم لنبوّته وولايته من يشاء . وهو ردّ لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبيّاً ، وأن يكون العراة الجياع أصحابه .

﴿ ولقد فضّلنا بعض النّبيين على بعض ﴾ بتخصيص كلّ منهم بفضيلة ، كموسى بالكلام ، وإبراهيم بالخُلّة ، ومحمد بالإسراء ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ الزّبور : الكتاب الذي أُنزل على داود عليه السّلام .

سبب النزول :

نزول الآية (٥٣) :

﴿ وقل لعبادي .. ﴾ : روي أن المشركين أفرطوا في إيذائهم رسول الله ﷺ ، فنزلت . وقيل : شتم عمرَ رجل منهم ، فهمَّ به ، فأمره الله بالعفو .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى الحجة اليقينية في إبطال الشرك وهو قوله تعالى : ﴿ لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ [٤٢] ، وذكر

الحجة اليقينية في صحة البعث والمعاد بقوله تعالى : ﴿ قل : الذي فطركم أول مرة ﴾ أمر تعالى بمجادلة المخالفين باللين وبالطريق الأحسن وألا يخاشن المشركون ، وألا يكون ذكر الحجة مخلوطاً بالشّتم والسّب حتى لا يقابلوكم بمثله ، وتحدث النّفرة ، فيقال لهم : ربّكم العليم بكم ، إن شاء عذّبكم ، وإن شاء رحمكم ، ولا يصرّح لهم بأنهم من أهل النّار ، فلا يحاولون الإيمان أو الإسلام .

ثم بيّن تعالى مهمة رسوله وهي التّبشير والإنذار ، وأنه ليس مفوضاً في حمل الناس على الإسلام أو إجبارهم عليه ، وأنه تعالى العليم بكلّ شيء وبمن في السّموات والأرض ، فيختار للنّبوة من يراه أهلاً لها .

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى رسوله بأن يبلّغ عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبات الناس من المشركين وغيرهم ومحاوراتهم معهم الكلام الأحسن للإقناع ، والكلمة الطّيبة ، وهو ألا يكون بيان الحجة مخلوطاً بالشّتم والسّب والأذى ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ ادْعُ إلى سبيلِ ربّك بالْحِكْمَةِ والموعظةِ الْحَسَنةِ ، وجَادِلْهُم بالتي هي أحسنُ ﴾ [النحل ١٢٥/١٦] ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تجادِلُوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هي أحسنُ ﴾ [العنكبوت ٤٦/٢٩] .

وعلّة ذلك كما قال تعالى : ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ أي إن لم يقولوا الكلام الأحسن والكلمة الطيبة ، فإن الشيطان يفسد الأمور بين المؤمنين والمشركين ، ويثير الفتنة والشّر ، ويوقع المخاصمة والمقاتلة ويغري بعضهم ؛ لأنه عدو لآدم وذريّته عداوة ظاهرة بيّنة ، ولهذا نهى الشرع أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ في يده ، فربّما أصابه بها ، روى أحمد والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يشيرنّ

أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده ، فيقع في حفرة من النار » .

وسبب نزغ الشيطان للإنسان ماقاله تعالى : ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدوّاً مبيناً ﴾ أي إن الشيطان عدوّ ظاهر العداوة للإنسان ، وقد أعلن عداوته منذ القدم كما حكى القرآن : ﴿ ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خَلْفهم وعن أيمانِهم وعن شَمائِلِهم ﴾ [الأعراف ١٧/٧] .

ثم فسّر الله تعالى الطريق الأحسن الألين الذي لامخاشنة فيه بقوله : ﴿ ربّكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم .. ﴾ أي ربّكم أيها الناس أعلم بمن يستحق منكم الهداية والتوفيق للإيمان ومن لا يستحق ، فإن شاء رحمكم فأنقذكم من الضلالة ووفقكم للطاعة والإنابة إليه ، وإن شاء عذّبكم فلا يهديكم للإيمان ، فتموتوا على شرككم ، فهذه هي الكلمة ونحوها التي تقال لهم ، ولا يقال لهم : إنكم من أهل النار ، وإنكم معذبون ، وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشّر . وقوله تعالى : ﴿ أعلم ﴾ بمعنى عليم ، نحو قولهم : « الله أكبر » بمعنى كبير ، فلا مجال للمقارنة أو الموازنة بينه وبين غيره .

﴿ وماأرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ أي وماأرسلناك يامحمد عليهم حفيظاً ورقيباً ووكيلاً موكولاً إليك أمرهم ، تحاسبهم على أعمالهم ، وتقرّهم على الإسلام وتجبرهم عليه ، إنما أرسلناك نذيراً وبشيراً فقط ، فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار ، فتلطّف في دعوتهم ولاتغلظ عليهم ، ودارهم ، ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال .

﴿ وربّك أعلم بمن في السّموات والأرض ﴾ أي وربّك أعرف بكل من هو في السموات والأرض ، وأعلم بأحوالهم ومقاديرهم كلّها علم إحاطة وانكشاف : ﴿ ألا

يَعْلَمُ من خَلَقَ ، وهو اللطيفُ الخبيرُ ﴾ [الملك ١٤/٦٧] فهو أدرى وأعرف بما يستأهل كل واحد منهم .

وفي هذا ردّ على المشركين في جعل النّبوة والرّسالة بمن اصطفاهم وتفنيد لقولهم حين قالوا : ﴿ لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رَجُلٍ من القريتينِ عظيمٍ ﴾ [الزّخرف ٣١/٤٣] وحين تضايقوا من تقريب الفقراء كصهيب وبلال وخبّاب وإبعاد السّادة وزعماء قريش .

﴿ ولقد فضّلنا بعض النّبيين على بعض ﴾ أي ولقد فضّلنا بعض الأنبياء والرُّسل على بعض بالمزايا والكتب والخصائص ، كاتّخاذ إبراهيم عليه السّلام خليلاً ، وموسى عليه السّلام كليماً ، ومحمد ﷺ خاتم النّبيين ، ونظير الآية : ﴿ تلك الرُّسلُ فضّلنا بعضَهم على بعضٍ ، منهم من كلّم الله ، ورفعَ بعضَهم درجاتٍ ﴾ [البقرة ٢٥٣/٢] وفي الآية إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين بالقرآن الكريم والإسراء والمعراج ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى عليهم السّلام على المشهور .

ولا خلاف أنّ الرُّسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأنّ أولي العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون في آيتين من القرآن هما : ﴿ وإذ أخَذْنا من النّبيين ميثاقَهم ، ومنك ، ومن نوحٍ وإبراهيمَ ، وموسى ، وعيسى ابنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب ٧/٣٣] . ﴿ شرَعَ لكم من الدّين ما وصّى به نُوحاً ، والذي أوْحَيْنا إليكَ ، وما وصّينَا بهِ إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدّينَ ولا تتفرّقُوا فيهِ ﴾ [الشورى ١٣/٤٢] .

﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ أي فضلناه بإنزال الزّبور عليه ، لا بالملك والسلطان ، ومما ورد في الزّبور أنّ محمداً ﷺ خاتم النّبيين ، وأن أمته خير

الأمم ، قال تعالى : ﴿ ولقد كتَبْنَا في الزَّبورِ منْ بعدِ الذِّكْرِ أنّ الأرضَ يَرِثُها عِبَادِيَ الصَّالحونَ ﴾ [الأنبياء ١٠٥/٢١] وفيه تنبيه على فضله وشرفه .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية :

١ ـ أمر الله تعالى في الآية الأولى جميع المؤمنين فيما بينهم بخاصة بحسن الأدب ، وإلانة القول ، وخفض الجناح ، واطراح نزعات الشيطان ، وفيما بينهم وبين الكفار أثناء المحاورة والنقاش بالكلمة الطيبة ، والكلام الأحسن للإقناع ؛ لأن الشيطان يفسد بين الناس ، ويلقي العداوة والبغضاء بينهم ؛ لأنه شديد العداوة للإنسان .

وتفويتاً للفرصة عليه ، وادّخاراً للجهد في سبيل إبلاغ الدّعوة ، ونشر الإسلام ، وتوصّلاً إلى الغاية المرجوة ، يلزم أن يكون النقاش منطقياً عقلياً هادئاً ، بعيداً عن السَّبّ والشَّتم والأذى

٢ ـ الآية الثانية ﴿ ربّكم أعلم بكم .. ﴾ خطاب للمشركين مضمونه : إن يشأ الله يوفقكم للإسلام فيرحمكم ، أو يميتكم على الشّرك فيعذّبكم . وهذا قول ابن جريج .

وقال الكلبي : الخطاب للمؤمنين مضمونه : إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة ، أو إن يشأ يعذّبكم بتسليطهم عليكم .

٣ ـ ليس أمر المشركين موكولاً إلى النّبي ﷺ لقسرهم على الإسلام وإجبارهم عليه ، ومنعهم من الكفر ، وإنما مهمته محصورة في التبليغ والتّبشير والإنذار ، تبشير من أطاعه بالجنّة ، وإنذار من عصاه بالنّار .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ وربّك أعلم بمن في السّموات والأرض ﴾ بعد قوله :

﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ لبيان أن الله خالقهم ، وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومالهم .

٥ ـ ليس كلّ الأنبياء في درجة واحدة متساوية ، وإنما يوجد تفاضل بينهم ، فقد فضل الله بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم ، كما بيّنا في التّفسير .

٦ ـ أنزل الله تعالى الزّبور على داود عليه السّلام ، والزّبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد ، والقصد من الإشارة إليه في الآية محاجّة اليهود ، وإعلامهم أنه كما آتينا داود الزّبور ، فلا تنكروا أن يؤتى محمد ﷺ القرآن الكريم .

تفنيد آخر لشبهات المشركين

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ
كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا
شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا
ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ
فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

الإعراب :

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون .. ﴾ ﴿ أولئك ﴾ : مبتدأ ، و﴿ الذين ﴾ : صفته ، و﴿ يدعون ﴾ : صلة ﴿ الذين ﴾ ، والعائد محذوف ، أي يدعونهم . و﴿ الذين يدعون ﴾ : صفة المبتدأ . و﴿ يبتغون ﴾ : خبر المبتدأ . و﴿ أيهم أقرب ﴾ : مبتدأ وخبر ، والجملة منصوبة بفعل مقدر ، أي ينتظرون . ويحتمل أن تكون « أي » بمعنى الذي بدل من واو ﴿ يبتغون ﴾ فتكون « أي » مبنية .

﴿ أن نرسل بالآيات إلا أن كذب .. ﴾ : ﴿ أن ﴾ الأولى : منصوبة بتقدير حذف حرف الجر ، أي من أن نرسل ، فلما حُذف حرف الجر انتصب بـ « منع » . و﴿ أن ﴾ الثانية : فاعل منع ، أي ومامنعنا الإرسال بالآيات إلا تكذيب الأولين بمثلها . والمعنى أن تكذيب الأولين كان سبباً لهلاكهم ، فلوأرسلنا بالآيات إلى قريش ، فكذبوها ، لأهلكناهم ، كما أهلكنا من تقدمهم ، وقد سبق في العلم القديم تأخير عقوبتهم إلى يوم القيامة ، فلم نرسل بالآيات لذلك .

﴿ والشجرة .. ﴾ منصوبة بالعطف على ﴿ الرؤيا ﴾ وهي مفعول أول لـ ﴿ جعلنا ﴾ والثاني ﴿ فتنة ﴾ .

﴿ ونخوّفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ فاعل ﴿ يزيدهم ﴾ مقدر ، أي التخويف ، دلّ عليه ﴿ نخوّفهم ﴾ . و﴿ طغياناً ﴾ : مفعول ثانٍ لـ ﴿ يزيدهم ﴾ ؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين .

البلاغة :

﴿ ولاتحويلاً ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي ولاتحويل الضّرّ عنكم ، حُذف لدلالة ماسبق .

﴿ يرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ بينهما طباق .

﴿ ومامنعنا أن نرسل بالآيات ﴾ المنع محال في حق الله تعالى إذ لا يمنعه شيء ، فالمنع مجاز عن الترك ، أي سبب ترك الإرسال هو التكذيب .

﴿ الناقة مبصرة ﴾ مجاز عقلي علاقته السببية ، أي أنه لما كانت الناقة سبباً في إبصار الحقّ والهدى ، نسب إليها الإبصار .

المفردات اللغوية :

﴿ زعمتم ﴾ أنهم آلهة ، أي كذبتم ، والزعم في الأصل : القول المشكوك في صدقه ، وقد يستعمل بمعنى الكذب ، قال ابن عباس : كل موضع في كتاب الله تعالى ورد فيه ﴿ زعم ﴾ فهو كذب[1] .

(١) تفسير الرّازي : ٢٣١/٢٠

﴿ من دونه ﴾ كالملائكة وعيسى وعزير . ﴿ فلا يملكون ﴾ لا يستطيعون . ﴿ كشف الضّرّ ﴾ إزالته . ﴿ ولا تحويلاً ﴾ ولا تحويله عنكم إلى غيركم .

﴿ يدعون ﴾ أي يدعونهم آلهة أو ينادونهم . ﴿ يبتغون ﴾ يطلبون . ﴿ الوسيلة ﴾ القربة بالطاعة والعبادة ، أي هؤلاء الآلهة يبتغون إلى الله تعالى القربة بالطاعة . ﴿ أيهم أقرب ﴾ أي يبتغي القربة أو الوسيلة الذي هو أقرب منهم إلى الله تعالى ، فكيف بغير الأقرب ؟ ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ كسائر العباد ، فكيف تزعمون أنهم آلهة ؟ أو كيف تدعونهم آلهة ؟ ﴿ إن عذاب ربّك كان محذوراً ﴾ مخوّفاً ، حقيقاً بأن يحذره كلّ أحد ، حتى الرُّسل والملائكة .

﴿ وإن من قرية ﴾ مامن قرية ، والمراد أهلها . ﴿ مهلكوها قبل يوم القيامة ﴾ بالموت . ﴿ أو معذّبوها عذاباً شديداً ﴾ بالقتل وغيره . ﴿ في الكتاب ﴾ اللوح المحفوظ . ﴿ مسطوراً ﴾ مكتوباً . ﴿ بالآيات ﴾ التي اقترحها أهل مكة ، فهي ماقترحته قريش ، مثل جعل الصّفا ذهباً . ﴿ إلا أن كذب بها الأولون ﴾ أي لما أرسلنا الآيات وكذبوا بها أهلكناهم ، ولوأرسلناها إلى هؤلاء ، لكذبوا بها ، واستحقوا الإهلاك وعذاب الاستئصال . وقد كنّا حكمنا بإمهالهم ، لإتمام نشر دعوة محمد ﷺ .

﴿ مبصرة ﴾ آية بيّنة واضحة ، أو ذات إبصار لمن يتأملها ويفكر فيها . ﴿ فظلموا بها ﴾ فكفروا بها فأهلكوا ، أو فظلموا أنفسهم بسبب عقرها . ﴿ ومانرسل بالآيات ﴾ المعجزات أو الآيات المقترحة . ﴿ إلا تخويفاً ﴾ للعباد من نزول العذاب المستأصل ، فيؤمنوا .

﴿ وإذ قلنا ﴾ واذكر إذ قلنا . ﴿ أحاط بالناس ﴾ علماً وقدرة ، والمراد أنهم في قبضته وتحت قدرته ، فبلغهم الرسالة ولاتخف أحداً ، فهو يعصمك منهم ، ولا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا . ﴿ الرؤيا التي أريناك ﴾ عياناً ليلة الإسراء ، و﴿ الرؤيا ﴾ : هي ماعاينه النّبي ﷺ ليلة الإسراء من العجائب ، والمراد بها هنا خلافاً للغالب : الرؤية البصرية ، قال ابن عباس : « هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به » ، ولوكانت رؤيا منام ، لما كانت فتنة للناس ، ولما ارتدّ بعضهم عن الإسلام . ﴿ إلا فتنةً للناس ﴾ أهل مكة ، إذ كذّبوا بها ، وارتدّ بعضهم ، لما أخبرهم بها . ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم ، جعلناها فتنة لهم ، إذ قالوا : النار تحرق الشجر ، فكيف تنبته ؟ ﴿ ونخوّفهم ﴾ بها . ﴿ فما يزيدهم ﴾ تخويفنا . ﴿ إلا طغياناً ﴾ الطغيان : تجاوز الحدّ في الفجور والضلال .

سبب النزول :

نزول الآية (٥٦) :

﴿ قل : ادعوا الذين ﴾ : أخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال : كان

ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجنّ ، فأسلم الجنيّون ، واستمسك الآخرون بعبادتهم ، فأنزل الله : ﴿ قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ الآية .

وروي أنه لما أصاب القحط قريشاً ، وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، أنزل الله هذه الآية .

نزول الآية (٥٩) :

﴿ ومامنعنا أن نرسل بالآيات ﴾ : أخرج أحمد والنسائي والحاكم والطّبراني عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النّبي ﷺ أن يجعل لهم الصّفا ذهباً ، وأن يُنحّي عنهم الجبال ، فيزرعوا ، فقيل له : إن شئتَ أن تستأني بهم ، وإن شئتَ نؤتهم الذي سألوا ، فإن كفروا أُهلكوا ، كما أهلكتُ من قبلهم ، قال : « بل أستأني بهم » فأنزل الله تعالى : ﴿ ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نزول الآية (٦٠) :

﴿ وماجعلنا الرؤيا ﴾ : أخرج أبو يعلى عن أم هانئ أنه ﷺ لما أُسري به أصبح يحدّث نفراً من قريش يستهزئون به ، فطلبوا منه آية ، فوصف لهم بيت المقدس ، وذكر لهم قصة العير ، فقال الوليد بن المغيرة : هذا ساحر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن الحسن نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً مهموماً ، فقيل له : مالك يارسول الله ؟ لاتهتم ، فإنها رؤيا تنالهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ .

نزول الآية (٦٠) أيضاً :

﴿ والشجرة الملعونة ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال : لما ذكر الله الزّقوم ، خوّف به هذا الحي من قريش ، قال أبو جهل : هل تدرون ماهذا الزّقوم الذي يخوفكم به محمد ؟ قالوا : لا ، قال : الثّريد بالزّبد ، أما لئن أمكننا منها لنزقمنها زقماً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ، ونخوفهم ، فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ ، وأنزل تعالى : ﴿ إن شجرة الزّقوم طعام الأثيم ﴾ [الدخان ٤٣/٤٤ ـ ٤٤] .

المناسبة :

بعد أن ندّد الله تعالى بإنكار المشركين البعث ، عاد إلى الرّدّ عليهم في عبادتهم الملائكة والجنّ والمسيح وعزيراً ، فهؤلاء يتوسّلون إلى الله بالطاعة والعبادة ، ويخافون عذابه ، فالمستحق للعبادة هو مالك هؤلاء ، والقادر على النفع والضّر دونهم . وليس المراد الأصنام ؛ لأن ابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يليق بالأصنام ألبتة .

ثم ذكر تعالى وعيده لهم وهو أن مصير قرى الكافرين إما الإبادة والاستئصال ، وإما العذاب دون ذلك ، كالقتل والسّبي واغتنام الأموال .

ثم ردّ تعالى على المشركين طالبي آيات حسيّة ومعجزات عظيمة قاهرة ، مثل قولهم : ﴿ لن نؤمنَ لكَ حتى تَفْجُرَ لنا من الأرضِ يَنْبُوعاً ﴾ [الآيات : ٩٠ ـ ٩٣] ، بأن تلبية اقتراحهم يهددهم ، فلوجاء بالآيات ، ثم كذبوا بها ، عذبوا بعذاب الاستئصال ، على وَفْق سنّة الله فيمن قبلهم ، مثل آية ثمود البيّنة الواضحة .

وبالرغم من أن إظهار المعجزات ليس بمصلحة ، فقد تجرأ أولئك الكفار بالطّعن بالنّبي ﷺ قائلين له : لوكنت رسولاً حقّاً من عند الله تعالى ، لأتيت

بهذه المعجزات التي طلبناها منك ، كما أتى بها موسى وغيره من الأنبياء ، فعندئذ أبان الله تعالى أنه ناصره بقوله : ﴿ وإذ.قلنا لك : إن ربّك أحاط بالناس ﴾ .

ثم أردف ذلك بأن ليلة الإسراء كانت فتنة للناس وامتحاناً لإيمانهم ، كما أن شجرة الزّقوم في نار جهنم فتنة وامتحان أيضاً .

التفسير والبيان :

قل أيّها الرّسول لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله : ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله ، وهي الأصنام والأنداد ، هل يجيبونكم ، وارغبوا إليهم حين وقوع الضّرّ بكم من فقر ومرض وقحط وعذاب ونحوها ، وانتظروا هل يستطيعون كشف الضّرّ عنكم أو تحويله أو تبديله من مكان أو من واحد إلى آخر ؟ إنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ، فلا يقدرون على ذلك لغيرهم .

وإنما الذي يقدر عليه هو الله وحده لاشريك له ، الذي له الْخَلْق والأمر . قال ابن عباس : كان أهل الشّرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً ، وهم الذين يَدْعَون ، يعني الملائكة والمسيح وعزيراً .

﴿ أولئك الذين يَدْعون يبتغون إلى ربّهم الوسيلة ﴾ هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله كعزير والمسيح يدعون ربّهم ، يقصدون ويطلبون التّوسل إليه والتّقرُّب منه بالطاعات والقربات ، ويخصونه بالعبادات ، والوسيلة : هي القربة .

﴿ أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ أي ويطلب من هو أقرب منهم الوسيلة إلى الله تعالى ، فكيف بغير الأقرب ؟ أو أن معنى يبتغون الوسيلة : يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله تعالى ، وذلك بالطاعة وازدياد الخير

والصلاح ، ويرجون رحمة الله ويخافون عذابه كغيرهم من عباد الله ، فكيف يزعمون أنهم آلهة ؟

أخرج الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله الوسيلة ، قالوا : وما الوسيلة ؟ قال : القرب من الله ، ثم قرأ هذه الآية » .

وأما رجاء الرّحمة وخوف العذاب ، فلأن العبادة لاتتم إلا بالخوف والرجاء ، فبالخوف يبتعد الإنسان عن المعاصي ، وبالرجاء يكثر من الطاعات .

والعلّة في الخوف من العذاب هي كما قال تعالى : ﴿ إن عذاب ربّك كان محذوراً ﴾ أي إن عذاب ربّك كان مخوّفاً لاأمان لأحد منه ، فينبغي أن يحذره ويخاف من وقوعه وحصوله العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم ، فكيف أنتم ؟!

ثم أبان الله تعالى مصير الظالمين ، فقال :

﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها .. ﴾ أي ومامن قرية في علم الله المكتوب عنده في اللوح المحفوظ ، من قرى الظالمين بالكفر والمعاصي إلا سيهلكها الله ، بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم عذاب استئصال ، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، لاظلماً ، وإنما بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال تعالى : ﴿ وماظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ [هود ١٠١/١١] .

﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ أي كان ذلك حكماً عاماً ثابتاً مسجّلاً في علم الله أو في اللوح المحفوظ . أخرج الترمذي عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال : ما أكتب ؟ قال : اكتب المقدّر وماهو كائن إلى يوم القيامة » .

ثم أوضح الله تعالى سبب عدم تلبية طلبات أهل مكة فقال :

﴿ ومامنعنا أن نرسل بالآيات .. ﴾ أي وماصرفنا عن الإتيان بما يقترحونه من الآيات إلا تكذيب المتقدّمين الأولين بأمثالها ، فإن أتينا بها وكذّب بها أهل مكة وأمثالهم ، عجّلنا لهم العذاب ، ولم يؤخّروا ، كما هي سنّة الله في خلقه .

والآيات التي اقترحها أهل مكة ـ كما بيّنا في سبب النزول ـ مثل جعل الصّفا ذهباً ، وتنحية الجبال عنهم ، وجعل أراضيهم صالحة للزراعة .

وأما الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذّبوا بها لما أُرسلت ، فأهلكوا جميعاً ، مثل ناقة صالح لثمود ، فلما عقروها أخذتهم الصيحة ، وبقيت آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم ، يبصرها الذاهب والعائد كما قال تعالى هنا : ﴿ وآتينا ثمودَ النّاقةَ مُبْصِرةً فَظَلَموا بها ﴾ أي وأعطينا قبيلة ثمود الناقة حجّة واضحة دالّة على وحدانية من خلقها ، وصدق رسوله الذي لبى الله دعاءه فيها . وقوله تعالى : ﴿ مبصرة ﴾ أي بيّنة أو ذات إبصار يدركها الناس ، وإنما خصّت بالذكر هنا دون غيرها ؛ لأن آثار هلاك ثمود قريبة من بلاد العرب وفي طريقهم . وقوله تعالى : ﴿ فظلموا بها ﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها ، فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم .

﴿ ومانرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ أي ولانبعث بالآيات إلا تخويفاً للناس من نزول العذاب العاجل لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ، فإن لم يخافوا وقع عليهم .

ذكر ابن كثير أن الكوفة رُجفت (زلزلت) على عهد ابن مسعود رضي الله عنه ، فقال : ياأيها الناس ، إن ربّكم يستعتبكم فأعتبوه ، وروي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات ، فقال عمر : أحدثتم والله ، لئن عادت لأفعلنّ ولأفعلنّ ، وفي الحديث المتّفق عليه بين الشيخين : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنها لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ،

ولكن الله عزّ وجلّ يخوّف بها عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره ، ثم قال : ياأمّة محمد ، والله ماأحد أغيرَ من الله أن يزني عبده أو تزني أمته ، ياأمة محمد ، والله لوتعلمون ماأعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » .

ثم حرّض الله تعالى رسوله على إبلاغ رسالته ، وأخبره بأنه قد عصمه من الناس ، فقال : ﴿ وإذ قلنا لك : إن ربّك أحاط بالناس ﴾ أي واذكر إذ أوحينا إليك أن الله هو القادر على عباده ، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته ، وقد عصمك من أعدائك قريش وغيرهم ، وأن الله سينصرك عليهم كما قال : ﴿ والله يعصمُك من الناسِ ﴾ [المائدة ٦٧/٥] ، وقال مبشّراً بالنّصر في بدر : ﴿ سيُهزَمُ الْجَمْعُ ويولُّون الدُّبُرَ ﴾ [القمر ٤٥/٥٤] ، ﴿ قلْ للذين كفروا ستُغلبون وتُحْشَرُون إلى جهنَّمَ ﴾ [آل عمران ١٢/٣] .

ولما بيّن تعالى أن إنزال آيات القرآن تتضمن التّخويف ، ذكر آية الإسراء ، فقال :

﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للنّاسِ ﴾ أي وما جعلنا ما أطلعناك عليه ليلة الإسراء إلا اختباراً وامتحاناً للنّاس ، لمعرفة المؤمنين الصادقين ، والكافرين المكذّبين ، معرفة ينكشف بها حالهم أمام الناس ، لا بالنّسبة إلينا ، فنحن على علم سابق بكل ماسيحصل ، وقد كذّب بها قوم وكفروا ، وصدّق بها آخرون .

ذكر البخاري عن ابن عباس في هذه الآية قال : هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به . ويقال في العربية : رأيته بعيني رؤية ورؤيا .

﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ فيه تقديم وتأخير أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنةً للناس ، أي اختباراً لهم ، مثل حادث الإسراء والمعراج . وتلك الشجرة هي شجرة الزّقوم ، قال تعالى : ﴿ إنّ شجرةَ الزّقّوم

طعامُ الأثيم ﴾ [الدّخان ٤٣/٤٤ ـ ٤٤] . وقد اختلف الناس فيها ، فمنهم من ازداد إيماناً ، فكثير من الأشياء لا تحرقها النار ، ومنهم من ازداد كفراً كأبي جهل وعبد الله بن الزِّبَعْرَى ، وقالوا : وما الزَّقُّوم إلا التّمر والزُّبْدُ ، فجعلوا يأكلون ويتزقّمون منها .

﴿ ونخوّفهم ، فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ أي ونخوّف الكفار بالوعيد والعذاب والنّكال في الدُّنيا والآخرة ، فما يزيدهم التّخويف إلا تمادياً في الطُّغيان وفيما هم فيه من الكفر والضّلال ، فكيف يؤمن قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات ؟!

فقه الحياة أو الأحكام :

أفهمت الآيات المبادئ والأحكام التالية :

١ ـ لا يملك أحد غير الله عزّ وجلّ كشف الضّر من فقر أو مرض أو بلاء أو غيره ، أو تحويله وتبديله من مكان إلى مكان أو من شخص إلى آخر . وقد تحدّى الله المشركين في مكة بآية ﴿ قل : ادعوا الذين .. ﴾ بأن يَدْعوا ما يعبدون من دون الله ، ويزعمون أنهم آلهة لكشف ما أحدق بهم من قحط سبع سنين .

٢ ـ لا فائدة ولا جدوى من الاستعانة بغير الله من الآلهة المزعومة ، فإن تلك المخلوقات كالملائكة وعيسى وعزير يطلبون من الله الزلفة والقربة ، ويتضرّعون إلى الله تعالى في طلب الجنة . والوسيلة هي القربة .

وهذا إخبار من الله تعالى بأن المعبودين يبتغون القربة إلى ربّهم ، فهم بأنفسهم بحاجة إلى ربّهم ، فكيف يؤمل منهم الخير ودفع الضّرّ والشّرّ لأتباعهم وعابديهم ؟!

٣ ـ ما من قرية ظالمة إلا وسيهلكها وأهلَها الله أو يعذّبها عذاباً شديداً قبل

مجيء يوم القيامة ، فليتّق اللهَ المشركون ، فإنه مامن قرية كافرة إلا سيحلّ بها العذاب ، قال ابن مسعود : إذا ظهر الزّنى والرّبا في قرية أذن الله في هلاكهم . ولا يكون الإهلاك إلا بظلم من الناس ، قال تعالى : ﴿ وما كُنَّا مُهْلِكي القُرى إلا وأهلُها ظالِمُون ﴾ [القصص ٥٩/٢٨] .

٤ ـ لامانع يمنع الله سبحانه من الإرسال بالآيات التي اقترحها مشركو مكة إلا أن يكذّبوا بها ، فيهلكوا كما فُعل بمن كان قبلهم ، لذا أخّر الله تعالى العذاب عن كفار قريش ، لعلمه أن فيهم من يؤمن ، وفيهم من يولد مؤمناً .

٥ ـ كان إيتاء ثمود الناقة آية دالّة مضيئة نيّرة على صدق صالح عليه السّلام ، وعلى قدرة الله تعالى . ولما ظلموا أنفسهم بتكذيبها ، أو جحدوا بها ، وكفروا بأنها من عند الله تعالى ، استأصلهم الله بالعذاب .

٦ ـ لا يكون الإرسال بآيات الانتقام إلا تخويفاً من المعاصي والكفر .

٧ ـ بشّر الله نبيّه عليه الصّلاة والسّلام بأنه أحاط بالناس ، أي أهل مكة ، وإحاطته بهم : إهلاكه إياهم ، أو أحاطت قدرته بجميع الناس ، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته .

٨ ـ إن آية الإسراء وشجرة الزّقّوم اختبار للناس وامتحان لهم ، ليَكفر من سبق عليه الكفر ، ويصدّق من سبق له الإيمان .

والثابت والأصح أن حادث الإسراء رؤيا عين أُريها النّبي ﷺ ليلة أُسري به إلى بيت المقدس .

والشجرة الملعونة هي شجرة الزّقّوم ، وهي في أبعد مكان من الرّحمة .

والله تعالى يخوف المشركين وغيرهم بالزّقوم ، فما يزيدهم التّخويف إلا الكفر .

قصة آدم مع إبليس ـ أمر الملائكة بالسّجود

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ لمن خلقتَ طيناً ﴾: ﴿ طيناً ﴾ : إما تمييز منصوب ، أو حال من هاء ﴿ خلقت ﴾ المحذوفة ، وإما منصوب بحذف حرف الجرّ (منصوب بنزع الخافض) ، وتقديره : خلقت من طين ، فلما حذف حرف الجرّ ، اتّصل الفعل به ، فنصبه .

﴿ لئن ﴾ اللام : لام القسم . ﴿ أرأيتك هذا ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب ، لامحل له من الإعراب ، وهذا مفعول به أول ، و ﴿ الذي ﴾ صفته . والمفعول الثاني محذوف ، لدلالة صلته عليه ، أي أخبرني عن هذا الذي كرمته علي بأمري بالسّجود له ، لِمَ كرمته علي .

﴿ جزاءً موفوراً ﴾ منصوب على المصدر بإضمار فعله ، أو حال موطئة لقوله تعالى : ﴿ موفوراً ﴾ .

البلاغة :

﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلك ﴾ استعارة تمثيلية ، شبّه حال الشيطان في تسلّطه على الغاوين بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداء ، للغلبة عليهم .

المفردات اللغوية :

﴿ وإذ قلنا ﴾ واذكر حين قلنا . ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ سجود تحيّة بالانحناء ﴿ أأسجد ﴾ استفهام إنكار وتعجُّب . ﴿ أرأيتك ﴾ أخبرني . ﴿ كرّمت ﴾ فضّلت . ﴿ عليّ ﴾ بالأمر بالسّجود له ، وأنا خير منه ، خلقتني من نار . ﴿ لأحتنكنّ ذريته ﴾ لأستأصلنّهم بالإغواء إلا قليلاً ، لاأقدر أن أقاوم شكيمتهم ، كأنه أصبح يملكهم . والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة . ﴿ إلا قليلاً ﴾ منهم ، ممن عصمته .

﴿ قال ﴾ تعالى له . ﴿ اذهب ﴾ امضِ لشأنك ، منظراً إلى وقت النّفخة الأولى ، فقد خلّيتك وماسولت لك نفسك . ﴿ جزاءً موفوراً ﴾ وافراً كاملاً . ﴿ واستفزز ﴾ واستخف وأزعج . ﴿ بصوتك ﴾ بدعائك إلى معصية الله أو الفساد . ﴿ وأجلب عليهم ﴾ وصِحْ عليهم ، من الْجَلَبَة : وهي الصياح . ﴿ بخيلك ورَجِلك ﴾ وهم الفرسان الركاب ، والمشاة في المعاصي . ﴿ وشاركهم في الأموال ﴾ المحرمة كالرّبا والغصب . ﴿ والأولاد ﴾ من الزّنى . ﴿ وعِدْهم ﴾ بأن لابعث ولاجزاء ، وغير ذلك من المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة ، والاتّكال على كرامة الآباء ، وتأخير التوبة لطول الأمل . ﴿ وما يعدهم الشيطان ﴾ بذلك . ﴿ إلا غروراً ﴾ باطلاً . وهو اعتراض لبيان مواعيده ، والغرور : تزيين الخطأ أو الباطل بما يوهم أنه صواب أو حقّ .

﴿ إن عبادي ﴾ المؤمنين المخلصين . ﴿ سلطان ﴾ تسلّط وقوة على إغوائهم . ﴿ وكيلاً ﴾ حافظاً لهم منك ، ورقيباً ، فهم يتوكّلون على الله في الاستعاذة منك على الحقيقة .

المناسبة :

مناسبة هذه الآية لما قبلها من وجهين :

أحدهما ـ عقد مشابهة بين محنة النّبي ﷺ ومحنة آدم عليه السّلام من إبليس ، فلما نازع المشركون النّبي ﷺ في النّبوة ، وكذّبوه حين أخبرهم عن الإسراء وشجرة الزّقّوم ، واقترحوا عليه الآيات ، كبراً منهم وحسداً له على النّبوة ، ناسب ذكر قصة آدم عليه السّلام وإبليس ، حيث حمله الكبر والحسد على الامتناع من السجود ، فالحسد داء قديم .

والثاني ـ أنه لما قال تعالى : ﴿ فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ بيّن ماسبب هذا الطغيان ، وهو قول إبليس : ﴿ لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً ﴾ .

هـذا .. وقـد ذكرت قصـة آدم في سبـع سـور : البقرة ، الأعراف ، الحجر ، الإسراء ، الكهف ، طه ، صّ .

التفسير والبيان :

واذكر أيّها الرسول للنّاس عداوة إبليس لآدم وذريتـه ، وأنهـا عـداوة قـديمـة منذ خُلِق آدم ، والدليل أنه تعالى أمر الملائكـة بـالسّجود لآدم سجود تحيّـة ومحبّـة وتكريم ، لاسجـود عبــادة وخضــوع ، فسجــدوا كلّهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له ، افتخاراً عليه واحتقاراً له ، قائلاً : أأسجد لـه وهو طين ، وأنـا مخلوق من النار ، كما أخبر تعالى عنه : ﴿ قال : أنا خيرٌ منه خلقتَني من نارٍ وخلَقتَـه من طينٍ ﴾ [صّ ٧٦/٣٨] .

وقـال هنـا جرأةً وكفراً : ﴿ قـال : أرأيتـك هـذا الــذي كرّمت عليّ ﴾ أي أخبرني عن هذا الذي فضّلته : لِمَ كرّمته علي ، وأنا خير منـه ؟ فـإنـه نسب الجور إلى ربّـه في زعمـه أنـه أفضل من آدم بسبب عنصر الخلـق ، فـإن عنصر النـار أسمى وأرفع ، وعنصر الطين أدنى وأقرب للخمول ، والحقيقة أن العناصر كلهـا من جنس واحد ، أوجدهـا الله ، بل إن الطين أنفع من النـار ، فبـالأول البنـاء والعمران ، وبالثاني الخراب والهدم والدّمار .

﴿ لئن أخّرتني إلى يـوم القيـامـة لأحتنكنّ ذريتــه إلا قليـلاً ﴾ أي قسماً لئن أبقيتني إلى يوم القيامة لأستـأصلنّ ذريتـه بـالإغواء ، ولأستولينّ عليهم بـالإضلال جميعاً ، أو لأُضلنّ ذريتـه إلا قليلاً منهم ، وهم العبـاد المخلصون الـذين وصفهم الله تعالى بقولـه : ﴿ إن عبـادي ليسَ لـكَ عليهم سُلْطـانٌ ﴾ [الحجر ٤٢/١٥] أي إن عبادي الصالحين لا تقدر أن تغويهم .

فأجابه الله إلى طلبه حين سأل التأخير وأخّره :

﴿ قـال : اذهبْ ، فمن تبعـكَ منهم .. ﴾ أي امض لشـأنـك الـذي اخترتــه

لنفسك خذلاناً وتخليةً ، فمن أطاعك واتّبعك منهم ، فإن جهنم مقرّكم ومأواكم وجزاؤكم جميعاً تجازون فيها جزاءً وافراً أو موفراً أي محفوظاً كاملاً لا ينقص لكم منه شيء ، ونظير الآية : ﴿ فإنّك من الْمُنْظَرين ، إلى يومِ الوقتِ الْمَعْلومِ ﴾ [الحجر ١٥/٣٧ ـ ٣٨] .

﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ أي استخف واستنفر بدعوتك إلى معصية الله ، بكلّ ما أُوتيت من قوة وإغراء ووسوسة ، وصوته : دعاؤه إلى معصية الله تعالى .

﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلِك ﴾ أي واجمع عليهم جندك فرساناً ومشاةً ، وهذا تمثيل ، والمراد به : تسلّط عليهم بكلّ ما تقدر عليه ، واجمع لهم كلّ مكايدك ، ولاتدّخر وسعاً في إغوائهم ، مستخدماً كلّ الأتباع والأعوان .

﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ أي بتحريضهم على كسب الأموال وإنفاقها في معاصي الله تعالى من ربا وسرقة وغصب وغش وخديعة ، وعلى إنجاب الأولاد بالزّنى أو التّخلّص منهم بالقتل أو الوأد أو إدخالهم في غير الدّين الذي ارتضاه الله تعالى ، وغير ذلك من تسميات غير شرعية ، وتجاوز حدود الشّرع في الزّواج والطّلاق والرّضاع والنّسب والنّفقة وغيرها .

﴿ وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ أي عدهم المواعيد الكاذبة الباطلة من شفاعة الآلهة المزعومة ، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، أو بالتّسويف في التوبة ومغفرة الذّنوب بدونها ، والاتّكال على الرّحمة ، وشفاعة الرّسول في الكبائر ، وإيثار العاجل على الآجل ، وألا جنّة ولا نار ، ونحو ذلك ، مما سيظهر بطلانه حينما يقول إبليس يوم القضاء بالحقّ : ﴿ إن الله وعَدَكم وَعْدَ الحقّ ، ووعدتكم فأخلَفْتُكم ﴾ [إبراهيم ١٤/٢٢] .

وقوله تعالى هنا :

﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ أي لا يعدهم الشيطان إلا كذباً وباطلاً وإظهاراً للباطل في صورة الحقّ ، فمواعيده كلها خُدعة وتزيين كاذب ، وهذه الأوامر للشيطان واردة على سبيل التّهديد والخذلان والتّخلية ، كما يقال للعصاة : ﴿ اعملوا ماشئتم ﴾ [فصلت ٤٠/٤١] .

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ أي إن عبادي المخلصين الصالحين لاتقدر أن تغويهم ، فهم محفوظون محروسون من الشيطان الرّجيم .

﴿ وكفى بربّك وكيلاً ﴾ أي كفى بالله حافظاً ومؤيّداً ونصيراً للمؤمنين الصالحين المتوكّلين عليه ، الذين يستعينون به على التّخلُّص من وساوس الشيطان .

وهذا دليل على أن المعصوم من عصمه الله ، وأن الإنسان بحاجة إلى عون الله جلّ جلاله .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يلي :

١ ـ إن تمادي المشركين وعتوهم على ربّهم يذكّر بقصة إبليس حين عصى ربّه وأبى السّجود ، وقال : إن آدم من طين ، وهو من نار ، وجوهر النار خير من جوهر الطين ، مع أن الجواهر متماثلة ، وقال مخاطباً ربّه : أخبرني عن هذا الذي فضّلته عليّ ، لِمَ فضّلته ؟ وقال أيضاً متحدّياً : لأستأصلنّ ذرية آدم بالإغواء والإضلال ، ولأجتاحنّهم ولأُضلنّهم إلا القليل المعصومين منهم الذين ذكرهم الله في قوله : ﴿ إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطان ﴾ .

وإنما قال إبليس ذلك ظنّاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ ولقد صَدّق عليهم إبليسُ

ظنّه فاتّبعوه ﴾ [سبأ ٢٠/٣٤] ، أو علم من طبع البشر تركب الشهوة فيهم ، أو بنى كلامه على قول الملائكة : ﴿ أتجعلُ فيها من يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ ﴾ [البقرة ٢٠/٢] .

والظاهر أن المأمور بالسجود لآدم هم جميع الملائكة في الأرض والسماء ، وسجد الملائكة لآدم من أول ما كملت حياته .

٢ ـ كان جواب الحقّ تبارك وتعالى في غاية الإهانة والتّحقير ، فقال له : ﴿ اذهبْ فمن تبعك .. ﴾ الآية ، أي اجهد جهدك فقد أنظرناك ، فمن أطاعك من ذرية آدم ، فجزاؤكم جميعاً جهنم .

واستزلّ واستخفّ بدعوتك إلى معصية الله تعالى ، واجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك ، واجعل لنفسك شركة في الأموال بإنفاقها في معصية ، وفي الأولاد بجعلهم أولاد الزّنى ، وعدهم الأماني الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولا حساب .

ولكن عبادي المؤمنين الصالحين لا سلطان ولا تسلُّط لك عليهم . وكفى بالله عاصماً من القبول من دعاوى إبليس ، وحافظاً من كيده وسوء مكره .

٣ ـ قال القرطبي : دلّت آية ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ على تحريم المزامير والغناء واللهو ؛ لأن صوته : كلُّ داعٍ يدعو إلى معصية الله تعالى ، وكلّ ما كان من صوت الشيطان أو فعله وما يستحسنه فواجب التّنزه عنه . وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمّارة ، فوضع أصبعيه في أذنيه ، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول : يانافع ، أتسمع ؟ فأقول : نعم ، فمضى حتى قلت له : لا ، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق ، وقال : رأيت رسول الله ﷺ سمع صوت زمّارة راعٍ ، فصنع مثل هذا[1] .

---

(١) تفسير القرطبي : ٢٩٠/١٠

بعض نِعَم الله تعالى على الإنسان

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ أن يخسف بكم ﴾ ﴿ بكم ﴾ حال أو صلة ليخسف . ﴿ إلا إياه ﴾ الظاهر أنه استثناء منقطع ؛ لأنه لم يندرج في قوله : ﴿ من تدعون ﴾ إذ المعنى : ضلت آلهتهم أي معبوداتهم ، وهم لا يعبدون الله .

البلاغة :

﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾ تذييل كالتعليل لما سبق من تسيير السفن بقصد التجارة وطلب الرزق .

﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ كالتعليل للإعراض عن الإيمان والتوحيد .

﴿ أفأمنتم ﴾ الهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على محذوف ، تقديره : أنجوتم فأمنتم ، فحملكم ذلك على الإعراض .

المفردات اللغوية :

﴿ يزجي ﴾ يجري ويسيّر ، والأصل فيه أنه يسوق حيناً بعد حين . ﴿ الفلك ﴾ السفن . ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ تطلبوا من فضله تعالى بالتجارة و ﴿ فضله ﴾ : هو رزقه . ﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾ في تسخيرها لكم ، وتهيئة ماتحتاجون إليه ، وتسهيل ماتعسر من الأسباب . ﴿ الضر ﴾ الشدة أو خوف الغرق بتقاذف الأمواج . ﴿ ضلّ ﴾ غاب عنكم وعن ذاكرتكم . ﴿ من تدعون ﴾ تعبدون من الآلهة ، فلا تدعونه ﴿ إلا إياه ﴾ تعالى ، فإنكم تدعونه وحده ؛ لأنكم في شدة لا يكشفها إلا هو . ﴿ فلما نجاكم ﴾ من الغرق . ﴿ أعرضتم ﴾ عن الإيمان والتوحيد ﴿ كفوراً ﴾ جحوداً للنعم ، والمراد بالإنسان الكفار .

﴿ أفأمنتم ﴾ أي أنجوتم فأمنتم ، فأعرضتم ، فإن من قدر أن يهلككم في البحر بالغرق ، قادر أن يهلككم في البر بالخسف وغيره . ﴿ أن يخسف بكم جانب البر ﴾ أي يقلبه الله وأنتم عليه ، أو يقلبه بسببكم ، كما فعل بقارون ، والخسف : انهيار الأرض . وفي ذكر الجانب تنبيه على أنهم لما وصلوا الساحل ، كفروا وأعرضوا ، وإن الجوانب والجهات في قدرته سواء ، لامعقل يؤمن فيه من أسباب الهلاك .

﴿ أو يرسل عليكم حاصباً ﴾ أي يرميكم بالحصباء والحجارة كقوم لوط ، والمراد : الريح الشديدة الحاصبة ، وهي التي ترمي بالحصى الصغيرة . ﴿ وكيلاً ﴾ حافظاً منه . ﴿ أن يعيدكم فيه ﴾ في البحر . ﴿ تارة أخرى ﴾ مرة ثانية . ﴿ قاصفاً من الريح ﴾ أي ريحاً شديدة لاتمر بشيء إلا قصفته فهي تكسر الشجر وغيره .

والخلاصة : إن الحاصب : الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء ، والقاصف : الريح التي تقصف الشجر وغيره وتكسره أو هي الريح الشديدة الصوت . ﴿ بما كفرتم ﴾ بكفركم . ﴿ تبيعاً ﴾ ناصراً ومعيناً وتابعاً يطالبنا بما فعلنا بكم .

﴿ كرّمنا ﴾ فضلنا . ﴿ بني آدم ﴾ بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة ، والتمييز بالعقل والعلم ، والإفهام بالنطق والإشارة ، والاهتداء إلى أسباب المعاش والمعاد ، والتسلط على ما في الأرض ، والتمكن من الصناعات ، والطهارة بعد الموت ، أي أن التكريم بالخلق في أحسن تقويم ، وبالعقل أداة العلم والمعرفة والتقدم والتمدن . ﴿ وحملناهم في البر ﴾ أركبناهم في الماضي والحاضر على الدواب ، وفي الحاضر على السيارات والطائرات ونحوها . ﴿ والبحر ﴾ على السفن . ﴿ الطيبات ﴾ المستلذات . ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا ﴾ كالبهائم والوحوش ، ومن : بمعنى ما ، أو بمعناها الأصلي وتشمل الملائكة ، والمراد تفضيل الجنس ، ولا يلزم منه تفضيل أفراده ، إذ الملائكة أفضل من البشر غير الأنبياء . والمراد : فضلناهم بالغلبة والاستيلاء ، أو بالشرف والكرامة .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى وصف المشركين في اعتقادهم آلهتهم ، وأنها تضر وتنفع ، وأتبع ذلك بقصة إبليس مع آدم ، وتمكينه من وسوسة ذريته ، ذكر ما يدل من أفعاله على وحدانيته ، وأنه هو النافع الضارّ ، المتصرف في خلقه بما يشاء ، وتلك المخلوقات هي نعم إلهية على الإنسان ، سواء في البر والبحر ، ودلائل القدرة الإلهية ، فهو تعالى الذي يزجى الفلك في البحر ، وينجي من الغرق ، ومن تمام نعمته : تكريم الناس ورزقهم وتفضيلهم على جميع الخلق ، مما يستوجب الإفراد بالعبادة .

التفسير والبيان :

ربكم اللطيف بعباده هو الذي يوفر مصالح خلقه ويسهل لهم سبل الحياة ، فيجري ويسيّر لكم السفن في البحر بمختلف القوى كالريح أو الطاقة البخارية أو الكهربائية أو الذرية ، لنقل الأشخاص للسياحة أو للارتزاق بين بلاد الدنيا ، ونقل البضائع والسلع التجارية من إقليم إلى إقليم ، وطلب الرزق من فضل الله ، إنه كان بكم رحيماً ، أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

ومن رحمته تعالى وفضله ماأخبر به : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر .. ﴾ أي وإذا أصابكم أيها الناس ضر أو شدة وجهد في البحر ، ذهب عن تصوراتكم وخواطركم كل من تدعونه في حوادثكم وتعبدونه من دون الله من صنم أو ملك أو بشر إلا إياه سبحانه ، فلا تتذكرون إلا الله ، ولا تلجؤون لسواه لكشف الضر عنكم .

وذلك كما حدث لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارّاً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، وركب في البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتها ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا ينجي عنكم إلا أن تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه :

والله إن كان لا ينفع في البحر غيره ، فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك عليّ عهد ، لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد ، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه .

﴿ فلما نجاكم إلى البَرّ أعرضتم ﴾ أي فلما أمنتم وأنقذكم ، وأوصلكم إلى شاطئ البر والسلامة ، واستجاب دعاءكم ، أعرضتم ، أي نسيتم ماعرفتم من توحيده في البحر ، وأعرضتم عن دعائه ، وعُدْتم إلى الإشراك به .

وعلة ذلك ماقال تعالى : ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ أي وكانت سجية الإنسان وطبعه أن ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله تعالى .

ثم ناقشهم تعالى محذراً من جحود النعمة فقال :

﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر .. ﴾ أي أفحسبتم بخروجكم إلى البر أنكم أمنتم من انتقام الله وعذابه ، بأن يخسف بكم جانب البر الذي تقطنون فيه بتغييبه في باطن الأرض ، أو أن يرسل عليكم حاصباً ، وهو المطر الذي فيه حجارة من السماء أو الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء وهي الحصى الصغار ، كما فعل بقوم لوط ﴿ ثم لاتجدوا لكم وكيلاً ﴾ أي لاتجدون بعدئذ ناصراً تكِلون إليه أموركم ، وينقذكم منه ، ومن يتوكل بصرف ذلك عنكم . وجانب البر : ناحية الأرض .

والحاصب أخبر تعالى عنه في آيات ، مثل : ﴿ إنا أرْسَلْنا عليهم حاصِباً إلا آلَ لوطٍ نجَّيناهم بسَحَرٍ ﴾ [القمر ٣٤/٥٤] ومثل ﴿ وأمْطَرْنَا عليهم حِجارةً من سِجِّيل ﴾ [الحجر ٧٤/١٥] .

﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه .. ﴾ أي أم أمنتم أيها المعرضون عنا ، بعدما اعترفتم في البحر بتوحيدنا ، وخرجتم إلى البر ، أن يعيدكم في البحر مرة ثانية ، فيرسل عليكم وأنتم راكبون في السفن ريحاً قاصفاً تقصف السواري ، وتغرق

المراكب ، فالقاصف : ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها ، ولها قصيف أي صوت شديد ، كأنها تتقصف أي تتكسر .

﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى .

﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ أي نفعل ما تفعل بكم ، ثم لا تجدوا أحداً يطالبنا بما فعلنا ، انتصاراً منا ، وذَرْكاً للثأر من جهتنا ، أي لا تجدوا أحداً يأخذ بثأركم بعدكم . وقوله ﴿ تبيعاً ﴾ أي نصيراً يأخذ بالثأر ، أو يطالب بالحق . ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ ولا يخاف عُقْباها ﴾ [الشمس ٩١/١٥] . وفي قوله وعيد شديد وتهديد بسوء العاقبة .

ومن تمام نعمة الله وفضله ورحمته تكريم الإنسان في قوله : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم .. ﴾ أي ولقد كرمنا بني آدم ، أي جعلنا لهم كرماً أي شرفاً وفضلاً[1] ، بخلقهم على أحسن صورة وهيئة ، ومنحناهم السمع والبصر والفؤاد للفقه والفهم ، وحَمَّلناهم وميزناهم بالعقل الذي يدركون به حقائق الأشياء ، ويهتدون به إلى الصناعات والزراعات والتجارات ، ومعرفة اللغات ، ويفكرون في اكتشاف خيرات الأرض ، والإفادة من الطاقات ، وتسخير ما في العالم العلوي والسفلي ، وما في الكون من وسائل النقل وأسباب الحياة والمعيشة ، والتمييز بين الأشياء وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية .

وحملناهم في البر على الدواب من الأنعام والخيل والبغال ، وفي الوقت الحاضر على القطارات والطائرات وغيرها ، وفي البحر أيضاً على السفن الكبيرة والصغيرة ، وهو حمل لا يصح لغير بني آدم بإرادته وقصده وتدبيره .

ورزقناهم من الطيبات ، أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة ، والخلاصة : أن

(١) وهذا كرم نفي النقصان ، لا كرم المال .

الطيبات هي لذيذ المطاعم والمشارب ، وتشمل تبعاً سائر أنواع الزينة المستطابة .

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا وهو ماسوى الملائكة ، أو فضلناهم على أصناف المخلوقات وسائر أنواع الحيوانات بالغلبة والاستيلاء والحفظ والتمييز والثواب والجزاء .

وعلى التفسير الثاني استدل بهذه الآية الكريمة كما ذكر ابن كثير على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة ، روى الطبراني عن عبد الله بن عمرو ، وعبد الرزاق عن زيد بن أسلم موقوفاً ، وابن عساكر عن أنس بن مالك مرفوعاً عن النبي ﷺ قال : « إن الملائكة قالت : يا ربنا ، أعطيت بني آدم الدنيا ، يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ، ونحن نسبّح بحمدك ، ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا ، فاجعل لنا الآخرة ، قال : لاأجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ، كمن قلت له : كن فيكون » . وقد عرفنا أن الحق تفضيل الملائكة على البشر .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يأتي :

١ ـ لله تعالى على الإنسان أفضال ونِعَم كثيرة غير الرزق والحياة ، منها تسخير السفن في البحار ، لركوب الركاب وتيسير وسائل المواصلات ونقل التجارات ، مما يقتضي شكر تلك النعم ، وعدم الإشراك به شيئاً آخر .

٢ ـ من نعمه تعالى ورحمته إنقاذ الإنسان من مخاطر البحر وأهواله أثناء هياجه واضطرابه ، فلا يجد المضطر ملجأ غير الله يلجأ إليه لكشف الضر عنه . وكل واحد يعلم بالفطرة علماً يقينياً أن الأصنام لافعل لها في الشدائد العظام .

لكن الإنسان ظلوم كفار للنعم إلا من عصمه الله ، والمراد بالإنسان في

قوله : ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ هو الجنس الشامل للمؤمن والكافر .

والله قادر على إهلاك الناس في البر ، وإن سلموا من البحر ، ولن يجدوا من دون الله حافظاً ونصيراً يمنع من بأس الله ، والله تعالى إما أن يهلك الناس بالزلزال (خسف جانب من الأرض) أو بإرسال ريح شديدة وهي التي ترمي بالحصباء .

وإذا تم الإنجاء من الغرق ، فربما يعود الإنسان إلى ركوب البحر ، فيتم الإغراق بقاصف من الريح : وهو الريح الشديدة التي تَكْسر بشدة ، بسبب الكفر والضلال ، دون أن يجد الناس من يثأر لهم أو يوجد نصير يطلب لهم بثأر أو غيره .

٣ ـ ومن نعم الله تعالى الجليلة على الإنسان : الأشياء الأربعة التي بها فضل الإنسان على غيره : وهي تكريم بني آدم بخلقهم في أحسن تقويم وبالعقل والتفكير ، والحمل في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل وغيرها من الوسائل الحديثة ، وفي البحر على السفن ، والرزق من الطيبات ، والتفضيل على كثير من المخلوقات ، لا على الكل .

والفرق بين التكريم والتفضيل : أن الأول يكون بالأمور الخَلْقية الطبيعية الذاتية مثل العقل والنطق والتخطيط والصورة الحسنة والقامة المديدة ، والثاني يكون بتمكينه بالعقل والفهم من اكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة[1]

وهل الإنسان أفضل أو الملائكة ؟

يحتمل أن الملائكة أفضل ، ويحتمل العكس ، ويحتمل التساوي ، وليس في الآية نص على التفضيل بين الصنفين ، كالآية التي تصرح بتفضيل بعض الأنبياء على بعض .

---

(١) تفسير الرازي : ١٦/٢١

فقال بعض العلماء بتفضيل المؤمنين على الملائكة ، محتجين بالحديث المتقدم عن عبد الله بن عمرو أو أنس أو زيد بن أسلم ، وبما قال أبو هريرة : « المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده » .

وقال آخرون بأن الملائكة أفضل من البشر على الإطلاق ، عملاً بهذه الآية ، وهو دليل الخطاب : وهو أن تخصيص الكثير بالذكر يدل على أن الحال في القليل بالضد .

والظاهر هو الرأي الثاني ، فإن قوله تعالى : ﴿ على كثير ممن خلقنا ﴾ هو ماسوى الملائكة ، قال الزمخشري : وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة ذوو المنزلة العالية عند الله[1] .

أحوال الناس مع قادتهم يوم القيامة

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

الإعراب :

﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ ﴿ يوم ﴾ : ظرف منصوب متعلق بفعل دل عليه : ﴿ ولا يظلمون ﴾ فكأنه قال : لا يظلمون فتيلاً يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿ ندعو ﴾ لأنه مضاف إليه ، والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله وهو المضاف ، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿ فضلنا ﴾ في الآية المتقدمة ؛ لأن الماضي لا يعمل في المستقبل .

---

(١) الكشاف : ٢/٢٤٠

وباء ﴿ بإمامهم ﴾ متعلقة بندعو ؛ لأن كل إنسان يُدعى بإمامه يوم القيامة ، أو متعلقة بمحذوف في موضع الحال ، أي يوم ندعو كل أناس مختلطين بإمامهم .

﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ﴾ هو من عمى القلب ، ولو كان من عَمَى العين ، لقال : فهو في الآخرة أشد عمى ؛ لأن عمى العين شيء ثابت كاليد والرجل ، فلا يتعجب منه إلا بأشد أو نحوه من الثلاثي . وأفعل : الذي للتفضيل يجري مجرى التعجب .

البلاغة :

﴿ كل أناس بإمامهم ﴾ استعارة ، استعار الإمام الذين يتقدم الناس في الصلاة لكتاب الأعمال ، لملازمته الإنسان وتقدمه يوم القيامة .

﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ استعارة تمثيلية ، أي لاينقصون من ثواب أجورهم ولو بمقدار خيط شق النواة ، وهو مثل للقلة .

﴿ فمن أوتي كتابه ﴾ ﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ تفصيل بعد إجمال ، بعد ذكر كتاب الأعمال .

المفردات اللغوية :

﴿ يوم ندعو ﴾ اذكر يوم ندعو ، وهو يوم القيامة . ﴿ بإمامهم ﴾ بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين ، أو كتاب ، أو دين ، فيقال : ياأتباع فلان ، ياأهل دين كذا ، وكتاب كذا . وقيل : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ، ويا أصحاب كتاب الشر ، كقوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ [يس ١٢/٣٦] ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾ أي فمن أوتي منهم كتابه بيمينه ، وهم السعداء أولو البصائر في الدنيا . ﴿ فأولئك يقرؤون ﴾ قيل أولئك ؛ لأن من أوتي في معنى الجمع ، وخص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم لشعورهم بالسعادة ، فهم يقرؤون كتابهم أحسن قراءة وأبينها ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم ، حتى يقول القارئ لأهل المحشر : ﴿ هاؤم اقرؤوا كتابيه ﴾ [الحاقة ١٩/٦٩] وأما أصحاب الشمال فكأنهم لا يقرؤون كتابهم ، لعجزهم عن النطق السوي والقول الصحيح ، بسبب ما ينتابهم أمام العقاب من حياء وخجل وانخزال وحبس لسان وتعتعة .

﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ ولا ينقصون من ثواب أعمالهم أدنى شيء ، كقوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون شيئاً ﴾ [مريم ٦٠/١٩] ﴿ فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ [طه ١١٢/١٠] والفتيل : الخيط المستطيل في شَقّ النواة . وهو يضرب به المثل في الشيء الحقير التافة القليل ، ومثله : النقير والقطمير .

﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ﴾ أي ومن كان في الدنيا أعمى فليس المراد بالعمى الحقيقة ، وإنما المجاز هو عمى البصيرة ، فقد استعير الأعمى لأعمى القلب أو البصيرة عن حجة الله وبيناته ، أو من لا يهتدي إلى طريق النجاة ، وهو دليل على وقوع المجاز في القرآن . ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ أبعد طريقاً عنه .

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى أنواعاً من كرامات الإنسان وأفضاله عليه في الدنيا ، ذكر من أحوال الآخرة وما فيها من تفاوت شديد بين أهل السعادة وأهل الضلال والانحراف عن معالم الهدى الإلهي وأنه تعالى يحاسب كل أمة بإمامهم ، أي بنبيهم فيقال : ياأمة إبراهيم ، ياأمة موسى ، ياأمة عيسى ، ياأمة محمد ؛ أو بكتابهم الذي أنزل على نبيهم ؛ أو بكتبهم التي فيها رصد أعمالهم ، وهو الأرجح .

التفسير والبيان :

اذكر يا محمد ذلك اليوم الذي نحاسب فيه كل أمة بإمامهم أي بكتاب أعمالهم ، وهو القول الأرجح كما ذكر ابن كثير ؛ لقوله تعالى : ﴿ وكلَّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبينٍ ﴾ [يس ١٢/٣٦] وقوله سبحانه : ﴿ ووُضِعَ الكتابُ ، فترى المجرمين مُشْفقين مما فيه ﴾ [الكهف ٤٩/١٨] فالكتاب يسمى إماماً لأنه يُرجع إليه في تعرّف أعمالهم .

ويحتمل أن المراد ﴿ بإمامهم ﴾ أي بقائدهم الذي يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وجَعَلْناهم أئمةً يَدْعونَ إلى النار ﴾ [القصص ٤١/٢٨] . إلا أن الراجح هو ماذكر ابن كثير ، بدليل قوله تعالى بعده :

﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ، فأولئك يقرؤون كتابهم ﴾ أي فمن أعطي من هؤلاء المدعوين كتابه بيمينه ، فأولئك يقرؤونه بفرح وسرور بما فيه من العمل

الصالح ، كما قال تعالى : ﴿ فأما مَنْ أُوتي كتابَه بيمينِه ، فيقولُ : هاؤمُ اقْرؤوا كتابيَهْ ﴾ [الحاقة ١٩/٦٩] .

﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ أي ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء ، والفتيل : هو الخيط المستطيل في شق النواة ، ونحو الآية : ﴿ ولا يُظْلَمون شيئاً ﴾ [مريم ٦٠/١٩] وآية ﴿ فلا يَخَافُ ظُلْماً ولا هَضْماً ﴾ [طه ١١٢/٢٠] .

أخرج الترمذي والحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ قال : « يدعى أحدهم ، فيعطى كتابه بيمينه ، ويُمَدُّ له في جسمه ، ويُبَيَّض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهم أتنا بهذا ، وبارك لنا في هذا ، فيأتيهم فيقول لهم : أبشروا ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا . وأما الكافر فيسودُّ وجهُه ، ويُمَدُّ له في جسمه ، ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا ، اللهم لا تأتنا به ، فيأتيهم فيقولون : اللهم أخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا » .

وعاقبة الحساب معروفة في الدنيا قبل الآخرة ، فقال سبحانه :

﴿ ومن كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ أي ومن كان في الحياة الدنيا أعمى عن حجج الله وبيناته وآياته التي أبانها في الكون ، فهو يكون كذلك أعمى في الآخرة ، لا يجد طريق النجاة ، بل وأضل سبيلاً من الأعمى في الدنيا . وليس المراد بالأعمى عمى البصر ، بل المراد منه عمى القلب .

والأعمى مستعار لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة ، أما في الدنيا فلفقد النظر ، وأما في الآخرة فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيتان إلى ما يلي :

١ ـ الحساب بين الخلائق يوم القيامة يكون مدعماً بالوثائق والمستندات ، فكل إنسان يدعى للحساب بكتابه الذي فيه عمله ، كما قال تعالى : ﴿ وترى كلَّ أمة جاثيةً ، كلُّ أمة تُدعى إلى كتابها ، اليومَ تجزون ما كنتم تعملون ﴾ [الجاثية ٢٨/٤٥] .

والدعوة تكون في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، خلافاً لمن قال كمحمد بن كعب أن الدعوة تكون بأسماء أمهاتهم ؛ لأن في ذلك ستراً على آبائهم ، بدليل حديث الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، يرفع لكل غادر لواء ، فيقال : هذه غَدْرة فلان بن فلان » فقوله : « هذه غَدْرة فلان بن فلان » دليل على أن الدعوة تكون بأسماء الآباء لا بأسماء الأمهات .

٢ ـ ليس هناك فرحة بعد أهوال الحساب أشد وأغبط للنفس من فرحة تلقي الكتاب باليمين ؛ لأنه دليل النجاة والفوز والسعادة الأبدية ، فاللهم اجعلنا من أهل اليمين .

٣ ـ إن الأعمى في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق والاستدلال بآيات الله في الكون الدالة على وجوده ووحدانيته هو في الآخرة أعمى ، وأضل سبيلاً ، لا يهتدي إلى طريق النجاة ، ولا يجد طريقاً إلى الهداية ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أعْرَضَ عن ذِكْري فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً ، ونحشره يومَ القيامة أعْمى ﴾ [طه ١٢٤/٢٠] وقال سبحانه : ﴿ ونحشُرُهم يومَ القيامةِ على وجوهِهم عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً ، مأواهم جَهَنَّمُ ﴾ [الإسراء ٩٧/١٧] .

محاولة المشركين فتنة النبي ﷺ وطرده من مكة

وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

الإعراب :

﴿ وإن كادوا ﴾ ﴿ إن ﴾ : مخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة ، وكذلك في قوله : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ .

﴿ سنة من قد .. ﴾ ﴿ سنة ﴾ : منصوب على المصدر المؤكد لما قبله ، والتقدير : أهلكناهم إهلاكاً مثل سنة من قد أرسلنا قبلك ، أو سن الله ذلك سنة ، فحذف المصدر وصفته ، وأقيم ما أضيفت إليه الصفة مقامه .

البلاغة :

﴿ ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ وإن كادوا ﴾ قاربوا . ﴿ ليفتنونك ﴾ ليستنزلونك وليخدعونك في ظنهم ، لأنهم قاربوا ذلك ، إذ هو معصوم ﷺ أن يقاربوا فتنته عما أوحى الله إليه . ﴿ عن الذي أوحينا إليك ﴾ من الأحكام . ﴿ لتفتري علينا غيره ﴾ غير ما أوحينا إليك . ﴿ وإذاً لاتخذوك خليلاً ﴾ أي لو فعلت ذلك ، واتبعت مرادهم لاتخذوك بافتتانك ولياً لهم ، بريئاً من ولايتي .

﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ ولولا تثبيتنا إياك على الحق بالعصمة . ﴿ لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم اتباعاً قليلاً ، لشدة احتيالهم وإلحاحهم ، ولكن أدركتك عصمتنا ، فمنعت أن تقرب من الركون ، فضلاً عن أن تركن إليهم . وهو صريح في أنه ﷺ لم يركن إليهم ولا قارب ولا همّ بإجابتهم ، مع قوة الداعي إليها ، وهو دليل أيضاً على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه .

﴿ إذاً لأذقناك ﴾ أي لو قاربت لأذقناك . ﴿ ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ أي ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة ، أي مثلي ما يعذب غيرك في الدنيا والآخرة . ﴿ نصيراً ﴾ مانعاً منه ، يدفع العذاب عنك .

﴿ ليستفزونك من الأرض ﴾ ليزعجونك ويثيرونك بعاداتهم ومكرهم لإخراجك من أرض مكة ، وقال السيوطي : أرض المدينة . قال قتادة : همّ أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة ، ولو فعلوا ذلك ، ما أمهلوا ، ولكن الله تعالى منعهم من الخروج ، حتى أمره بالخروج[1] . ﴿ وإذاً ﴾ لو أخرجوك . ﴿ لا يلبثون خلافك ﴾ لا يمكثون أو لا يبقون فيها بعدك أي بعد خروجك . ﴿ إلا قليلاً ﴾ إلا زماناً قليلاً ، ثم يُهلكون .

﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ﴾ أي سنتنا بك سنة الرسل قبلك ، أي كسنتنا فيهم من إهلاك من أخرجهم . ﴿ تحويلاً ﴾ أي تبديلاً وتغييراً .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سبب النزول :

نزول الآية (٧٣) :

﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم وابن إسحاق وغيرهم عن ابن عباس قال : خرج أُمية بن خَلَف ، وأبو جهل بن هشام ، ورجال من قريش ، فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، تعالَ تمسّح بآلهتنا ، وندخل معك في دينك ، وكان يحب إسلام قومه ، فرقّ لهم ، فأنزل الله : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ﴾ إلى قوله : ﴿ نصيراً ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن سعيد بن جبير قال : كان

(١) تفسير الرازي : ٢٣/٢١

رسول الله ﷺ يستلم الحجر ، فقالوا : لا ندعك تستلم حتى تلمّ بآلهتنا ، فحدّث نفسه وقال : ما عليّ أن ألِمّ بها بعد أن يَدعوني أستلم الحجر ، والله يعلم ، إني لها كاره ، فأبى الله ذلك ، وأنزل عليه هذه الآية . وأخرج نحوه عن ابن شهاب الزهري .

وقيل : نزلت الآية في ثقيف وقد سألوه ﷺ أن يحرّم واديهم ، وألحوا عليه .

نزول الآية (٧٦) :

﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن عبد الرحمن بن غنم : أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا : إن كنت نبياً فالحق بالشام ، فإن الشام أرض الحشر ، وأرض الأنبياء ، فصدّق رسول الله ﷺ ما قالوا ، فغزا غزوة تبوك يريد الشام ، فلما بلغ تبوك ، أنزل الله آيات من سورة بني إسرائيل ، بعدما ختمت السورة : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ وأمره بالرجوع إلى المدينة ، وقال له جبريل : سل ربك ، فإن لكل نبي مسألة ، فقال : ما تأمرني أن أسأل قال : قل : ﴿ رب أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ [الإسراء ٨٠/١٧] فهؤلاء نزلن في رجعته من تبوك . قال السيوطي : هذا مرسل ضعيف الإسناد ، وله شاهد من مرسل سعيد بن جبير عند ابن أبي حاتم ، ولفظه : قالت المشركون للنبي ﷺ : كانت الانبياء تسكن الشام ، فمالك والمدينة ؟ فهم أن يشخص ، فنزلت . وله طريق أخرى مرسلة عند ابن جرير : أن بعض اليهود قال له . والمراد أن هذه الروايات يقوي بعضها بعضاً ، فتصبح مقبولة ، أي أن هذه الآية نزلت لما قال اليهود للنبي ﷺ : إن كنت نبيا ، فالحق بالشام فإنها أرض الأنبياء . روي أنه لما نزلت قال رسول الله ﷺ : « اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين » .

المناسبة :

لما عدّد الله تعالى نعمه على بني آدم ، وذكر حالهم في الآخرة من إيتاء الكتاب باليمين لأهل السعادة ، ومن عَمَى أهل الشقاوة ، أتبع ذلك بما يهمّ به الأشقياء في الدنيا من المكر والخداع والتلبيس على النبي ﷺ سيد أهل السعادة ، المقطوع له بالعصمة .

وسبب هذه المساومات والخديعات : رجاؤهم أن يفتري على الله غير ماأوحى الله إليه من تبديل الوعد وعيداً ، وبالعكس ، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله مالم ينزل عليه .

التفسير والبيان :

المعنى وإن همّ المشركون وقاربوا بمكائدهم وخداعهم أن يصرفوك عما أوحينا إليك من الشرائع والأحكام من أوامر ونواه ووعد ووعيد ، لتفتري علينا غير الذي أوحيناه إليك ، وتتقول علينا مالم نقل ، وتخترع غيره وتبدل فيه كما أرادوا من تبديل الوعد وعيداً ، والوعيد وعداً ، وما اقترحته ثقيف من أن تضيف إلى الله مالم ينزل عليك .

﴿ وإذاً لاتخذوك خليلاً ﴾ أي وحينئذ لو اتبعت ما يريدون ، وفعلت ما يطلبون لاتخذوك صديقاً لهم ، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على ماهم عليه من الشرك ، ولكنت لهم ولياً مناصراً ، وخرجت من ولايتي .

﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تَرْكَنُ إليهم شيئاً قليلاً ﴾ أي ولولا تثبيتنا لك على الحق وعصمتنا إياك ، لقاربت أن تميل إلى خداعهم ومكرهم ، ميلاً وركوناً قليلاً .

وهذا تهييج من الله لنبيه ، وبيان فضل تثبيته له ، ولطف بالمؤمنين ، أي أنه ربما هادنتهم ، لالضعف إيمانك ، بل لشدة مبالغتهم في المكر والحيلة

والخداع ، ولكن عنايتنا منعتك من الركون إليهم . وهو تصريح بأن النبي ﷺ لم يصدر منه همّ بمجاملتهم ومجاراتهم ، بل ولم يقترب من ذلك .

وهو دليل على تأييد الله لرسوله وتثبيته وعصمته وتسليمه من مكائد الكفار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره وحافظه وناصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه .

قال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ : « اللهم لاتكلني إلى نفسي طرفة عين » .

وإمعاناً في العصمة والصون توعده الله على ماقد يكون على سبيل الاحتمال والافتراض ، وإن لم يحصل فقال :

﴿ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ أي لو فعلت ذلك لعاقبناك بعقوبة مضاعفة في الدنيا والآخرة ويكون المراد بالآية ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات أي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ لأن ذنب القائد أو العظيم يستحق عقاباً أشد وأعظم ، لذا يعاقب العالم القدوة أشد من عقوبة العامي التابع له ، قال ﷺ فيما أخرجه مالك وأحمد ومسلم وأصحاب السنن إلا أبا داود عن أبي جحيفة وواثلة بن الأسقع : « من سنّ سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » . والضعف : أن يضم إلى الشيء مثله .

وهذا وارد أيضاً في عقوبة نساء النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ يانساءَ النبي مَنْ يأتِ منكنَّ بفاحشةٍ مبيِّنةٍ يُضاعَفْ لها العذابُ ضِعْفين ﴾ [الأحزاب ٣٠/٣٣] .

ومن مكائد أهل مكة محاولة إخراج النبي ﷺ من مكة ، كما قال تعالى :

﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ أي ولقد قارب أهل مكة أيضاً أن يزعجوك بعداوتهم ومكرهم ، ويخرجوك من أرضهم التي أنت فيها أي أرض مكة .

﴿ وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ أي وإذا أخرجوك لا يبقون بعد إخراجك إلا زماناً قليلاً ، فإن الله مهلكهم ، وحدث هذا الوعيد كما قال ، فقد أهلكهم الله ببدر بعد إخراجه بقليل ، وهو ثمانية عشر شهراً بعد الهجرة أو الإخراج .

﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا .. ﴾ أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذَوْهم أن يأتيهم العذاب ، بخروج الرسول من بينهم ، فكل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ، فسنة الله أن يهلكهم ، ولولا أنه ﷺ الرحمة المهداة ، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به ، قال تعالى : ﴿ وما كانَ اللهُ ليعذِّبَهم وأنتَ فيهم ﴾ [الأنفال ٣٣/٨] .

﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾ أي لا تغيير لسنة الله ونظامه وعادته ، ولا خُلْف في وعده .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدتنا الآيات إلى العبر والعظات والأحكام التالية :

١ ـ تعرض النبي ﷺ لأنواع شتى من مكائد المشركين في مكة وألوان خداعهم ومساوماتهم ، ومن أخطرها محاولات افتراء تغيير الوحي وتبديله ، وإخراجه وطرده من مكة موطنه الأصلي .

أما محاولة تبديل الوحي وإقرارهم على شيء من قواعد شركهم وجاهليتهم فباءت بالفشل والخيبة ، ولم يتم لهم ما أرادوا ، لا قليلاً ولا غيره بتأييد الله وعصمته .

وأما محاولة الإخراج من مكة فتم لهم مرادهم حينما أمره الله بالخروج ، ولكنهم بعدها تعرضوا للقتل في بدر ، وإلى فتح مكة موطنهم ، وإسلام بعض

زعمائهم ، وانتشار الإسلام فيها وفي أنحاء الجزيرة العربية ، فتداعت معاقل الشرك ، وتهدمت حصون الوثنية ، وحل الإسلام محلها .

٢ ـ لا يشكن أحد في أن النبي ﷺ معصوم ، وأنه لم يهادن الكفر والكفار والشرك والمشركين ، بل ولم يهمّ في ذلك ، وإنما كانت الآيات تهييجاً له ، وتهديداً على مجرد الاحتمال والافتراض .

فقوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ يدل على قرب وقوعه في الفتنة ، لا على الوقوع في تلك الفتنة ، فلو قلنا : كاد الأمير أن يضرب فلاناً ، لا يفهم منه أنه ضربه .

وقوله تعالى : ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ لا يدل على قرب ركونه إلى دينهم والميل إلى مذهبهم ؛ لأن كلمة ﴿ لولا ﴾ تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره ، تقول : لولا علي لهلك عمر ، معناه أن وجود علي منع من حصول الهلاك لعمر ، فكذلك معنى الآية : أنه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد ﷺ ، فكان حصول ذلك التثبيت مانعاً من حصول ذلك الركون .

والوعيد الشديد في قوله تعالى : ﴿ إذاً لأذقناك .. ﴾ لا يدل على سبق وجود جرم وجناية ؛ لأن التهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها ، كما في آيات أخرى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعضَ الأقاويلِ لأخَذْنَا منه باليمينِ ، ثم لقَطَعْنا منه الوتين ﴾ [الحاقة ٦٩/٤٤ ـ ٤٦] . ﴿ لئن أشركتَ لَيحبَطنَّ عملُك ﴾ [الزمر ٣٩/٦٥] . ﴿ ولا تُطعِ الكافرين والمنافقين .. ﴾ [الأحزاب ٣٣/٤٨] .

٣ ـ احتج أهل السنة بقوله تعالى : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ على أنه لاعصمة عن المعاصي إلا بتوفيق الله تعالى ، فالله عاصمه وناصره ومؤيده ومُثبّته .

٤ ـ منع الله أهل مكة من إخراج النبي ﷺ من مكة ، ولو فعلوا ذلك

ما أمهلوا ، ولكن الله منعهم من إخراجه ، حتى أمره الله بالخروج ، ثم إنه قل لبثهم بعد خروج النبي ﷺ من مكة ، حتى قتلوا يوم بدر .

فالأصح الذي عليه المفسرون هو قول قتادة ومجاهد : أن هذه الآية ﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾ نزلت في همّ أهل مكة بإخراج النبي ﷺ ، ولو أخرجوه لما أمهلوا ، ولكن الله أمره بالهجرة فخرج ؛ لأن السورة مكية ، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة . فقوله ﴿ من الأرض ﴾ يريد أرض مكة ، وقوله : ﴿ وكأين من قريةٍ هي أشدُّ قُوَّةً من قريتِك التي أخْرَجَتْك ﴾ [محمد ١٣/٤٧] يعني مكة ، ومعناه : همّ أهلها بإخراجه .

٥ ـ سنة الله الثابتة الدائمة تعذيب كل قوم أخرجوا رسولهم من بلده ، فإذا أخرجوه أهلكوا ودمّروا .

أوامر وتوجيهات وتعليمات للنبي ﷺ

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ
فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ
صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾
وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ
أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا
﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

الإعراب :

﴿ لدلوك الشمس ﴾ اللام لام الوقت والأجل ؛ لأن الوقت سبب الوجوب .

﴿ وقرآن الفجر ﴾ معطوف منصوب على قوله : ﴿ أقم الصلاة ﴾ أي أقم الصلاة وقرآن الفجر ، أو منصوب بفعل مقدّر ، أي واقرؤوا قرآن الفجر .

﴿ مقاماً محموداً ﴾ منصوب على الظرف بإضمار فعله ، أي فيقيمك مقاماً ، أو بتضمين يبعثك معناه ، أو حال أي أن يبعثك ذا مقام .

﴿ ومن الليل ﴾ الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره : قم ، و ﴿ من ﴾ للتبعيض ، والمعنى قم بعض الليل .

البلاغة :

﴿ وقرآن الفجر ﴾ مجاز مرسل من إطلاق الجزء على الكل ، أي قراءة الفجر ، وهي صلاة الفجر ؛ لأن القراءة جزء منها .

﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ إظهار محل الإضمار لمزيد العناية والاهتمام . بعد قوله : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ .

﴿ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ﴾ بينهما مقابلة ، وكذا بين ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان .. وإذا مسّه الشر ﴾ فيه إسناد الخير إلى الله والشر لغيره ، لتعليم الأدب مع الله تعالى .

﴿ من القرآن ﴾ ﴿ من ﴾ : للتبيين أو للتبعيض .

المفردات اللغوية :

﴿ لدلوك الشمس ﴾ هو زوال الشمس عن منتصف كبد السماء نصف النهار ، وتحولها من جهة المشرق إلى جهة المغرب ﴿ إلى غسق الليل ﴾ إقبال ظلمته ، وقدوم سواد الليل وشدة الظلمة ، وهذا يشمل أربع صلوات : الظهر والعصر والمغرب والعشاء ﴿ وقرآن الفجر ﴾ صلاة الصبح ﴿ كان

مشهوداً ﴾ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، أو شواهد القدرة من تبدل بالظلمة الضياء ، وبالنوم اليقظة والحركة ، وبهذا تكون الآية جامعة الصلوات الخمس .

﴿ فتهجد به ﴾ فصل صلاة التهجد ، والضمير للقرآن . والتهجد : ترك الهجود أي النوم للصلاة ، أي الاستيقاظ من النوم للصلاة ﴿ نافلة لك ﴾ فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة ، أو فضيلة لك ، لاختصاص وجوبه بك ، دون أمتك ﴿ أن يبعثك ﴾ يقيمك ﴿ ربك ﴾ في الآخرة ﴿ مقاماً محموداً ﴾ يحمدك فيه الأولون والآخرون ، وهو مقام الشفاعة العظمى في فصل القضاء ؛ لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : « هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي ».

﴿ أدخلني ﴾ المدينة ﴿ مُدْخل صدق ﴾ إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ماأكره ﴿ وأخرجني ﴾ من مكة ﴿ مُخْرج صدق ﴾ إخراجاً لا ألتفت بقلبي إليه ﴿ سلطاناً نصيراً ﴾ قوة تنصرني بها على أعدائك ، والسلطان : الحجة البينة ، والنصير : الناصر والمعين ﴿ وقل ﴾ عند دخولك مكة ﴿ جاء الحق ﴾ الإسلام ﴿ وزهق الباطل ﴾ ذهب أو بطل وزال ، أو اضمحل الشرك والكفر ﴿ زهوقاً ﴾ مضمحلاً زائلاً . روى الشيخان عن ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح ، وفيها ثلاث مئة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بعود في يده ، ويقول ذلك ـ أي ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ ـ حتى سقطت ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من صُفْر ـ نحاس ـ فقال : ياعلي ، ارم به ، فصعد ، فرمى به وكسره .

﴿ وننزل من القرآن ﴾ ﴿ من ﴾ : لبيان الجنس وقيل : للتبعيض ﴿ ماهو شفاء ﴾ من الضلالة ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ به ، والمعنى على أن ﴿ من ﴾ للبيان فإن كله كذلك : ننزل القرآن الذي فيه تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم ، كالدواء الشافي للمرض ، والمعنى على أن ﴿ من ﴾ للتبعيض : أن منه مايشفي من المرض كالفاتحة وآيات الشفاء . ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ ولا يزيد الكافرين إلا خسارة ، لتكذيبهم وكفرهم به .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ بالصحة والسعادة على جنس الإنسان ، وقيل : الكافر ﴿ أعرض ﴾ عن الشكر وعن ذكر الله ﴿ ونأى بجانبه ﴾ لوى جانبه (عِطْفه) عن الطاعة وولاه ظهره متبختراً ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ من مرض أو فقر أو شدة ﴿ كان يؤوساً ﴾ قنوطاً من رحمة الله أو شديد اليأس من روح الله .

﴿ قل : كل ﴾ قل يامحمد : كل منا ومنكم ﴿ يعمل على شاكلته ﴾ مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة ، فالشاكلة : الطبيعة والعادة والدين ﴿ أهدى سبيلاً ﴾ أسدّ طريقاً وأقوم منهجاً ، فيكافئه حسبما يستحق .

﴿ ويسألونك ﴾ أي اليهود ﴿ عن الروح ﴾ أي عن ماهيتها وحقيقتها وهي مايحيى به

البدن ، وهو اسم جنس على الظاهر ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ من أمر ربي ﴾ أي من الإبداعات الكائنة بكن من غير مادة ولا تولد من أصل ، وقيل : مما استأثره الله بعلمه ، لما روي أن اليهود قالوا لقريش : سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح ، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض ، فهو نبي ، فبين لهم القصتين ، وأبهم أمر الروح ، وهو مبهم في التوراة ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ بالنسبة إلى علمه تعالى ، وهو ماتستفيدونه بحواسكم .

سبب النزول :

نزول الآية (٨٠):

﴿ وقل : ربّ أدخلني ﴾ الآية : أخرج الترمذي وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ بمكة ، ثم أمر بالهجرة ، فنزلت عليه : ﴿ وقل : ربّ أدخلني مُدْخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق ... ﴾.

نزول الآية (٨٥) :

﴿ ويسألونك عن الروح ﴾: أخرج البخاري عن ابن مسعود قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة ، وهو متوكئ على عسيب ، فمر بنفر من قريش ، فقال بعضهم : لو سألتموه ، فقالوا : حَدِّثنا عن الروح ، فقام ساعة ، ورفع رأسه ، فعرفت أنه يوحى إليه ، حتى صعد الوحي ، ثم قال : ﴿ الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

وأخرج الترمذي عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : علمونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه ، فأنزل الله : ﴿ ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربي ﴾ لكن حديث البخاري يدل على أن الآية مدنية ، مع أن السورة كلها مكية ، وأن سؤال قريش يدل على أنها مكية .

قال ابن كثير : يجمع بين الحديثين بتعدد النزول ، أي قد تكون نزلت عليه

بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهي آية : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾[1] . وكذا قال الحافظ ابن حجر . قال السيوطي : أو يحمل سكوته حين سؤال اليهود على توقع مزيد بيان في ذلك ، وإلا فما في الصحيح أصح ، ويرجح ما في الصحيح بأن راويه حاضر القصة ، بخلاف ابن عباس .

والحقيقة ، كما سنذكر في سبب نزول قصة أصحاب الكهف أن النفر من قريش قدموا إلى المدينة ، واستشاروا اليهود ، كما ذكر ابن إسحاق ، وتظل الآية مكية .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى كيد الكفار واستفزازهم للرسول ﷺ ، وما كانوا يرومون به ، أمره تعالى بالإقبال على عبادة ربه ، وألا يشغل قلبه بهم . وقد تقدم القول في الإلهيات والمعاد والنبوات ، فأردف ذلك بالأمر بأشرف العبادات والطاعات بعد الإيمان ، وهي الصلاة .

ثم وعده ربه في الآخرة بالمقام المحمود وهو الشفاعة العظمى باتفاق المفسرين ، ولما أمره تعالى بإقامة الصلاة والتهجد ووعده بالمقام المحمود ، أمره بأن يدعوه بما يشمل الأمور الدينية والأخروية بقوله : ﴿ وقل : ربِّ أدخلني ... ﴾ والظاهر ـ كما قال أبو حيان ـ أنه عام في جميع موارده ومصادره دنيوية وأخروية . والصدق هنا : لفظ يقتضي رفع المذامّ ، واستيعاب المدح .

ثم أبان الله تعالى أن ما أنزل عليه من القرآن فيه شفاء النفوس والقلوب من الداء الحسي والمعنوي وهو مرض الاعتقاد ، ثم عرّض بما أنعم به ، وما حواه من

---

(١) تفسير ابن كثير : ٦٠/٣

لطائف الشرائع على الإنسان ، وإعراضه عنه تكبراً ، ثم رد على اليهود والمشركين المعرضين عن الإيمان ، السائلين عن الروح تعنتاً وتعجيزاً .

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ في الآية الأولى بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها ، والمعنى : أيها الرسول ، أدّ الصلاة المفروضة عليك وعلى أمتك تامة الأركان والشروط ، من بعد زوال الشمس إلى ظلمة الليل ، وذلك يشمل الصلوات الأربعة : الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء . والدلوك : ميل الشمس وزوالها عن كبد السماء ووسطها وقت الظهر . وإنما وجه الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته أيضاً لمكانة المأمور به وهو الصلاة .

﴿ وقرآن الفجر ﴾ أي وأقم صلاة الفجر ، وتلك هي الصلاة الخامسة . وقد أبانت السنة المتواترة من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله مقادير أوقات الصلاة بدءاً وانتهاءً ، على النحو المعروف اليوم .

﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ أي إن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل والنهار ، ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء في وقت تبادل المهام والوظائف . وسميت صلاة الصبح قرآناً وهو القراءة ؛ لأنها ركن ، كما سميت الصلاة ركوعاً وسجوداً وقنوتاً . ويجوز أن يكون ﴿ وقرآن الفجر ﴾ حثاً على طول القراءة في صلاة الفجر ، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة[1] .

روى أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ».

---

(١) الكشاف : ٢٤٣/٢

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً عن النبي ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح ، وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون ».

وقال عبد الله بن مسعود : يجتمع الحرسان في صلاة الفجر ، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء .

وقد يكون المراد بقوله ﴿ مشهوداً ﴾ الترغيب في أن تؤدى هذه الصلاة بجماعة ، والمعنى كونها مشهودة بالجماعة الكثيرة ، أو شهود كمال قدرة الله تعالى ، من اختلاط الظلمة بالضوء ، والظلمة مناسبة للموت والعدم ، والضوء مناسب للحياة والوجود ، وينتقل العالم من الظلمة إلى الضوء ، ومن الموت بالمنام إلى الحياة ، ومن السكون إلى الحركة ، ومن العدم إلى الوجود[1] .

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ هذا فرض آخر خاص بالنبي ﷺ وهو صلاة التهجد ، والمعنى : قم للصلاة في جزء من الليل وهو أول أمر للنبي ﷺ بقيام الليل ، زيادة على الصلوات المفروضة (المكتوبة). روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل : أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « صلاة الليل » ولهذا أمر الله تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد : ما كان بعد نوم . وثبت عن جماعة من الصحابة أن النبي ﷺ كان يتهجد بعد نومه .

وقوله ﴿ نافلة لك ﴾ أي عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس ، مخصوصة بك دون الأمة ، وهي فريضة عليك خاصة ، دون غيرك ، وأما أمتك فهي لهم مندوبة أو تطوع لهم . وهذا هو الراجح . وقيل : المراد أن قيام الليل في

(١) تفسير الرازي : ٢٨/٢١

حقه ﷺ نافلة على الخصوص ؛ لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، وأما غيره من أمته فإن النوافل تُكفِّر ذنوبهم . ورد ابن جرير هذا القول ؛ لأنه ﷺ كان مأموراً بالاستغفار ﴿ واستغفره إنه كان تواباً ﴾ [النصر ٢/١١٠] وكان ﷺ يزيد في الاستغفار في اليوم على مئة مرة ، وكلما اشتد قرب العبد من ربه ، كلما زاد خوفه منه ، وإن كان السيد قد أمَّنه ، وذلك مقام يعرفه أهله .

﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به ، لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمدك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم تبارك وتعالى ، كما قال ابن كثير .

وأجمع المفسرون ـ كما ذكر الواحدي ـ على أنه مقام الشفاعة العظمى في إسقاط العقاب . وهو ـ كما ذكر ابن جرير ـ مقام النبي ﷺ يوم القيامة للشفاعة بالناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة ذلك اليوم .

وكلمة ﴿ عسى ﴾ في كلام العرب تفيد التوقع ، وهي هنا للوجوب ؛ لأنها تفيد الإطماع ، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه ، كان غارّاً ، وهذا المعنى مستحيل على الله تعالى ، فهذه الكلمة من الكريم إطماع محقق الوقوع ، وهي من الله باتفاق المفسرين واجب .

والمقام المحمود : هو المكان المرموق ، والمركز المعلوم المعدّ للنبي ﷺ ، وهو كما بينا مقام الشفاعة التي يتخلى عنها كل نبي ورسول ، أما الرسول ﷺ فيقول : « أنا لها أنا لها » ، فيشفع بالخلق جميعاً لتقديمهم للحساب ، وتخليصهم من وهج الشمس الشديد التي تدنو من الرؤوس ، ويتمنون الانصراف ولو إلى النار .

روى مسلم بسنده عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : « هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه ».

وروى النسائي والحاكم عن حذيفة رضي الله عنه قال : « يجمع الله الناس في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، حُفَاة عُراةً كما خلقوا ، قياماً لا تَكلّم نفس إلا بإذنه ، فينادِي : يا محمد ، فيقول : لبّيك وسَعْديك ، والخيرُ في يديك ، والشر ليس إليك ، والمهديُّ : من هَديتَ ، وعبدُك بين يديك ، وبك وإليك ، لا ملجأ ولا مَنْجى منك إلا إليك ، تباركتَ وتعاليتَ ، سبحانك ربَّ البيت ، فهذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجل ».

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة ».

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ، غير فخر ».

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وبمناسبة أمر النبي ﷺ بالهجرة أنزل الله : ﴿ وقل : ربِّ أدخلني مدخل صدق ... ﴾ أي وقل يا محمد داعياً : ربِّ أدخلني في الدنيا والآخرة إدخالاً مرضياً حسناً ، لا يكره فيه ما يكره ، يوصف صاحبه بأنه صادق في قوله وفعله ، وأخرجني إخراجاً مرضياً حسناً ، مكللاً بالكرامة ، آمناً من السخط ، يستحق الخارج منه أن يوصف بأنه صادق .

وهذا يشمل كل مدخل للنبي وكل مخرج كدخوله المدينة وخروجه من مكة ، ودخوله القبر وخروجه منه للبعث ، ودخوله مكة فاتحاً وخروجه منها آمناً .

وخصص بعضهم الآية بأنها نزلت حين أمر النبي ﷺ بالهجرة ، يريد إدخال

المدينة والإخراج من مكة ، أو إدخاله مكة منتصراً فاتحاً وإخراجه منها آمناً من المشركين .

﴿ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ أي واجعل لي حجة بينة تنصرني على من خالفني ، أو ملكاً وعزاً قوياً ، ناصراً للإسلام على الكفر ، ومظهراً له عليه ، قال الحسن البصري : وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس ، وليجعلنه له ، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له .

وقد أنجز له وعده ، وأجيبت دعوته ، فتحقق له العصمة الشخصية : ﴿ واللهُ يَعْصِمُك من الناسِ ﴾ [المائدة ٦٧/٥] وانتشار الإسلام وتفوقه على الأديان كلها : ﴿ ليُظْهِرَه على الدِّين كلِّه ﴾ [التوبة ٣٣/٩] وانتصار الدولة والملك : ﴿ فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُون ﴾ [المائدة ٥٦/٥] ﴿ ليستخلفنَّهم في الأرضِ ﴾ [النور ٥٥/٢٤] .

وطلبه السلطة والملك ليس لشهوة السلطة وإنما لحماية حرمات الإسلام ؛ لأنه لابد للحق من قهر لمن عاداه وناواه ، وناصر وحامٍ له ، لذا قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلَنا بالبيِّنات ، وأَنْزلنَا معهم الكتابَ والميزانَ ليقوم الناسُ بالقِسْطِ ، وأنزلنَا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناسِ ... ﴾ الآية [الحديد ٢٥/٤٧] فقرن الله بين الرسالة والبيان وبين الحديد والقوة ، وفي الأثر عن عثمان : « إن الله لَيَزَعُ بالسلطان مالا يَزَعُ بالقرآن » أي لمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام مالا يمتنع كثير من الناس بالقرآن ومافيه من الوعد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع .

ثم هدد كفار قريش وأوعدهم بقوله : ﴿ وقل : جاء الحق وزهق الباطل ﴾ أي وقل للمشركين : جاء الحق من الله الذي لامرية فيه ، وهو الإسلام ، ومابعثه الله به من القرآن والإيمان ، والعلم النافع ، واضمحل وهلك الباطل وهو الشرك ،

فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ، كما قال تعالى : ﴿ بل نَقْذِفُ بالحقّ على الباطلِ ، فيدمَغُه ، فإذا هو زاهقٌ ﴾ [الأنبياء ١٨/٢١] .

﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ أي إن الباطل كان مضمحلاً لا قرار له ، غير ثابت في كل وقت .

وقد تلا النبي ﷺ هذه الآية حين كسر الأصنام ، وهو يفتح مكة .

روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود ، قال : دخل النبي ﷺ مكة ، وحول البيت ستون وثلاث مئة نصب ، فجعل يطعنها بعود في يده ، ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ، ﴿ جاء الحق ، وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾ [سبأ ٤٩/٣٤] . وقال الحافظ أبو يعلى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة ، وحول البيت ثلاث مئة وستون صنماً تُعبد من دون الله ، فأمر بها رسول الله ﷺ ، فأُكبّت على وجوهها ، وقال : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ .

ثم أخبر الله عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ أنه شفاء ورحمة ، فقال : ﴿ وننزّلُ من القرآنِ ماهو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ﴾ أي وننزل عليك أيها النبي قرآناً فيه شفاء ، فكل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين ، يزدادون به إيماناً ، ويستصلحون به دينهم ، فهو يذهب مافي القلوب من أمراض الشك والنفاق ، والشرك والزيغ والإلحاد ، والجهل والضلالة ، فالقرآن يشفي من ذلك كله ؛ وهو أيضاً رحمة لمن آمن به وصدقه واتبعه ؛ لأنه يرشد إلى الإيمان والحكمة والخير ، فيؤدي إلى دخول الجنة والنجاة من العذاب ، وعن النبي ﷺ فيما رواه الديلمي في الفردوس : « من لم يستشف بالقرآن ، فلا شفاه الله ».

﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ أي لا يزيد سماع القرآن الكافر الظالم نفسه إلا بعداً عن الإيمان وكفراً بالله ؛ لتأصل الكفر في نفسه .

ونظير الآية : ﴿ قل : هُو للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ ، والـذين لا يُؤمنون في آذانهم وَقْرٌ ، وهو عليهم عمىً ، أولئـك يُنـادَون من مكانٍ بعيـدٍ ﴾ [فصلت ٤٤/٤١] وأيضاً قوله سبحانه : ﴿ فأما الـذين آمنوا فزادَتْهُم إيمـاناً وهم يَسْتبْشرون . وأمـا الـذين في قلـوبهم مرضٌ ، فـزادتهم رِجْسـاً إلى رِجْسهم ، ومـاتُـوا وهم كافِرُون ﴾ [التوبة ١٢٤/٩ـ١٢٥] .

قال قتادة : إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ أي لا ينتفع به ولا يحفظـه ولا يعيـه ، فـإن الله جعل هـذا القرآن شفـاء ورحمة للمؤمنين .

ثم يخبر الله تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو ، إلا من عصمه الله فقـال : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ أي وإذا أمددنا الإنسان بنعمـة من مال وعافية ورزق ونصر ونال مـا يريـد ، أعرض عن طـاعـة الله وعبـادتـه ، ونأى بجانبه ، وهذا تأكيـد للإعراض ؛ لأن الإعراض : التولي بـالوجـه ، والنـأي بالجانب : لوي الجانب وتولية الظهر ، والمراد بذلـك الاستكبـار والتبـاعـد ؛ لأن ذلك عادة المتكبرين .

﴿ وإذا مسّه الشر كان يئـوسـاً ﴾ أي وإذا أصـابـه الشر وهـو المصـائب والحوادث ، كان يئوساً قنوطاً من رحمة الله ومن الخير بعدئـذ . والآيـة مثل قولـه تعالى : ﴿ وإذا مسّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنـه ضُرَّه ، مرّ كأن لم يدعنا إلى ضُرّ مسّه ، كـذلـك زُيِّن للمسرفين مـا كانوا يَعْملون ﴾ [يونس ١٢/١٠] . وقوله سبحانه : ﴿ ولئن أذَقْنَا الإنسـانَ منـا رحمـةً ، ثم نَزَعْنَـاهـا منـه ، إنـه ليئوسٌ كَفُـورٌ . ولئن أذقنـاه نعماءَ بعـد ضرّاءَ مسّتـه ، ليقـولَنَّ : ذَهَبَ السيئاتُ عني ، إنه لفرِحٌ فخورٌ ﴾ [هود ٩/١١ـ١٠] .

﴿ قل : كلٌّ يعمل على شاكلته ﴾ قل يا محمـد : كل أحـد يعمل على مـذهبـه وطريقته التي تشاكل وتشبه حاله من الهدى والضلالة .

﴿ فربُّكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾ أي فالله ربكم الذي ربّاكم وأوجدكم وأنعم عليكم أعلم من كل أحد بمن هو أسدّ مذهباً وأوضح طريقاً واتباعاً للحق ، وسيجزي كل عامل بعمله . وفي الآية تهديد ووعيد للمشركين .

والآية مثل قوله تعالى : ﴿ وقلْ للذين لا يُؤمنون : اعْمَلوا على مكانتِكم إنا عَاملون ، وانْتَظروا إنا مُنْتظرون ﴾ [هود ١١/١٢١ ـ ١٢٢] .

﴿ ويسألونك عن الروح ... ﴾ أي ويسألك المشركون عن حقيقة الروح التي تحيي بها الأبدان ، فقل : الروح من شأن ربي ، يحدث بتكوينه وإيجاده ، وقد استأثر بعلمه ، فلا يعلمه إلا هو ، ولا يستطيعه إلا هو ، وما أوتيتم أيها الناس من العلوم والمعارف إلا علماً قليلاً ، مصدره إحساس الحواس وملاحظة المرئيات ، أما ما وراء ذلك فلا قدرة لكم عليه ، ولا اطلاع لأحد على حقيقته .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ دلت آية ﴿ أقم الصلاة ... ﴾ على فرضية الصلوات الخمس المفروضة ، وعلى أوقاتها في الجملة التي فصلتها وحددتها السنة النبوية .

٢ ـ في قوله : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ فوائد وهي أن الصلاة لا تتم إلا بالقراءة ، ووجوب إقامة صلاة الفجر من أول طلوعه . وأبانت السنة أن تكون القراءة في هذه الصلاة أطول من القراءة في سائر الصلوات ، فالمقصود من قوله : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ الحث على تطويل القراءة فيها ، ووصف قرآن الفجر بأنه مشهود معناه أن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح خلف الإمام ، وهو دليل قوي على أن التغليس (الصلاة وقت الظلمة) أفضل ، وهذا قول مالك والشافعي .

وقال أبو حنيفة : الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار ، فإن فاته ذلك فالإسفار أولى من التغليس .

واجتماع ملائكة الليل والنهار في صلاة الصبح وكذا في صلاة العصر ، كما جاء في الحديث المتقدم لا يعني أن هاتين الصلاتين ليستا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار ، كما فهم بعض العلماء ، وإنما هما من النهار ، بدليل الصيام فيه .

٣ ـ كانت صلاة التهجد (قيام الليل) مطلوبة من النبي ﷺ نافلة زيادة وكرامة له ، واختلف العلماء في تخصيص النبي ﷺ بالذكر دون أمته ، فقال جماعة : كانت صلاة الليل فريضة واجبة عليه ؛ لقوله ﴿ نافلة لك ﴾ أي فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة ، ثم نسخت ، فصارت نافلة ، أي تطوعاً وزيادة على الفرائض .

وقال آخرون : صلاة الليل تطوع في حق النبي ﷺ وفي حق أمته ، فيكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ، ويكون الخطاب للنبي ﷺ ؛ لأنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكل طاعة يأتي بها سوى المكتوبة تكون زيادة في الدرجات ، وأما غيره من الأمة فتطوعهم كفارات لذنوبهم ، وتدارك الخلل الذي يقع في الفرض .

٤ ـ للنبي ﷺ المقام المحمود وهو الشفاعة العظمى للناس يوم القيامة ، ولأجل ذلك قال فيما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر » قال النقاش : لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات : العامة ، وشفاعة في السبق إلى الجنة ، وشفاعة في أهل الكبائر .

وقال ابن عطية : والمشهور أنها شفاعتان فقط : العامة ، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار . وهذه الشفاعة الثانية ثابتة أيضاً للأنبياء وللعلماء . وذكر أبو الفضل عياض خمس شفاعات : العامة ، ولإدخال قوم الجنة دون حساب ، ولإخراج عصاة الأمة من النار ، وللحيلولة دون إدخال بعض المذنبين من

موحِّدي الأمة النار ، ولزيادة الدرجات في الجنة لأهلها .

وقال القاضي عياض : وعرف بالنقل المستفيض سؤال السلف الصالح لشفاعة النبي ﷺ ورغبتهم فيها ، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال : إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبي ﷺ ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين ، فإنها قد تكون كما قدمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات .

ومع الشفاعة لواء الحمد ، روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي » .

٥ ـ وللنبي ﷺ المقام السامي المرضي الحسن في الدنيا والآخرة ، فيشمل كل دخول وخروج كإدخاله المدينة مهاجراً ، ومكة فاتحاً ، وفي القبر مغفوراً له آمناً ، وإخراجه من مكة مهاجراً ، وإخراجه من القبر للبعث مطمئناً موصوفاً بالصدق .

٦ ـ ومن خصائص النبي عليه الصلاة والسلام قوة الحجة ، والسلطان والقهر والقدرة والعصمة من الناس ، فكانت له حجة بينة ظاهرة ينتصر بها على جميع من خالفه ، ورزقه الله السلطة والتفوق والنصر على أعدائه ، وأظهر دينه على الدين كله أي على الأديان والشرائع ، وعصمه من أذى الناس ومكرهم .

٧ ـ أيد الله تعالى نبيه ﷺ بما أنزله عليه من القرآن والإيمان والحق الذي لا مرية ولا جدال فيه ، فبه جاء الحق ، وهو الإسلام والقرآن ، واضمحل الباطل وهو الشرك والشيطان .

٨ ـ في آية ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ دليل على كسر نُصُب المشركين والأصنام وجميع الأوثان . قال القرطبي : ويدخل بالمعنى : كسر آلة الباطل

ومالا يصلح إلا لمعصية الله ، كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى[١] .

قال ابن المنذر : وفي معنى الأصنام الصُّوَر المتخذة من المَدَر (الطين المتحجر) والخشب وشبهها ، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهي عنه . ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص ، إذا غُيِّرت عما هي عليه وصارت سبيكة أو قطعاً ، فيجوز بيعها والشراء بها .

٩ ـ القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد سماعه الكافرين الظالمين أنفسهم إلا خساراً لتكذيبهم وزيادتهم غيظاً وغضباً وحقداً وحسداً . قال قتادة : ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ، ثم قرأ : ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ الآية .

وللعلماء قولان في كونه شفاء :

أحدهما ـ أنه شفاء للقلوب : بزوال الجهل عنها وإزالة الرَّيب ، وكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى .

الثاني ـ شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه .

وقد أقر النبي ﷺ ـ فيما رواه الأئمة ـ الاستشفاء بالقرآن ، والرقية بالفاتحة بقراءتها سبع مرات على لديغ ، وإعطاء قارئها عوضاً عن الرقية ثلاثين شاة . وأجاز سعيد بن المسيب ما يسمى بالنُّشرة : وهي أن يكتب شيئاً من أسماء الله تعالى ، أو من القرآن ، ثم يغسله بالماء ، ثم يمسح به المريض ، أو يسقيه .

وقال الإمام مالك : لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عزَّ وجلّ على

(١) تفسير القرطبي : ٢١٤/١٠

أعناق المرضى على وجه التبرك بها ، إذا لم يُرِد معلّقها بتعليقها مدافعة العين ، أي قبل أن ينزل به شيء من العين . ووافقه على ذلك جماعة من أهل العلم .

وكره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال ، قبل نزول البلاء وبعده . قال القرطبي : والقول الأول أصح في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى .

وعلى كل حال ، إن الفاعل الحقيقي المؤثر هو الله تعالى ، أما الأدعية المأثورة ، وتلاوة آيات الشفاء ، والفاتحة والمعوذات وغير ذلك فهي من وسائل الفرج والبرء بإذن الله تعالى ، بشرط تعظيم القرآن في الصدور ، والإيمان الصادق به ، والبعد عما لا يتناسب مع تعظيم آيات الله تعالى . ولا يعني هذا الاكتفاء بالرقى عن المداواة والعلاج بالأدوية الناجعة ، فذلك كله من الوسائل التي أذن الشرع بها ، بل وأوجبها لصيانة حق الحياة . أما ما يفعله بعض العوام من إهمال علاج المريض المحموم أو المبتلى بداء خطير مثلاً ، اعتماداً على مجرد التلاوة لشيء من القرآن أو التميمة ، فهذا جهل بحقائق الدين ، وإهدار لقدسية العلم الذي عظمه الله ، ورفع شأن علمائه وأتباعه .

وأما ما روي عن ابن مسعود : « إن التمائم والرقى والتِّوَلَة من الشرك ، قيل : ما التِّوَلَة ؟ قال : ما تحبَّبت به لزوجها » فيجوز أن يريد بما ذكره تعليق غير القرآن أشياء مأخوذة عن العرّافين والكُهّان ؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلّقاً وغير معلّق لا يكون شِرْكاً .

١٠ ـ إن هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خساراً صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه . وكذلك شأن الإنسان عموماً النسيان وكفران النعم إلا من عصمه الله ، فتراه إذا كان منعماً مترفاً بَعُد عن القيام بحقوق الله عزّ وجلّ ، وإذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط ؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى .

١١ ـ إذا أفلس نداء العقل والقلب والوجدان ، لتعطيل الفكر والبصر

بآيات الله كالمشركين ، فلم يبق معهم إلا التهديد والوعيد ، وإهمال هؤلاء المعطلين عقولهم ، وتركهم يعملون على شاكلتهم من الهدى والضلال وما هو الأولى بالصواب في اعتقادهم . والله تعالى أعلم بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره ، فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى : ﴿ قل كلٌ يعمل على شاكلته ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران .

١٢ ـ سأل المشركون عن الروح الذي هو سبب الحياة ، فأجابهم القرآن جواباً مبهماً يدل على أن خلق الروح من الله ، وهو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى ، تاركاً تفصيله ، ليعرف الإنسان يقيناً عجزه عن علم حقيقة نفسه ، مع العلم بوجودها ، وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه جاهلاً حقيقتها ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى ، وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك ومعرفة مخلوق مجاور له ، للدلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز ، وبذلك ثبت أن أكثر الماهيات والحقائق مجهولة للإنسان ، ولكن لا يلزم من كونها مجهولة نفيها .

وأما حقيقة الروح فللعلماء فيها قولان :

القول الأول للرازي وابن القيم في كتاب الروح : إن الروح جوهر بسيط مجرد ، وجسم نوراني مخالف بطبعه للجسم المحسوس ، سار فيه سريان الماء في الورد ، لا يحدث إلا بمحدث ، وهو قوله تعالى : ﴿ كن فيكون ﴾ .

والقول الثاني للغزالي وأبي القاسم الراغب الأصفهاني : الروح ليس بجسم ولا جسماني ، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف .

١٣ ـ لم يؤت العالَم كله من العلم إلا القليل ، ويظل الكثير مختصاً بعلم الله تعالى ، قال القرطبي : والصحيح أن المراد بالخطاب في قوله تعالى :

﴿ وما أوتيتم ﴾ العالَم كله ، وليس المراد : السائلين فقط ، أو اليهود بجملتهم ، كما قال بعضهم .

فالله تعالى لم يطلع الناس من علمه إلا على القليل ، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى . والخلاصة : أن علم الناس في علم الله قليل ، والذي يسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى .

إعجاز القرآن

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

الإعراب :

﴿ ولئن شئنا ﴾ اللام لام القسم ، أو الموطئة للقسم ، و ﴿ لنذهبن ﴾ : جوابه النائب مناب جواب الشرط ، أي إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور .

﴿ لئن اجتمعت ﴾ اللام لام القسم أو الموطئة للقسم ، وإن : حرف شرط ، وجوابه محذوف قام مقامه قوله : ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ وليس هذا جواباً للشرط ، لإثبات نون ﴿ يأتون ﴾ وإنما هو جواب قسم مقدر هيأته لام ﴿ لئن ﴾ . والتقدير : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فوالله لا يأتون بمثله .

﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ الاستثناء منقطع ، أي لكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، ويجوز أن يكون متصلاً .

المفردات اللغوية :

﴿ ولئن شئنا لنذهبن ﴾ أي إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور ﴿ وكيلاً ﴾ يتوكل ويلتزم استرداده محفوظاً مسطوراً ، بعد الذهاب به ﴿ إلا رحمة ﴾ استثناء متصل ، أي إلا إن نالتك رحمة الله ، فلعلها تسترده عليك ، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً بمعنى : لكن رحمة من ربك أبقيناه ، فيكون ذلك امتناناً بإبقائه بعد المنة في تنزيله ﴿ إن فضله كان عليك كبيراً ﴾ عظيماً ، بإبقائه في حفظه ، كإرساله وإنزاله ، وكذلك بإعطائك المقام المحمود ، وغير ذلك من الفضائل .

﴿ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾ في الفصاحة والبلاغة ، وحسن النظم ، وكمال المعنى ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ وفيهم العرب العرباء ، وأرباب البيان ، وأهل النثر والنظم . وهو جواب قسم محذوف ، دل عليه اللام الموطئة للقسم . ﴿ ظهيراً ﴾ معيناً في تحقيق المراد . وهو رد لقولهم : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال ٣١/٨] .

﴿ صرَّفنا ﴾ بينا ، وكررنا ورددنا بوجوه مختلفة ، زيادة في التقرير والبيان . ﴿ من كل مَثَل ﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه موقعاً في الأنفس أو هو صفة لمحذوف أي مثلاً من جنس كل مثل ، ليتعظوا ﴿ أكثر الناس ﴾ أهل مكة وغيرهم ﴿ إلا كفوراً ﴾ جحوداً للحق .

سبب النزول : نزول الآية (٨٨) :

﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن ..﴾ الآية : أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس قال : أتى النبي ﷺ سلام بن مشكم في عامة من يهود سماهم ، فقالوا : كيف نتّبعك وقد تركت قبلتنا ؟ وإن هذا الذي جئت به ، لا نراه متناسقاً ، كما تناسق التوراة ، فأنزل علينا كتاباً نعرفه ، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به ، فأنزل الله : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ﴾ الآية .

المناسبة :

بعد أن امتن الله تعالى على نبيه ﷺ بالنبوة وبإنزال وحيه عليه ، وبتنزيل القرآن شفاء للناس ، امتن عليه أيضاً ببقاء القرآن محفوظاً ، رحمة بالناس ، وذكّر

ما منحه تعالى من الدليل على نبوته الباقي بقاء الدهر ، وهو القرآن الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله ، مع اشتماله على أصح القواعد ، وأقوم الحِكَم والأحكام والآداب المفيدة للدنيا والآخرة ، بل إن فصحاء اللسان الذي نزل به ، وبلغاءهم عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة مثله ، ولو تعاون الثقلان عليه . ويحتمل اندراج الملائكة تحت لفظ (الجن) لأنه قد يطلق عليهم هذا الاسم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجَعَلُوا بينَه وبين الجِنَّة نَسَباً ﴾ [الصافات ١٥٨/٣٧] وإن كان الأكثر استعماله في غير الملائكة من الأشكال الجنية المستترين عن أبصار الإنس .

التفسير والبيان :

بعد أن ذكر الله تعالى أنه ما آتى الناس من العلم إلا قليلاً ، أبان أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل ، فقال :

﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ أي ولو شاء ربك لذهب بهذا القليل ، وسلب هذا القرآن الذي أوحينا به إليك يامحمد من الصدور والمصاحف ، ولم نترك له أثراً ، فهو تعالى قادر على أن يمحو حفظه من القلوب ، وكتابته من الكتب .

﴿ ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً ﴾ أي ثم لا تجد بعدئذ من تتوكل عليه وتستنصر به في رد شيء منه وإعادته محفوظاً .

أخرج الحاكم والبيهقي والطبراني وسعيد بن منصور عن ابن مسعود قال : « إن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن يُنزع منكم ، قيل : كيف ينزع منا ، وقد أثبته الله في قلوبنا ، وثبتناه في مصاحفنا ؟! قال : يُسْرَى عليه في ليلة واحدة ، فينزع مافي القلوب ، ويذهب مافي المصاحف ، ويصبح الناس منه فقراء » ثم قرأ : ﴿ ولئن شئنا لنذهَبَنَّ بالذي أوحينا إليك ﴾ .

﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ أي إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك ، ويجوز أن

يكون الاستثناء منقطعاً ، بمعنى : ولكن رحمة من ربك تركته ولم أذهب به ، قال الرازي : وهذا امتنان من الله تعالى على جميع العلماء ببقاء القرآن بنوعين من المنة : أحدهما ـ تسهيل ذلك العلم عليهم . والثاني ـ إبقاء حفظه لهم[1] .

﴿ إن فضله كان عليك كبيراً ﴾ أي إن فضل الله عليك أيها الرسول عظيم وكبير بإرسالك للناس بشيراً ونذيراً ، وبإنزال القرآن عليك وبحفظه في صدرك وفي المصاحف ، وبحفظ أتباعك ، وبسبب جعلك سيد ولد آدم ، وختم النبيين بك ، وإعطائك المقام المحمود .

والخلاصة : إن الله تعالى يذكر في هذه الآية نعمته وفضله على عبده ورسوله الكريم فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وأما بقية النعم والأفضال فهي تبع لذلك ، فالقرآن الكريم مصدر العلوم والمعارف ، ومنبع الحضارات والثقافات التي ظهرت في ربوع المسلمين .

ثم نبه الله تعالى على شرف هذا القرآن العظيم وأهميته وخطورته ، فقال : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن ..﴾ قل يا محمد متحدياً : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا وتعاونوا وتظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن المنزل ، في بلاغته ، وحسن نظمه وبيانه ، ومعانيه وأحكامه ، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان والفصاحة ، لعجزوا عن الإتيان بمثله ، حتى ولو كان الجميع متعاونين متآزرين فيما بينهم لتلك الغاية ، فإن هذا أمر غير مستطاع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثيل ؟!

ثم أبان تعالى مضمون القرآن ، فقال :

---

(١) تفسير الرازي : ٢١/٥٣ـ٥٤ ، وقال في الكشاف (٢/٢٤٥) : وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً ، بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه .

﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي لقد بينا للناس ، ورددنا البيان وكررناه على وجوه مختلفة ، وألوان متعددة ، وعبارات متنوعة ، مرة بالإيجاز ، وأخرى بالإطناب ، وذكرنا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، وأوضحنا الحق وشرحناه ، وأتينا بالآيات والعبر ، والترغيب والترهيب ، والأوامر والنواهي ، والحِكَم والتشريع ، وقصص الأولين ، والجنة والنار والقيامة ، للعظة والعبرة .

فقوله ﴿ من كل مثل ﴾ أي من كل معنى ، هو كالمثل في غرابته وحسنه ومع ذلك ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ أي فأبى أكثر الناس ، أي أهل مكة وأمثالهم إلا جحوداً وإنكاراً للحق ، ورداً للصواب ، وبقاء على الكفر .

فقه الحياة أو الأحكام :

تبين الآيات مدى فضل الله ونعمته على نبيه بإنزال القرآن عليه وحفظه في صدره وتثبيته في المصاحف ، وانتفاع أمته به إلى يوم القيامة . وكما أن الله قادر على إنزاله ، قادر على إذهابه حتى ينساه الخلق ، ولكن لم يشأ الله ذلك رحمة منه بعباده .

ومن فضل الله على نبيه أيضاً أن جعله سيد ولد آدم ، وأعطاه المقام المحمود ، كما أعطاه الكتاب العزيز .

والقرآن هو المعجزة الباقية ، والحجة الدائمة التي تحدى الله بها العرب كلهم ، فعجزوا عن الإتيان بمثله ، وهم فرسان الفصاحة ، وأئمة البلاغة والبيان ، ولم تنقصهم ثقافة الحياة بدليل المأثور عنهم في الجاهلية من الحكم والمعاني والقيم الإنسانية في النثر والخطابة والشعر .

فوالله لئن تعاونوا مع البشر قاطبة ومع الجن ، وكان بعضهم لبعض معيناً ونصيراً ، كما يتعاون الشعراء على بيت شعر ، لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن ،

وهذا تكذيب للكفار حين قالوا : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال ٨/٣١] .

فظل القرآن هو المعجزة الباقية الناطقة بأنه من عند الله تعالى ، وأنه وحي منه لرسوله ﷺ ، وأنه حجة الله على خلقه إلى يوم القيامة ، فمن آمن به نجا ، ومن كفر به خسر وهلك .

وكان بيان القرآن شاملاً لكل شيء من شؤون الحياة ، شافياً بلسم كل معذب ومحروم ، موضحاً كل ما يحتاجه البشر من قضايا الدين والدنيا والآخرة ، مبيناً الحق الأبلج ، فأبى أهل مكة وأشباههم إلا الكفر بعد بيان الحق وتمييزه من الباطل ، مع قدرتهم على طلب الحق ومعرفة الصواب .

اقتراح المشركين إنزال إحدى آيات ست

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

الإعراب :

﴿ كِسَفاً ﴾ جمع كِسْفة ، جمع تكسير ، نحو كِسْرة وكِسَر ، وقطعة وقطع ، وسِدْرة وسِدَر .

وقرئ ﴿ كِسْفاً ﴾ فهو اسم جنس كثمرة وثَمَر ، ودُرَّة ودُرّ ، وبرّة وبُرّ ، ونحو ذلك مما يفرق بين واحده وجمعه التاء .

﴿ قبيلاً ﴾ مقابلاً فهو حال من الله ، وحال الملائكة محذوفة ، لدلالتها عليها ، فإن كان بمعنى جماعة فيكون حالاً من الملائكة .

البلاغة :

﴿ تفجيراً ﴾ ﴿ رسولاً ﴾ سجع .

المفردات اللغوية :

﴿ تَفْجُر ﴾ تجريها بقوة ﴿ يَنْبوعاً ﴾ عيناً ينبع منها الماء دون أن ينضب ﴿ جَنَّة ﴾ بستان تغطي أشجاره الأرض ﴿ خلالها ﴾ وسطها ﴿ كِسَفاً ﴾ جمع كِسْفة ، كقطع وقطعة ، لفظاً ومعنى ﴿ قبيلاً ﴾ مقابلة وعياناً ، والمراد رؤيتهم عياناً ، أو جماعة فيكون حالاً من الملائكة .

﴿ زخرف ﴾ ذهب ، وأصله : الزينة ﴿ ترقى ﴾ تصعد ﴿ في السماء ﴾ على السلم ﴿ ولن نؤمن لرقيك ﴾ لو رقيت فيها ﴿ حتى تنزل علينا ﴾ منها ﴿ كتاباً ﴾ فيه تصديقك ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ سبحان ربي ﴾ تعجب ﴿ هل ﴾ ما ﴿ كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ كسائر الرسل ، فهم لم يكونوا يأتون بآية إلا بإذن الله تعالى .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير عن ابن عباس : أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة ، فقالوا : ابعثوا إلى محمد ، فكلّموه وخاصموه ، حتى تُعْذَروا فيه ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك ، فجاءهم سريعاً ـ وكان حريصاً على رُشدهم ـ فقالوا :

ـ يامحمد ، إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك ، لقد شتمتَ الآباء ، وعبتَ الدين ، وسَفَّهت الأحلام ، وفرّقت الجماعة ، فإن كنتَ إنما جئت بهذا لتطلب مالاً ، جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً .

ـ وإن كنت إنما تطلب الشَّرَف فينا ، سوَّدناك علينا .

ـ وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً[1] ، بذلنا أموالنا في طلب الطّب حتى

(١) رئياً : أي تابعاً من الجن .

نبرئك منه ، أو نُعذَر فيك .

فقال رسول الله ﷺ : « مابي ما تقولون ، ما جئتكم أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملْك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه علي أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

فقالوا : يامحمد ، إن كنت غير قابلٍ منا ما عرضنا ، فقد علمتَ أنه ليس أحد من الناس أضيقَ بلاداً ، ولا أشدّ عيشاً منا ، فسل ربك يسيّر لنا هذه الجبال ، ويجري لنا أنهاراً ، ويبعث من مضى من آبائنا ، حتى نسألهم أحقٌّ ماتقول ؟ وسلْه أن يجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، تغنيك عنا .

فأنزل الله : ﴿ وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ الآيات[1] .

وفي لفظ : فأنزل عليه ماقال له عبد الله بن أبي أمية .

وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾ : قال : نزلت في أخي أم سلمة : عبد الله بن أبي أمية ، مرسل صحيح شاهد لما قبله ، يجبر المبهم في إسناده .

المناسبة :

بعدما تحدى الله المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وبعدما ألزمهم الحجة ، وغلبوا على أمرهم ، ببيان إعجاز القرآن ، مع ظهور معجزات أخرى غيره ، فتبين عجزهم عن ذلك ، وإعجاز القرآن ، أخذوا يتعللون ، ويقترحون آيات أخرى تعنتاً وحيرة ، فطلبوا إحدى آيات ست .

(١) أسباب النزول للواحدي ١٦٨ ومابعدها ، بإيجاز وتصرف ، وأسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين .

التفسير والبيان :

بعد أن أثبت الله تعالى كون القرآن معجزاً ؛ لأنه كلام الله ، فأثبت بذلك كون محمد ﷺ نبياً صادقاً ، وبعد أن أخرستهم الحجة ، ولم يجدوا رداً مقنعاً ، راوغ رؤساء قريش باقتراح إنزال إحدى ستة أنواع من المعجزات فقالوا :

١ ـ ﴿ وقالوا : لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ .. ﴾ أي وقال زعماء مكة وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأمية بن خَلَف وأبو البَخْتَري : لن نصدق برسالتك حتى تخرج لنا من الأرض ينبوعاً يتدفق ، وهو العين الجارية ، فإننا في صحراء مجدبة قاحلة من أرض الحجاز ، وذلك سهل على الله تعالى يسير .

٢ ـ ﴿ أو تكون لك جَنَّة .. ﴾ أو يكون لك بستان من نخيل وأعناب وغيرهما تتدفق فيه الأنهار تدفقاً بقوة ، حتى يسقى الزرع والشجر وتخرج الأثمار .

٣ ـ ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً ﴾ أو تسقط السماء علينا قطعاً قطعاً كما زعمت أن ربك يفعل ذلك إن شاء ، ونظيره آية أخرى : ﴿ اللهمَّ إن كانَ هَذا هُو الحقَّ من عِنْدك ، فأمطرْ علينا حِجَارةً من السماء ﴾ [الأنفال ٣٢/٨] لأنك وعدتنا أن السماء تنشق يوم القيامة ، وتتساقط أطرافها ، فعجّل ذلك في الدنيا ، وأسقطها كِسَفاً ، أي قطعاً . وهذا مشابه لما طلبه قوم شعيب إذ قالوا : ﴿ فأسقطْ علينا كِسَفاً من السماء إن كُنْتَ من الصادِقين ﴾ [الشعراء ١٨٧/٢٦] .

٤ ـ ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ أو تأتي بالله والملائكة معاينة ومواجهة ، فيحدثونا بأنك رسول من عند الله ، والمعنى : أوتأتي بالله قبيلاً ، وبالملائكة قبلاً أي بأصناف الملائكة قبيلاً قبيلاً . كما في قوله تعالى : ﴿ لولا أُنزل

علينا الملائكةً أو نرى ربَّنا ﴾ والقبيل : الكفيل الضامن يضمنون لنا إتيانك به ، أو الشاهد (الشهيد) .

٥ ـ ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ أو أن يكون لك بيت من ذهب ، كما في قراءة ابن مسعود ، فإنك يتيم فقير .

٦ ـ ﴿ أو ترقى في السماء ..﴾ أو أن تصعد في السماء على سلّم تضعها ، ثم ترقى عليه ، ونحن ننظر ، ثم تأتي بصك معه أربعة ملائكة يشهدون لك أن الأمر كما تقول ، أو تأتي بكتاب فيه تصديقك أنك رسول من عند الله ، ونقرؤه كعادتنا .

﴿ قل : سبحان ربي ، هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ قل يا محمد متعجباً من اقتراحاتهم : تنزه ربي وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته ، فهو الفعال لما يشاء ، وما أنا إلا رسول بشر كسائر الرسل أبلّغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم ، وليس للرسل أن يأتوا بشيء إلا بما يظهره الله على أيديهم على وفق الحكمة والمصلحة ، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل ، إن شاء أجابكم وإن شاء لم يجبكم .

بل إنهم لن يؤمنوا ولو جاءت الآيات كما اقترحوا ، كما ذكر تعالى في آية أخرى : ﴿ إن الذين حقّتْ عليهم كلمةُ ربّك لا يُؤمنون . ولو جاءَتْهم كلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ ﴾ [يونس ٩٦/١٠ـ٩٧] .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن ضعفاء العقول ومحدودي التفكير يظنون أن الإله يفعل لهم ما يريدون ، كما يحاول زعماء البشر من استرضاء الأتباع ، لتحقيق المصالح المادية وجلب المنافع ، وتسيير الأمور .

ثم إن طلبهم مقرون بالتحدي والمراوغة والتعجيز ، لا من أجل التوصل إلى

التصديق والإيمان ، ومعرفة حقيقة النبوة ؛ إذ لو أرادوا معرفتها بحق لأقنعهم القرآن المعجزة ولكفاهم آية على تصديق هذا النبي .

إنهم طلبوا إحدى آيات ست :

إما تفجير الينابيع (العيون الغزيرة) بكثرة من الأرض ـ أرض مكة ، وإما تملك الرياض والبساتين والحدائق الغناء تجري الأنهار وسطها ، وإما إسقاط السماء عليهم قطعاً قطعاً ، كما زعم محمد ﷺ ، يعنون قول الله تعالى : ﴿ إن نشأْ نَخْسِفْ بهم الأرضَ ، أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء ﴾ [سبأ ٩/٣٤] ، وإما الإتيان بالله والملائكة معاينة ومواجهة ، كفيلاً بما تقول ، شاهداً بصحته ، وإما أن يكون لك بيت أو قصر من ذهب ، وإما الصعود في معارج السماء ، ولن نؤمن من أجل رقيك أو صعودك ، حتى تنزل علينا كتاباً من السماء فيه تصديقك ، أي كتاباً من الله تعالى إلى كل رجل منا ؛ كما قال تعالى : ﴿ بل يريدُ كلُّ امرئٍ منهم أن يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرة ﴾ [المدثر ٥٢/٧٤] .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فرد الله عليهم بالجواب الحاسم : قل يامحمد : ﴿ سبحان ربي ﴾ أي تنزيهاً لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء ، وعن أن يُعترض عليه في فعل . وقيل : هذا كله تعجب من فرط كفرهم واقتراحاتهم .

فما أنا إلا بشر رسول أتبع ما يوحى إليّ من ربي ، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر ، فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بهذه الآيات ؟!

والخلاصة : أن التدبير ليس إلى الناس ، وإنما التدبير إلى الله تعالى .

من شبهات المشركين
بشرية الرسل وإنكار البعث

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ
فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ
فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا
عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ
تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

الإعراب :

﴿ في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴾ ﴿ ملائكة ﴾ : اسم ﴿ كان ﴾ المرفوع ، و ﴿ يمشون ﴾ : جملة فعلية صفة له . و ﴿ في الأرض ﴾ خبر ﴿ كان ﴾ ، و ﴿ مطمئنين ﴾ : حال .

﴿ مأواهم جهنم ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ جملة حالية من ﴿ جهنم ﴾ ولا يجوز أن تكون صفة ؛ لأن ﴿ جهنم ﴾ معرفة ، والجملة لا تكون إلا نكرة ، والمعرفة لا توصف

بالنكرة . ويجوز ألا يكون لهذه الجملة موضع من الإعراب ، وتكون الواو العاطفة مقدّرة ، أي : وكلما خبت .

﴿ ذلك جزاؤهم ﴾ مبتدأ وخبر و ﴿ بأنهم ﴾ في موضع نصب : لأنه يتعلق بـ جزاؤهم

﴿ لو أنتم تملكون ﴾ ﴿ أنتم ﴾ : مرفوع بفعل مقدر ، يفسره ﴿ تملكون ﴾ أي لو تملكون ، فلما حذف الفعل ، صار الضمير المرفوع المتصل في ﴿ تملكون ﴾ ضميراً منفصلاً ، وهو ﴿ أنتم ﴾ ولا يجوز أن يكون ﴿ أنتم ﴾ مبتدأ ؛ لأن ﴿ لو ﴾ حرف يختص بالأفعال كإن الشرطية .

و ﴿ خشية الإنفاق ﴾ مفعول لأجله .

البلاغة :

﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ استفهام إنكاري .

﴿ ونحشرهم يوم القيامة ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم ، اهتماماً بأمر الحشر .

﴿ من يهد ﴾ ﴿ ومن يضلل ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ أي ومامنعهم الإيمان بعد نزول الوحي وظهور الحق ﴿ إلا أن قالوا ﴾ إلا قولهم منكرين ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ أي لم يبق لهم شبهة تمنعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن إلا إنكارهم أن يرسل الله بشراً ، ولم يبعث ملكاً .

﴿ قل ﴾ لهم جواباً لشبهتهم ﴿ لو كان في الأرض ﴾ بدل البشر ﴿ ملائكة يمشون ﴾ كما يمشي بنو آدم ﴿ مطمئنين ﴾ ساكنين فيها مقيمين ﴿ لنزلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً ﴾ لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي منه ، فلم يرسل الله إلى قوم رسولاً إلا من جنسهم يمكنهم مخاطبته والفهم عنه ﴿ شهيداً بيني وبينكم ﴾ على صدقي وعلى أني رسول إليكم ، بإظهار المعجزة على وفق دعواي ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ عالماً ببواطنهم وظواهرهم . وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار .

﴿ ومن يهد الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء ﴾ يهدونهم من دونه ، والمعنى : ومن يهديه الله إلى الخير فهو المهتدي الموفق ؛ لأن نفسه ميّالة إلى ذلك ، ومن يضلله الله ويخذله ، لإعراضه عن هداية ربه ، فلن تجد له أولياء من دون الله يتولون أمره ، ويدافعون عنه .

﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ أي يسحبون عليها تجرهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم ، أو يمشون بها ، روى الشيخان عن أنس أنه قيل لرسول الله ﷺ : كيف يمشون على

وجوههم ؟ قال : « إن الذي أمشاهم على أقدامهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم » . وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم .

﴿ عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً ﴾ قال البيضاوي : لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ؛ لأنهم في دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعبر ، وتصاموا عن استماع الحق ، وأبوا أن ينطقوا بالصدق . ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار مَعطّلي القوى والحواس .

﴿ كلما خبت ﴾ سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ توقداً وتلهباً واشتعالاً ، بأن تبدل جلودهم ولحومهم ، فتعود ملتهبة مستعرة « ورُفاتاً » مابلي من الشيء .

﴿ أو لم يروا ﴾ يعلموا فهي رؤية القلب ، وهو استفهام إنكار وتوبيخ لهم على ما كانوا يستبعدونه من الإعادة بعد الإفناء ﴿ قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهم ، وليست الإعادة أصعب عليه من الإبداء ﴿ وجعل لهم أجلاً ﴾ للموت والبعث ﴿ فأبى الظالمون ﴾ مع وضوح الحق ﴿ إلا كفوراً ﴾ إلا جحوداً ﴿ خزائن رحمة ربي ﴾ خزائن رزقه وسائر نعمه ، والمطر من أهم المصادر ﴿ لأمسكتم ﴾ لبخلتم ﴿ خشية الإنفاق ﴾ خوف نفادها بالإنفاق ﴿ قتوراً ﴾ بخيلاً .

المناسبة :

بعد أن أنكر المشركون الآية الباقية التي هي القرآن وسائر الآيات ، وليست بدون ما اقترحوه ، بل هي أعظم ، أخبر الله تعالى عن السبب الواهي الضعيف الذي منعهم من الإيمان ، وهو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الناس واحداً بشراً منهم ، ولم يكن ملكاً . فهذه شبهة أخرى وهي استبعاد كون الرسل بشراً ، بعد الرد عليهم بأن وظيفة الرسل إبلاغ الناس ، وليس تلبية اقتراح الآيات ، ثم الرد على شبهتهم بأن الرسول يكون عادة من جنس المرسل إليهم .

ثم ذكر شبهة أخرى أيضاً وهي إنكار البعث ، ولما أنكروا البعث ، نبّههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكمته ، بخلق السموات والأرض .

ولما طلب المشركون إجراء الأنهار والعيون في بلدهم لتكثر أقواتهم وتتسع عليهم ، بيّن تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله ، لبقوا على بخلهم وشحهم ، ولما أقدموا على نفع أحد .

التفسير والبيان :

﴿ ومامنع الناس أن يؤمنوا .. ﴾ أي ومامنع أكثر الناس ومنهم مشركو مكة أن يؤمنوا بالله ، ويتبعوا الرسل ، حين مجيء الوحي المعجز الذي يستهدف الهداية والإسعاد والنجاة إلا استغرابهم وتعجبهم من بعثة البشر رسلاً ، غير متصورين كون الرسول من جنس البشر المرسل إليهم ، وأنه كان لابد من أن يكون من الملائكة ، وهذا تحكم فاسد وتعنت باطل . والآية مثل قوله تعالى : ﴿ أكان للناسِ عَجَباً أن أوْحَيْنا إلى رَجُلٍ منهم أن أنذرِ الناسَ ﴾ [يونس ٢/١٠] وقوله سبحانه : ﴿ ذلك بأنه كانتْ تأتِيهمْ رسلُهم بالبَيِّناتِ ، فقالوا : أبشرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ ؟ [التغابن ٦/٦٤] . والآيات في هذا كثيرة .

ثم أجابهم الله تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده ، وعلى منطق الأمور ، فقال : ﴿ قل : لو كان في الأرض مَلائكة .. ﴾ أي قل لهم يا محمد : إن مقتضى الحكمة ومنطق الأشياء والرحمة بالناس أن يبعث إليهم الرسول من جنسهم ، ليناقشهم ويخاطبهم ، ويفقهوا عنه ويفهموا منه ، فليس إرسال الرسول لمجرد إلقاء الموحى به إليه ، ولو كان الرسول ملَكاً لما استطاعوا مواجهته ، ولا الأخذ عنه ، فإن الشيء يألف لجنسه ، ويأنس به ، فطبيعة الملَك لاتصلح للاجتماع بالبشر ، وعقد حوار معه حول أحكام التشريع وتبيان أصول العقيدة ، وأداء الرسالة ، كما قال تعالى : ﴿ ولو جَعَلْنَاه ملَكاً لجَعَلْناه رَجُلاً ، وللَبسنا عليهم ما يَلْبِسون ﴾ [الأنعام ٩/٦] .

بل إن إرسال الرسول من البشر نعمة وحكمة ومنّة عظمى ، لذا قال تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ، يتلو عليكم آياتِنا ، ويزكّيكم ، ويعلّمكم الكتاب والحكمة ، ويعلّمكم مالم تكونوا تَعْلَمُون ﴾ [البقرة ١٥١/٢] وقال سبحانه : ﴿ لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذْ بعثَ فيهم رَسُولاً من أنفسهم ﴾ [آل عمران ١٦٤/٣] وقال عز وجل : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم ﴾ [التوبة ١٢٨/٩] .

والخلاصة في معنى الآية : إنه لو كان في الأرض ملائكة يمشون عليها مطمئنين فيها ، كما أنتم أيها البشر فيها ، لنزلنا عليهم من عالم السماء رسولاً من جنسهم ، وأنتم البشر رسولكم منكم ، لكن يمكن أن يكون البشر رسولاً لغير البشر ، فإن النبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن ؛ لأنه يمكنهم تلقي الوحي عنه وفهم الخطاب منه . وأما تلقي النبي الوحي من جبريل عليه السلام فهذا يتطلب استعداداً خاصاً لا يتهيأ لغير نبي أو رسول .

ثم أرشد الحق تعالى إلى حجة أخرى هي :

﴿ قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ أي إن القول الفصل بيني وبينكم ، وإقامة الحجة الدامغة عليكم أن الله شاهد علي وعليكم ، وحكم بيني وبينكم ، عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذباً لانتقم مني أشد الانتقام ، كما قال تعالى : ﴿ ولو تقوَّلَ علينا بعضَ الأقاويلِ ، لأَخَذْنَا منه باليمين ، ثم لقَطَعْنَا منه الوتينَ ﴾ [الحاقة ٦٩/٤٤-٤٦] وقال : ﴿ ومن أظلمُ مِمَّنْ افْتَرى على اللهِ كَذِباً ﴾ [الأنعام ٦/٢١] .

﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي إن الله سبحانه عليم بأحوال عباده ، يعلم ظواهرهم وبواطنهم ، وخبير بمن يستحق الهداية ، ممن يستحق الضلالة ، مطلع على مافي قلوبهم ، فهم لا يذكرون هذه الشبهات إلا حسداً وحباً للزعامة ، وإعراضاً عن قبول الحق . وفي ذلك تهديد ووعيد ، وإيناس للنبي ﷺ فيما يلقاه من صدود قومه وعنادهم .

ثم يخبر الله تعالى عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه ، وأنه لا معقب له ، فقال : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ..﴾ أي من يهده الله للإيمان فهو المهتدي إلى الحق ، ومن يضلل الله ، فلن تجد لهم أنصاراً يهدونهم من دون الله إلى الحق والصواب .

والمقصود إيناس الرسول ﷺ ، فمن سبق لهم حكم الله بالإيمان والهداية ،

لعلمه السابق بأنهم صائرون لذلك لميل نفوسهم إلى الحق ، وجب أن يصيروا مؤمنين ؛ لأن علم الله لا يتغير ، ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل ، لما علم الله منهم سوء الاختيار ، والإصرار على الغَواية والضلال ، استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال ، كما قال تعالى : ﴿ من يهدِ اللهُ فهو المهتدِ ، ومن يُضْلِلْ فلن تَجِدَ لهُ وَلِيّاً مُرْشداً ﴾ [الكهف ١٧/١٨] .

ولا يقصد بوجود العلم والحكم السابق إجبار البشر على الإيمان والكفر ، فإن الإنسان مختار في حدود ما اختاره الله له ، أي إن الإنسان ، وهو يختار بمشيئته فإنه في الحقيقة التي لا يعلمها لا يختار إلا ما اختاره الله له ، فلا مشيئة للإنسان ولا لشيء إلا ما يشاؤه الله . وهذه المشيئة الكلية والشاملة لله في كل شيء كفلت للإنسان حرية الاختيار بين الأمرين ، كفلت مشيئة الله للإنسان في عدله ورحمته أن يكون له « الخيار » بين الهدى والأمن مع الله ، أو الضلال والشك ، كما بيَّن تعالى : ﴿ إنا هديناهُ السبيلَ : إما شاكراً وإما كَفُوراً ﴾ [الدهر ٣/٧٦] ﴿ وهديْنَاه النَّجْدين ﴾ [البلد ١٠/٩٠] .

﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبُكْماً وصُمّاً ﴾ أي ونجمعهم يوم القيامة في موقف الحساب بعد الخروج من القبور ، مسحوبين على وجوههم ، كما قال تعالى : ﴿ يومَ يُسْحَبونَ في النارِ على وجوهِهم ﴾ [القمر ٤٨/٥٤] عمياً لا يبصرون ، بكماً لا ينطقون ، صُمّاً لا يسمعون ، أي أنهم كما كانوا في الدنيا معطلين هذه الحواس عن الانتفاع الحقيقي بها ، وإن كانوا في الظاهر مبصرين ناطقين سامعين ، فهم في الآخرة لا يبصرون طريق النجاة الذي يقر أعينهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ، كما قال تعالى : ﴿ ومن كانَ في هذه أعْمى ، فهو في الآخرةِ أعمى وأضلُّ سبيلاً ﴾ [الإسراء ٧٢/١٧] قال ابن كثير : وهذا يكون في حال دون حال ، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا ، بكماً وعمياً وصماً عن الحق ، فجُوزوا في محشرِهم بذلك .

أخرج الشيخان وأحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : « قيل : يارسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم » .

وأخرج الترمذي : « إن الناس يكونون ثلاثة أصناف في الحشر : مشاة ، وركباناً ، وعلى وجوههم » وفي معناه أخرج الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد ، قال : قام أبو ذر فقال : يابني غفار ، قولوا ولا تحلفوا ، فإن الصادق المصدوق حدثني : أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج : فوج راكبين طاعمين كاسين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار » .

﴿ مأواهم جهنم ، كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم إلى جهنم ، كلما سكن لهيبها زدناهم لهباً ووهجاً وجمراً ، بأن تأكل جلودهم ولحومهم وتفنيها ، فيسكن لهبها ، ثم يبدلون غيرها ، فترجع ملتهبة مستعرة ، ويتكرر الإفناء والإعادة ، ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم بالبعث ، كما قال تعالى : ﴿ فذُوقوا فلَنْ نَزِيدَكُم إلا عَذَاباً ﴾ [النبأ ٣٠/٧٨] .

وعلة تعذيبهم ماقال تعالى : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا .. ﴾ أي إن ذلك الجزاء والعقاب الذي جازيناهم به من البعث عمياً وبكماً وصمّاً هو جزاؤهم الذي يستحقونه على كفرهم بالله تعالى ، وتكذيبهم آياته أي أدلته وحجته على وجوده ووحدانيته وعلى البعث ، وعلى قولهم منكرين وقوع البعث : أئذا كنا عظاماً نخرة ورفاتاً بالية وتراباً منتشراً ، نعود خلقاً جديداً آخر ؟ أبَعُدَ ماصرنا إلى ماصرنا إليه من البِلى والهلاك ، والتفرق والذهاب في أنحاء الأرض ، نعاد مرة ثانية ؟

فنبههم الله على قدرته على البعث بأنه خلق السموات والأرض ، فقال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الذي خَلَقَ السموات والأرضَ .. ﴾ أي ألم يعلموا ويتدبروا أن الذي أبدع خلق السموات والأرض على غير مثال سبق ، قادر على أن يخلق أمثالهم ، ويعيد أبدانهم ، وينشئهم نشأة أخرى ، كما بدأهم ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناس ﴾ [غافر ٥٧/٤٠] ، ﴿ أأنتُمْ أشدُّ خَلْقاً أمِ السماءُ بنَاهَا ﴾ [النازعات ٢٧/٧٩] فدل هذا على أن خلق الإنسان أو إعادته أهون وأيسر من خلق السموات والأرض ، وأن الإعادة أهون عليه من الابتداء .

لكن للبعث والقيامة أو الموت وقتاً محدداً ، فقال تعالى : ﴿ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ﴾ أي وجعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً معيناً ، ومدة مقدرة ، لابدّ من انقضائها ، وبعد مضي تلك المدة تكون القيامة أمراً محتماً لاشكّ فيه .

﴿ فأبى الظالمون إلا كُفوراً ﴾ أي وبالرغم من إقامة تلك الحجة الدامغة عليهم أبى الكافرون الظالمون أنفسهم إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم ، وجحوداً للثابت الصحيح ، وإنكاراً للبعث .

وسبب عدم إجابتهم لمطالبهم من القصور والجنات والعيون هو الشح ، فقال الله تعالى : ﴿ قل : لوأنتم تملكون خزائن رحمة ربي .. ﴾ أي قل لهم يا محمد : لوأنكم ملكتم التصرف في خزائن أرزاق الله لبقيتم على الشح والبخل ، ولأمسكتم عن الإنفاق ، أي الفقر ، كما قال ابن عباس ، أي خشية الزوال والذهاب والنفاد والفراغ ، مع أنها لاتفرغ ولاتنفد أبداً ؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم .

﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ أي بخيلاً منوعاً ، كما قال سبحانه : ﴿ أم لهم نَصِيبٌ من الْمُلْكِ ، فإذاً لا يؤتونَ الناسَ نَقِيراً ﴾ [النساء ٥٣/٤] . أي لوأن لهم نصيباً في ملك الله تعالى ، لما أعطوا أحداً شيئاً ، ولا مقدار نقير ، وهو الخيط في

شق النواة ، وقال الله تعالى أيضاً : ﴿ إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إذا مسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وإذا مسَّهُ الخيرُ مَنُوعاً ، إلا الْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج ٧٠ /١٩ ـ ٢٢] .

والآية دليل واضح على شح الإنسان وكرم الله تعالى وجوده وإحسانه ، جاء في الصحيحين : « يد الله ملأى ، لا يغيضها نفقة ، سَحّاء ، الليل والنهار ، أرأيتم ماأنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يده » .

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن كفار قريش قوم متكبرون معاندون ، فقالوا للنبي ﷺ : أنت مثلنا ، فلا يلزمنا الانقياد لك ، وغفلوا عن القرآن المعجزة الذي يثبت صدقه في رسالته .

وادعاؤهم أن الرسول لا يصلح أن يكون بشراً : ادعاء مردود عليهم ؛ لأن أداء الرسالة وماتقتضيه من إقناع ونقاش ، ومراعاة لموجب الحكمة والمصلحة أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم .

فالْمَلَك إنما يرسل إلى الملائكة ؛ لأنه لوأرسل الله تعالى مَلَكاً إلى بني آدم لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خلق عليها ، وإنما أقدر الأنبياء على رؤيته ، وخلق فيهم ما يقدرون به ؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة .

٢ ـ كفى بالله شاهداً ومصدقاً يشهد أن محمداً ﷺ رسول الله ، يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله تعالى : ﴿ هل كنتُ إلا بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء ١٧/٩٣] : فمن يشهد لك أنك رسول الله ؟ فنزل ﴿ قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ .

٣ ـ لوشاء الله أنْ يهدي الكفار لاهتدوا ، فإن لم يهتدوا بهدي الله تعالى ، لا يهديهم أحد .

٤ ـ يحشر الكفار يوم القيامة على وجوههم ، وفيه وجهان :

أحدهما ـ أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ، كما يقول العرب : قدِم القوم على وجوههم : إذا أسرعوا .

والثاني ـ أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم ، كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه ، قال القرطبي : وهذا هو الصحيح ؛ لحديث أنس المتقدم . فإنهم يحشرون عمياً عما يسرّهم ، بكماً عن التكلم بحجة مقبولة ، صماً عما ينفعهم ، وهذا يدل على أن حواسهم باقية على ما كانت عليه . وقيل : إنهم يحشرون على الصفة التي وصفهم الله بها ، ليكون ذلك زيادة في عذابهم ، ثم يخلق ذلك لهم في النار ، فأبصروا ؛ لقوله تعالى : ﴿ ورأى المجرمونَ النارَ فظَنُّوا أنَّهم مُواقِعُوها ﴾ [الكهف ٥٣/١٨] ، وتكلموا ؛ لقوله تعالى : ﴿ دَعَوْا هنالكَ ثُبوراً ﴾ [الفرقان ١٣/٢٥] ، وسَمِعوا ؛ لقوله تعالى : ﴿ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وزَفِيراً ﴾ [الفرقان ١٢/٢٥] .

٥ ـ مأوى الكفار ومستقرهم ومقامهم جهنم ، كلما سكنت نارها ، زادها الله ناراً تلتهب ، وسكون التهابها من غير نقصان في آلامهم ولا تخفيف عنهم .

٦ ـ ذلك العذاب جزاء كفرهم بآيات الله تعالى وحججه الدالة على وجوده وتوحيده ، وجزاء جحودهم وإنكارهم البعث إنكار تعجب من إعادة ما بلي من العظام ، وتفتت من الجسد ، وزالت معالمه ، وغفلوا عن أن الله هو الذي خلقهم أول مرة ، والإعادة أهون عليه من الابتداء ، كما قال الله تعالى : ﴿ كما بَدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُه ﴾ [الأنبياء ١٠٤/٢١] ، ﴿ وهو الذي يَبْدأُ الْخَلْقَ ، ثم يُعيدُه ، وهو أهْوَنُ عليهِ ﴾ [الروم ٢٧/٣٠] .

ومع كل هذه الدلائل أبى المشركون الظالمون إلا جحوداً بأجل القيامة وبآيات الله تعالى .

٧ ـ لو وسّع الله الرزق على العباد لبخلوا أيضاً ، فإن قوله تعالى : ﴿ قل : لوأنتم تملكون خزائن رحمة ربي ﴾ أي خزائن الأرزاق والنعم ﴿ إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ من البخل ، هو جواب قولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء ٩٠/١٧] حتى نتوسع في المعيشة ، والمعنى : لوتوسعتم لبخلتم أيضاً ، وكان الإنسان قتوراً أي بخيلاً مضيّقاً ، والآية على الصحيح عامة في المشركين وغيرهم .

الآيات التسع لموسى عليه السلام وصفة إنزال القرآن

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ

إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

الإعراب :

﴿ تسع آيات بينات ﴾ ﴿ بينات ﴾ إما وصف مجرور لآيات ، أو وصف منصوب لتسع .

﴿ وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل ﴾ الباء في ﴿ بالحق ﴾ في الموضعين : إما متعلقة بالفعلين على جهة التعدي ، وإما أن الأولى حال من هاء ﴿ أنزلناه ﴾ والثانية حال من ضمير ﴿ نزل ﴾ .

﴿ وقرآناً ﴾ إما منصوب بفعل مقدر ، وتفسيره ﴿ فرقناه ﴾ أي فرقنا قرآنا فرقناه ، أو معطوف على قوله : ﴿ مبشراً ونذيراً ﴾ على تقدير : وصاحب قرآن ، ثم حذف المضاف ، فيكون ﴿ فرقناه ﴾ وصفاً لقرآن . و ﴿ على مكث ﴾ : حال ، أي متمهلاً مترفّقاً .

البلاغة :

﴿ مبشراً ونذيراً ﴾ بينهما طباق .

﴿ مسحوراً ﴾ ﴿ مثبوراً ﴾ بينهما جناس ناقص لتغير بعض الحروف .

﴿ وإني لأظنك ياموسى مسحوراً ﴾ ﴿ وإني لأظنك يافرعون مثبوراً ﴾ بينهما مقابلة ، وفيهما سجع .

المفردات اللغوية :

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على نبوته ، وصحة ماجاء به من عند الله ، وهي العصا ، واليد البيضاء ، والطوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضفادع ، والدم ، وهذه سبع باتفاق ، وأما الثنتان فقيل : انفلاق البحر ، والسنون ، وقيل : انفلاق البحر ونتق الطور على بني إسرائيل ، وقيل : انفلاق البحر ، وحل عقدة لسان موسى . وهما مرويان عن ابن عباس ، وقيل عن مجاهد وآخرين : السنون ، ونقص الثمرات . وقيل بغير ذلك كما ذكرنا في سورة الأعراف .

خمس منها ذكرت في سورة الأعراف : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل ، والضفادع ، والدم آياتٍ مفصلات ﴾ [١٣٣] والباقي متفرقات .

وقيل : المراد بالآيات : الأحكام ، أخرج أحمد والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجه : « أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي فنسأله ، فأتياه ﷺ ، فسألاه عن قول الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ فقال : لاتشركوا بالله شيئاً ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تَسْحَروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا مُحْصَنة ، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تَعْدوا في السبت ، فقبّلا يده ورجله ، وقالا : نشهد إنك نبي ، قال : فما يمنعكما أن تُسْلما ؟ قال : إن داود دعا ألا يزال من ذريته نبي ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود » قال الشهاب الخفاجي : وهذا هو التفسير الذي عليه المعوّل في الآية .

﴿ فاسأل ﴾ يامحمد . ﴿ بني إسرائيل ﴾ عنه سؤال تقرير للمشركين على صدقك ، أو : فقلنا له : اسأل . ﴿ مسحوراً ﴾ سحرت ، فأصبحت متخبط العقل مخبولاً . ﴿ هؤلاء ﴾ الآيات . ﴿ بصائر ﴾ بينات واضحات وعبراً ، ولكنك تعاند . ﴿ مثبوراً ﴾ هالكاً ، أو مصروفاً عن الخير ، مطبوعاً على الشر . ﴿ فأراد ﴾ فرعون . ﴿ أن يستفزهم ﴾ أن يخرج موسى وقومه وينفيهم من الأرض : أرض مصر ، أو الأرض مطلقاً بالقتل والاستئصال .

﴿ اسكنوا الأرض ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها . ﴿ وعد الآخرة ﴾ أي الساعة أو الدار الآخرة يعني قيام القيامة . ﴿ لفيفاً ﴾ جميعاً أنتم وهم ، واللفيف : الجمع العظيم المختلط من الطائفين والعصاة وغيرهم . ﴿ فرقناه ﴾ نزلناه مفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة . ﴿ مُكْث ﴾ مَهْل وتؤدة وتأنٍ ليفهموه . ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ شيئاً بعد شيء على حسب المصالح والحوادث .

﴿ قل ﴾ لكفار مكة . ﴿ آمنوا به أو لاتؤمنوا ﴾ تهديد لهم ووعيد . ﴿ من قبله ﴾ قبل نزوله ، وهم مؤمنو أهل الكتاب . ﴿ يخرون للأذقان سجداً ﴾ يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله ، وشكراً لإنجازه وعده في تلك الكتب ببعثة محمد ﷺ على فترة من الرسل وإنزاله القرآن عليه . والمعنى : إن لم تؤمنوا به ، فقد آمن به من هو خير منكم ، وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة ، وعرفوا حقيقة الوحي ، وأمارات النبوة ، وتمكنوا من التمييز بين الحق والمبطل ، أو رأوا نعتك وصفة ماأنزل إليك في تلك الكتب . فالخرور : السقوط بسرعة ، والأذقان جمع ذقن : وهو مجتمع اللحيين .

﴿ سبحان ربنا ﴾ تنزيهاً له عن خلف الوعد . ﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة . ﴿ كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ بإنزال القرآن وبعث النبي ﷺ . ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ﴾ عطف بزيادة صفة . ﴿ ويزيدهم ﴾ القرآن . ﴿ خشوعاً ﴾ تواضعاً لله .

المناسبة :

بعد أن حكى الله تعالى عن قريش تعنتهم في اقتراحهم وعنادهم للرسول

ﷺ ، سلاّه تعالى وذكّره بما جرى لموسى مع فرعون ، وقومه من قولهم : أرنا الله جهرة ، وقول قريش : أو تأتي بالله ، أو نرى ربنا ، وأنه أنزل آيات تسعاً على موسى مثلما اقترحوا ، فلم تفد تلك الآيات فرعون وقومه بالإقبال على ساحة الإيمان ، ويكفيكم ماأنزل على محمد ﷺ من آيات علمية غير مادية ، فإن لم يؤمنوا ، كانت عاقبتكم الدمار والهلاك ، كما أهلك فرعون وقومه بالغرق .

وبعد أن ذكر تعالى إعجاز القرآن بقوله : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ [الإسراء ٨٨/١٧] عاد إلى بيان صفة نزول القرآن منجماً ، وأنه حق ثابت لا يزول . وهكذا طريقة كلام العرب وأسلوبها ، تأخذ في شيء وتستطرد منه إلى شيء آخر ثم إلى آخر ، ثم تعود إلى ماذكرته أولاً[1] . وهدد تعالى من لم يؤمن به ، وأنه قد آمن به علماء أهل الكتاب .

التفسير والبيان :

أجاب الله تعالى المشركين في هذه الآيات عن قولهم : ﴿ لن نؤمن لك ﴾ حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة ، فقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ أي لقد أمددنا موسى عليه السلام وأعطيناه تسع آيات بيّنات ، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه ، فيما أخبر به ، حين أرسله إلى فرعون وقومه ، فلم يؤمنوا بها ، كما قال تعالى : ﴿ فاستكبَرُوا ، وكانوا قَوْماً مُجْرِمين ﴾ قال موسى لفرعون : لقد علمت علم اليقين أن هذه الآيات التسع ماأنزلها خالق [النمل ١٤/٢٧] .

والآيات التسع هي كما ذكر ابن عباس فيما رواه عنه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر : « العصا ، واليد ، والسنين ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم آيات مفصلات » .

(١) البحر المحيط : ٨٧/٦

لكن تخصيص التسع بالذكر لا يمنع ثبوت الزائد عليها ؛ لأن القاعدة في أصول الفقه : أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد .

وقد ذكر القرآن المجيد ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام ذكرها الرازي[١] وهي : إزالة العقدة من لسانه ؛ أي إذهاب العجمة وصيرورته فصيحاً ، وانقلاب العصا حية ، وتلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها ، واليد البيضاء ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وشق البحر : ﴿ وإذ فَرَقْنا بكم البحرَ ﴾ [البقرة ٢/٥٠] والحجر : ﴿ أن اضربْ بعَصَاك الحجَرَ ﴾ [الأعراف ٧/١٦٠] وإظلال الجبل : ﴿ وإذ نَتَقنا الجبلَ فوقهم كأنه ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف ٧/١٧١] وإنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه ، والجدب ، ونقص الثمرات : ﴿ ولقد أخذنا آلَ فِرْعَونَ بالسنينَ ، ونَقْصٍ من الثَّمَراتِ ﴾ [الأعراف ٧/١٣٠] والطمس على أموالهم من النحل والدقيق والأطعمة والنقود .

وقال الرازي[٢] بعد أن ذكر أن الروايات ظنية غير يقينية في بيان الآيات التسع : أجود الروايات في تفسير قوله تعالى : ﴿ تِسْعَ آياتٍ بيِّنات ﴾ ما روى صفوان بن عَسَّال المرادي أنه قال : إن يهودياً قال لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات ، فذهبا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها ، فقال : « هن ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا ، ولا تَسْحَرُوا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا المحْصَنة ، ولا تولوا الفرار يوم الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن تعدلوا في السبت ، فقام اليهوديان ، فقبَّلا يديه ورجليه ، وقالوا : نشهد إنك نبي ، ولولا نخاف القتل ، وإلا اتبعناك »[٣] . فالمراد بالآيات : الأحكام .

---

(١) تفسير الرازي : ٦٤/٢١

(٢) المرجع السابق .

(٣) أخرجه أحمد والترمذي والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجه .

﴿ فاسأل بني إسرائيل ﴾ أي فاسأل أيها النبي بني إسرائيل المعاصرين لك كعبد الله بن سَلاَم وصحبه سؤال تأكد واستيثاق واطمئنان ، لتعلم ثبوت ذلك في كتابهم .

﴿ إذ جاءهم ، فقال له فرعون : إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ أي فاسألهم حين جاءهم موسى بتلك الآيات ، وبلغها فرعون ، فقال فرعون : إني لأظنك يا موسى أن الناس سحروك وخبلوك ، فصرت مختلط العقل .

﴿ قال : لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربّ السموات والأرض بصائر ﴾ أي قال موسى لفرعون : لقد علمت علم اليقين أن هذه الآيات التسع ما أنزلها خالق الأرض والسموات إلا حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ، فهي تهدي الإنسان إلى الطريق الحق ، وأنها من عند الله لا من عند غيره .

﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ أي مغلوباً هالكاً مصروفاً عن الخير ، ميالاً إلى الشر .

﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ أي فأراد فرعون أن يخرج موسى وقومه بني إسرائيل من أرض مصر بالقتل ، أو بالطرد .

﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ أي فأهلكناه وجنوده جميعاً بالإغراق في البحر .

﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل : اسكنوا الأرض ﴾ أي ونجينا موسى وقومه بني إسرائيل ، وقلنا لهم بعد هلاك فرعون : اسكنوا الأرض التي أراد فرعون إخراجكم منها وهي أرض مصر ، أو أرض الشام التي وُعِدتم بها .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم أنتم وعدوكم جميعاً ، مختلطين أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم . واللفيف : الجمع

العظيم من أخلاط شتى من الشريف والدني ، والمطيع والعاصي ، والقوي والضعيف .

وبعد أن ردّ الله تعالى على الكفار بأنه لا حاجة للمعجزات ؛ لأن قوم موسى آتاهم الله تسع آيات بينات ، فلما جحدوا بها أهلكهم الله ، ولأنه لو جاءهم بتلك المعجزات التي اقترحوها ثم كفروا بها ، لأنزل بهم عذاب الاستئصال ، فاقتضت الحكمة عدم تلبية مطالبهم لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن ، ومنهم من لا يؤمن ... بعد هذا عاد الله تعالى إلى تذكيرهم بالمعجزة الخالدة وهي القرآن ، وإلى تعظيم شأنه ، والاكتفاء به ، فقال :

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نَزَل ... ﴾ أي إننا أنزلنا القرآن متضمناً للحق من تبيان براهين الوحدانية والوجود ، وحاجة الناس إلى الرسل ، والأمر بالعدل ومكارم الأخلاق ، والنهي عن الظلم وقبائح الأفعال والأقوال ، والأحكام التشريعية والأوامر والنواهي المنظمة لحياة الفرد والجماعة والدولة وغير ذلك من أصول التشريع الرفيع .

ونزل إليك يا محمد هذا القرآن محفوظاً محروساً ، لم يختلط بغيره ، ولم يطرأ عليه زيادة فيه ولا نقص منه ، بل وصل إليك مع الحق وهو جبريل عليه السلام ، الشديد القوي ، الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى .

وبعد بيان خواص القرآن أبان تعالى مهام النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين بالجنة ، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين بالنار .

ثم عاد إلى بيان كيفية نزول القرآن منجماً ، أي مقسطاً بحسب الوقائع والمناسبات ، فقال تعالى :

﴿ وقرآناً فَرَقْنَاه لتقرأه على النـاس على مُكْث ، ونـزلنـاه تنزيـلاً ﴾ أي وأنزلنـا قرآنـاً مفرقـاً منجماً في مـدى ثلاث وعشرين سنـة ، فلم ينزل في يـومين أو ثلاثة ، وإنما أنزلناه بحسب الوقـائع والحوادث وعلى مـا تقتضيـه الحكمـة والمصلحـة العامة النافعة في الدنيا والآخرة على وفق المناسبـات ، وقـد ابتـدأ نزولـه في ليلـة مباركة هي ليلة القدر في رمضان ، وقرئ ﴿ فرّقناه ﴾ بـالتشـديـد ، أي أنزلنـاه آية آية مبيناً مفسراً .

وذلك لتبلغه للنـاس وتتلوه عليهم على مهل ، ونزلنـاه تنزيلاً أي شيئـاً بعـد شيء ، على الحد المذكور والصفة المذكورة . وفائـدة قولـه : ﴿ ونزلنـاه تنزيلاً ﴾ بعد قوله ﴿ فرقناه ﴾ بيان كون التنزيل على حسب الحوادث .

ثم هـددهم الله محتقراً لهم غير مبـال بشـأنهم بقـولـه : ﴿ قـل : آمنـوا بـه أو لاتؤمنوا ﴾ أي قل يا محمـد لهؤلاء الكافرين الـذين لم يقتنعوا بكون القرآن معجزة كافيـة ، وقـالـوا لـك : ﴿ لن نُـؤمنَ لـك حتى تَفْجُرَ لنـا من الأرضِ يَنْبـوعـاً ﴾ [الإسراء ٩٠/١٧] آمنوا بهـذا القرآن أو لاتؤمنوا بـه ، فهو حق في نفسـه أنـزلـه الله ، وكتاب خالد إلى أبد الدهر .

﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله .. ﴾ أي إن علمـاء أهل الكتـاب الصـالحين الذين تمسكوا بكتابهم ولم يبدلوه ولم يحرفوه ، إذا يتلى عليهم هذا القرآن يسجـدون على وجـوههم تعظيمـاً لله عـز وجـل ، وشكراً على مـا أنعم بـه عليهم ، وعبر عن السجود بقـولـه ﴿ لـلأذقـان ﴾ لأن الإنسـان كلمـا ابتـدأ بـالخرور والإقبـال على السجود فأقرب الأشياء من الجبهة إلى الأرض : الذقن ، أو هو كناية عن المبـالغـة في الخضوع والخشوع والخوف من الله تعالى .

ويقولون في سجودهم : ﴿ سبحان ربنـا .. ﴾ أي تنزيهـاً لله تعـالى وتعظيـماً وتوقيراً على قدرته التامة ، وأنه لا يخلف الميعاد ، لذا قال : ﴿ إن كان وعـد ربنـا

لمفعولاً ﴾ أي منجزاً واقعاً آتياً لا محالة .

وهؤلاء كما قال مجاهد : ناس من أهل الكتاب ، حين سمعوا ماأنزل على محمد ﷺ خرُّوا سجداً ، منهم زيد بن عمرو بن نُفَيل ، وورقة بن نَوْفل ، وعبد الله بن سَلام .

وهذا السجود من هؤلاء تعريض بأهل الجاهلية والشرك ، فإنهم إن لم يؤمنوا بالقرآن ، فإن خيراً منهم وأفضل علماء أهل الكتاب الذين قرؤوا الكتب ، وعلموا ما الوحي ، وما الشرائع ، فآمنوا وصدقوا به ، وثبت لديهم أنه النبي الموعود به في كتبهم ، فإذا تلي عليهم خروا سجداً لله ، تعظيماً لأمره ، ولإنجاز ما وعد في الكتب المنزلة ، وبشر به من بعثة محمد ﷺ ، وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد في الآية : ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ أي بإنزال القرآن وبعثة محمد .

وصفة سجودهم ما قال تعالى : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي ويخرون ساجدين باكين خاشعين خاضعين لله عز وجل من خشية الله ، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله .

ويزيدهم السجود خشوعاً ، أي إيماناً وتسليماً ، كما قال تعالى : ﴿ والذين اهْتَدَوا زادَهم هُدىً ، وآتاهم تَقْوَاهم ﴾ [محمد ١٧/٤٧] .

وقد امتدح النبي ﷺ البكاء في أحاديث كثيرة منها : ما رواه الترمذي عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عينان لا تمسُّهما النار : عينٌ بكت من خَشْية الله تعالى ، وعينٌ باتت تحرُسُ في سبيل الله تعالى » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى التالي :

١ ـ أيد الله نبيه موسى عليه السلام بمعجزات أو آيات تسع ، كما ذكرت الآية

هنا ، وهي بدلالة آيات أخرى ست عشرة معجزة ، كما بينا في التفسير ، واخترنا مااختاره الرازي وغيره أنها آيات الكتاب والأحكام .

ولم تكن الإحالة بالسؤال إلى بني إسرائيل عن هذه الآيات إلا من قبيل الاستفهام والإلزام ، ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد ﷺ .

وبالرغم من دعم موسى بهذه الآيات ، فلم يؤمن فرعون برسالته ، وإنما قال له : ﴿ وإني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ أي ساحراً بغرائب أفعالك ، أو مسحوراً من غيرك مختلط العقل مخبولاً . والظن هنا على حقيقته المفيد رجحان الوقوع .

٢ ـ لم يجد موسى جواباً لفرعون إلا الاعتصام بربه ، وإعلانه أن هذه الآيات منزلة من رب السماء والأرض بصائر ، أي دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته وتصديقه موسى في نبوته ، وقال له : ﴿ إني لأظنك يافرعون مثبوراً ﴾ والظن هنا بمعنى التحقيق والتيقن ، والثبور : الهلاك والخسران .

٣ ـ لم يجد الطاغية فرعون غير استخدام السلطة والقوة ، وصمم على إخراج موسى وبني إسرائيل إما بالقتل أو بالإبعاد ، فأهلكه الله عز وجل ، وأسكن بني إسرائيل من بعد إغراقه أرض الشام ومصر . ثم يأتي الله بالجميع يوم القيامة من قبورهم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر دون تمييز ولا تحيز ، ويحاسب كل امرئ على ماقدم .

٤ ـ أنزل الله القرآن متضمناً الحق والعدل والشريعة والحكم الأمثل ، والجمع بين الإنزالين لمعنيين ، فقوله : ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ أي أوجبنا إنزاله بالحق ، وقوله : ﴿ وبالحق نزل ﴾ أي ونزل وفيه الحق ، أو أن الأول معناه : مع الحق ، والثاني بالحق أي بمحمد ﷺ ، أي نزل عليه .

٥ ـ كان إنزال القرآن منجماً مقسطاً على حسب الوقائع والمناسبات في مدى ثلاث وعشرين سنة ، ليتمكن الناس من قراءته على مهل وتدبر وإمعان ، وليعملوا به تفصيلاً ، فإنهم لو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا .

٦ ـ هدد الله تعالى مشركي قريش وأبدى إعراضه عنهم ، لا على وجه التخيير قائلاً لهم : ﴿ قل : آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ فإن العلماء السابقين من أهل الكتاب وهم مؤمنو أهل الكتاب آمنوا به عن يقين ، ولم يتمالكوا أنفسهم عند سماعه إلا السجود لله خاضعين خاشعين باكين من خشية الله ، قائلين : ﴿ سبحانَ رَبّنا ، إن كان وَعْدُ ربّنا لَمفْعُولاً ﴾ أي منجزاً بإنزال القرآن وبعث محمد ﷺ .

٧ ـ قوله ﴿ يبكون ﴾ دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصيته في دين الله ، وأن البكاء لا يقطعها ولا يضرها . وقيد ذلك بعض الفقهاء بألا يكون مقروناً بصوت وكلام .

أما الأنين فلا يقطع الصلاة للمريض ، ويكره للصحيح في رأي مالك . وكذلك التنحنح والنفخ لا يقطع الصلاة عند مالك . وقال الشافعي : إن كان له حروف تسمع وتفهم يقطع الصلاة . وقال أبو حنيفة : إن كان من خوف الله لم يقطع ، وإن كان من وجع قطع .

دعاء الله بالأسماء الحسنى

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

الإعراب :

﴿ أياً ماتدعو ﴾ ﴿ أياً ﴾ : شرطية ، منصوب بتدعوا ، والتنوين في ﴿ أياً ﴾ عوض عن المضاف إليه ، و﴿ ما ﴾ : زائدة للتأكيد ، و﴿ تدعو ﴾ : مجزوم بأي ، وفاء ﴿ فله ﴾ جواب الشرط ، وقوله ﴿ ادعوا ﴾ يتعدى إلى مفعولين ، تقول : دعوته زيداً .

البلاغة :

﴿ تجهر ﴾ ﴿ وتخافت ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ ادْعُوا الله أو ادْعُوا الرحمن ﴾ أي سموه بأي واحد من هذين الاسمين ، أو نادوه بأن تقولوا : يالله ، يارحمن ﴿ أياً ماتدعوا ﴾ أي هذين تدعوا فهو حسن ، والدعاء هنا : التسمية ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ فلله الأسماء الحسنى ، وهذان منها ، وكونها أسماء حسنى لدلالتها على صفات الجلال والإكرام . وقوله : ﴿ فله ﴾ للمسمى ؛ لأن التسمية له ، لا للاسم ، وكان أصل الكلام : أيّاً ماتدعو فهو حسن ، فوضع موضعه ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ للمبالغة والدلالة على ماهو الدليل على الله تعالى .

والأسماء الحسنى تسع وتسعون ، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي : الله الذي لا إله إلا هو : الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدّوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبّار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصوّر ، الغفار ، القهّار ، الوهّاب ، الرزّاق ، الفتّاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المُعِزّ ، المُذِلّ ، السميع ، البصير ، الحكَم ، العَدْل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المُقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحقّ ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المُحْصِي ، المُبْدِئ ، المُعِيد ، المُحْيي ، المُميت ، الحيُّ ، القيُّوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدّم ، المؤخّر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعال ، البرّ ، التواب ، المنتقم ، العفُوّ ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المُقْسِط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضارّ ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور .

﴿ ولاتجهر بصلاتك ﴾ بقراءتك فيها ، فيسمعك المشركون ، فيسبوك ويسبوا القرآن ومن

أنزله ﴿ ولا تخافت بها ﴾ ولا تسرّ بقراءتك ، لينتفع أصحابك ﴿ وابتغ ﴾ اقصد ﴿ بين ذلك ﴾ الجهر والمخافتة ﴿ سبيلاً ﴾ طريقاً وسطاً .

﴿ شريك في المُلْك ﴾ في الألوهية ﴿ ولم يكن له ولي ﴾ متولي أمره ينصره ﴿ من الذل ﴾ من أجل الذل ، أي لم يذل ، فيحتاج إلى ناصر ، أي لم يكن له ولي يواليه من أجل مذلّة به ، ليدفعها بموالاته ﴿ وكبّره تكبيراً ﴾ عظّمه تعظيماً تاماً منزهاً عن اتخاذ الولد والشريك والذل وكل مالا يليق به .

وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع المحامد ، لكمال ذاته وتفرده في صفاته . وفيه تنبيه على أن العبد ، وإن بالغ في التنزيه والتمجيد ، واجتهد في العبادة والتحميد ، ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه في ذلك .

روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ الجُهَني عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول : « آية العز : ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في المُلْك ﴾ إلى آخر السورة » .

سبب النزول :

نزول الآية : ﴿ قل : ادعوا الله ... ﴾:

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : صلى صلوات الله عليه بمكة ذات يوم ، فدعا الله تعالى ، فقال في دعائه : يا الله ، يا رحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ، ينهانا أن ندعو إلهين ، وهو يدعو إلهين ، فنزل : ﴿ قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ... ﴾ الآية .

وقال ميمون بن مَهْران : كان رسول الله ﷺ يكتب في أول ما يوحى إليه : باسمك اللهم ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال مشركو العرب : هذا الرحيم نعرفه ، فما الرحمن ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال الضحاك : قال أهل التفسير : قيل لرسول الله ﷺ : إنك لتُقِلّ ذكر الرحمن ، وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

نزول الآية : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾:

أخرج أحمد والشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قال : نزلت ورسول الله ﷺ مُخْتَفٍ بمكة ، وكانوا إذا سمعوا القرآن ، سبّوا القرآن ومن أنزله ، ومن جاء به ، فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون ، فيسبوا القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك فلا يسمعون ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ .

وروي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخْفِت في قراءته ، ويقول : أناجي ربي ، وقد علم حاجتي ، وعمر كان يجهر بها ويقول : أطرد الشيطان ، وأوقظ الوَسْنان ، فلما نزلت الآية ، أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع صوته قليلاً ، وعمر أن يخفض قليلاً .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نزول الآية (١١١):

﴿ وقل الحمد لله ﴾: أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : إن اليهود والنصارى قالوا : ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، وقال الصابئون والمجوس ، لولا أولياء الله لذل ، فأنزل الله : ﴿ وقل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ... ﴾ الآية .

المناسبة :

بعد أن الله أثبت تعالى أنه أنزل القرآن على رسوله ﷺ ، وأن العرب عجزوا عن معارضته ، وأنه ﷺ قد جاءهم بتوحيد الله ورفض آلهتهم ، عدلوا إلى رميه عليه الصلاة والسلام بأن ما نهاهم عنه رجع هو إليه ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ قل ادعوا الله .. ﴾ الآية .

ولما ذكر تعالى أنه واحد ، وإن تعددت أسماؤه ، أمر الله تعالى نبيه أن يحمده على ماأنعم به عليه من شرف الرسالة والاصطفاء ، ووصف نفسه بأنه لم يتخذ ولداً ، للرد على اليهود والنصارى والعرب الذين عبدوا الأصنام ، وجعلوها شركاء لله ، والعرب الذين عبدوا الملائكة واعتقدوا أنهم بنات الله ، فنفى الولد أولاً ، ثم نفى الشريك في ملكه ، ثم نفى الولي وهو الناصر ، والشريك أعم من الولد ، والولي الناصر أعم من نسبة الولد والشريك ، فهو أعم من أن يكون ولداً ، أو شريكاً أو غير شريك .

التفسير والبيان :

هذا رد على المشركين الذين أنكروا إطلاق اسم الرحمن على الله عز وجل ، فقال : ﴿ قل : ادعوا الله أو ادعوا الرحمن .. ﴾ أي قل يامحمد لهؤلاء المشركين في مكة المنكرين صفة الرحمة لله تعالى ، المانعين من تسميته بالرحمن : لافرق في دعائكم لله باسم ﴿ الله ﴾ أو باسم ﴿ الرحمن ﴾ فإنه ذو الأسماء الحسنى . قال في الكشاف : الله والرحمن المراد بهما الاسم ، لا المسمى ، وأو للتخيير ، فمعنى ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ سموا بهذا الاسم أو بهذا ، واذكروا إما هذا وإما هذا ، والدعاء بمعنى التسمية ، لا بمعنى النداء[1] .

وقوله ﴿ أياً ماتدعو فله الأسماء الحسنى ﴾ التقدير : أيّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم ، فكل أسمائه حسنى ، فيها تعظيمه وتقديسه ، كما قال : ﴿ له الأسماء الحسنى ، يُسبِّحُ له مافي السمواتِ والأرْضِ ﴾ [الحشر ٢٤/٥٩] فأي اسم تدعونه به فهو حسن .

ثم أرشد الله إلى كيفية القراءة والدعاء ، فقال :

﴿ ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ أي ولاتجهر

(١) الكشاف : ٢٤٩/٢

بقراءة صلاتك ، حتى لا يسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ويسبوا من أنزله ، ومن جاء به ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، وابتغ بين الجهر والمخافته سبيلاً وسطاً ، فهذه هي الطريقة المثلى في القراءة ، وهي الحد الوسط بين الجهر بالصوت والإسرار والإخفات فيه ، ففي الجهر حتى لا يتفرقوا عنه ويأبوا أن يسمعوا منه ، أو يسبوا القرآن ، وفي الإسرار ليسمع من أراد السماع فينتفع به .

ثم علّمنا تعالى كيفية الحمد ، فقال :

﴿ وقل : الحمد لله ... ﴾ أي وقل : لله الحمد والشكر على ما أنعم على عباده ، وهو الموصوف بالصفات الثلاث التالية لتنزيه نفسه عن النقائص :

الأولى ـ إنه لم يتخذ ولداً : فهو غير محتاج إليه ، واتخاذ الولد من صفات الحوادث ، وهو منزه عنها . وفي هذا رد على اليهود القائلين : عزير ابن الله ، والنصارى القائلين : المسيح ابن الله .

الثانية ـ ليس له شريك في المُلْك والسلطان : لأنه أيضاً غير محتاج إليه ، ولو احتاج إلى شريك لكان عاجزاً ، ولأن تعدد الآلهة يؤدي إلى الفساد والنزاع : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفَسَدتا ﴾ [الأنبياء ٢١/٢٢] . ولم يعرف المستحق للعبادة والحمد والشكر .

الثالثة : لم يكن له ولي من الذل : أي ليس بذليل حتى يوالي أحداً لمذلة ، من ولي أو وزير أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لاشريك له ، ومدبرها ومقدرها بمشيئته[1] .

ومجموع هذه الصفات في قوله سبحانه : ﴿ قل : هو اللهُ أحدٌ ، اللهُ الصمدُ ، لم

(١) تفسير الرازي : ٢١/٧١

يَلِدْ ولم يُولَدْ ، ولم يكنْ له كُفُوَاً أحدٌ ﴾ [الإخلاص ١١٢/١ـ٤] .

﴿ وكبّره تكبيراً ﴾ أي عظمه وأجلّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً ، فذلك التعظيم الذي يتناسب مع جلاله وعظمته وقدسيته ، فهو الكبير المتعال في ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته وأنه غني عن كل الوجود ؛ وفي صفاته فله صفات الكمال المنزه عن كل صفات النقصان ؛ وفي أفعاله ، فلا يحدث شيء في مُلكه إلا بمقتضى حكمته ومشيئته ؛ وفي أحكامه ، فله مطلق الأمر والنهي والعز والذل ، لا معقب لحكمه ، ولا اعتراض لأحد على شيء من أحكامه ؛ وفي أسمائه فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية[1] .

روى أحمد عن مُعاذ الجهني أن رسول الله ﷺ كان يقول : « آية العز : ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ الآية ». وروى عبد الرزاق عن عبد الكريم بن أبي أمية قال : « كان رسول الله ﷺ يعلّم الغلام من بني هاشم إذا أفْصَح : ﴿ الحمدُ لله ﴾ إلى آخر الآية ، سبع مرات ».

فقه الحياة أو الأحكام :

أوضحت الآيات أن دعاء الله وتسميته يكون بكل اسم من أسمائه الحسنى ، التي منها الله والرحمن ، وليس ذلك تعدداً في الآلهة كما فهم المشركون خطأ ، وإنما التسمية بأسماء متعددة لمسمى واحد .

والدعاء أو القراءة في الصلاة يكون بطريقة متوسطة بين الجهر والإسرار ، وإذا كان السبب الداعي لذلك وهو تفادي سماع المشركين وسبهم القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، أو نفرتهم عنه وإبائهم سماعه ، فإننا نحتفظ بالتزام هذه الطريقة ، تذكراً لحال التشريع وظروفه الأولى التي صاحبته .

وقد عبر الله تعالى بالصلاة في الآية هنا عن القراءة ، كما عبر بالقراءة عن

(١) تفسير الرازي : ٧٢/٢١

الصلاة في قوله : ﴿ وقرآنَ الفَجْر ، إن قرآنَ الفَجْر كان مَشْهوداً ﴾ [الإسراء ٧٨/١٧] لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر ؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهي من جملة أجزائها ، فعبَّر بالجزء عن الجملة ، وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في المجاز ، وهو كثير .

وقوله سبحانه : ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ رد على اليهود والنصارى والعرب في قولهم : عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه ، فهو تعالى لا والد له ولا صاحبة ولا ولد ، وهو واحد لاشريك له في ملكه وعبادته ، وليس له ناصر مدافع عنه يجيره من الذل ، لم يحالف أحداً ، ولا ابتغى نصر أحد .

وهو تعالى يستحق التعظيم التام والإجلال ، ويقال : أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال : الله أكبر ، أي أنه أكبر من كل شيء ، وكان النبي ﷺ إذا دخل في الصلاة قال : الله أكبر . وقال عمر بن الخطاب : « قول العبد : الله أكبر خير من الدنيا ومافيها » .

وهذه الآية ﴿ الحمد لله ... ﴾ هي خاتمة التوراة . قال عبد الله بن كعب : افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام ، وختمت بخاتمة هذه السورة .

وفي خبر معاذ بن جبل عن النبي ﷺ : « أنها آية العز » ، كما بينا .

وقال عبد الحميد بن واصل : سمعت عن النبي ﷺ أنه قال : « من قرأ : ﴿ وقل الحمد لله ﴾ الآية ، كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال ؛ لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولداً : ﴿ تكاد السمواتُ يتفطَّرنَ منه وتنشقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبال هَدّاً ﴾ [مريم ٩٠/١٩] .

وجاء في الخبر أن النبي ﷺ « أمر رجلاً شكا إليه الدَّيْن بأن يقرأ : ﴿ قل : ادْعُوا الله أو ادْعُوا الرحمنَ ﴾ إلى آخر السورة ، ثم يقول : توكَّلت على الحي الذي لا يموت ؛ ثلاث مرات » .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكهف

مكية ، وهي مئة وعشر آيات .

تسميتها :

سميت سورة الكهف ، لبيان قصة أصحاب الكهف العجيبة الغريبة فيها في الآيات [٩-٢٦] مما هو دليل حاسم ملموس على قدرة الله الباهرة .

وهي إحدى سور خمس بدئت بـ ﴿ الحمدُ لله ﴾ : وهي الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر . وهو استهلال يوحي بعبودية الإنسان لله تعالى ، وإقراره بنعمه وأفضاله ، وتمجيد الله عز وجل ، والاعتراف بعظمته وجلاله وكماله .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة وضع هذه السورة بعد سورة الإسراء من نواحٍ : هي افتتاح الإسراء بالتسبيح ، وهذه بالتحميد ، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد ، نحو : ﴿ فسبِّح بحمد ربك ﴾ [الحجر ١٥/٩٨] وفي الحديث : « سبحان الله وبحمده » . كما أن الإسراء اختتمت بالتحميد أيضاً ، فتشابهت الأطراف أيضاً .

ولما أمر اليهود المشركين أن يسألوا النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء : عن الروح ، وعن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذي القرنين ، أجاب تعالى في آخر سورة بني إسرائيل عن السؤال الأول ، وقد أفرد فيها لعدم الجواب عن الروح ، ثم أجاب تعالى في سورة الكهف عن السؤالين الآخرين ، فناسب اتصالها ببعضها .

ولما ذكر تعالى في الإسراء : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [٨٥] ناسب ذكر قصة موسى مع العبد الصالح الخضر ، كالدليل على ما تقدم . وقد ورد في الحديث : أنه لما نزل : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قال اليهود : قد أوتينا التوراة فيها علم كل شيء ، فنزل : ﴿ قل : لو كَانَ البحرُ مِدَاداً لكلماتِ ربِّي لَنَفِدَ البحر ..﴾ [١٠٩] .

ولما قال تعالى في الإسراء : ﴿ فإذا جاء وَعْدُ الآخرةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ [١٠٤] أعقبه في سورة الكهف بالتفصيل والبيان بقوله : ﴿ فإذا جاءَ وَعْد ربِّي ، جَعَله دكاءَ ، وكان وعد ربي حقاً ﴾ إلى قوله : ﴿ وعَرَضْنَا جهنَّمَ يومئذٍ للكافرين عَرْضاً ﴾ [٩٨ ـ ١٠٠][1] .

والخلاصة : أنه تعالى لما قال في آخر الإسراء : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ وذكر المؤمنين به أهل العلم ، وأنه يزيدهم خشوعاً ، وأنه تعالى أمر بالحمد له وأنه لم يتخذ ولداً ، أمره تعالى بحمده على إنزال هذا الكتاب السالم من العوج ، القيم على كل الكتب ، المنذر من اتخذ ولداً ، المبشر المؤمنين بالأجر الحسن .

ثم استطرد إلى حديث كفار قريش ، والتفت من الخطاب في قوله : ﴿ وكبِّره تكبيراً ﴾ إلى الغيبة في قوله : ﴿ على عبده ﴾ لما في عبده من الإضافة المقتضية تشريفه .

ما اشتملت عليه السورة :

استهلت السورة ببيان وصف القرآن بأنه قيم مستقيم لا اختلاف فيه ولا تناقض في لفظه ومعناه ، وأنه جاء للتبشير والإنذار .

ثم لفتت النظر إلى مافي الأرض من زينة وجمال وعجائب تدل دلالة واضحة على قدرة الله تعالى .

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ٦٤ وما بعدها ، طبع دار الكتاب العربي ـ دمشق .

وتحدثت السورة عن ثلاث قصص من روائع قصص القرآن وهي قصة أصحاب الكهف ، وقصة موسى مع الخضر ، وقصة ذي القرنين . أما قصة أصحاب الكهف [٩-٢٦] فهي مثل عالٍ ، ورمز سام للتضحية بالوطن والأهل والأقارب والأصدقاء والأموال في سبيل العقيدة ، فقد فرّ هؤلاء الشباب الفتية المؤمنون بدينهم من بطش الملك الوثني ، واحتموا في غار في الجبل ، فأنامهم الله ثلاث مئة وتسع سنين قمرية ، ثم بعثهم ليقيم دليلاً حسياً للناس على قدرته على البعث .

واتبع الله تعالى تلك القصة بأمر النبي ﷺ بالتواضع ومجالسة الفقراء المؤمنين وعدم الفرار منهم إلى مجالسة الأغنياء لدعوتهم إلى الدين : ﴿ واصبرْ نَفْسَك مع الذين يَدْعُون ربَّهم ..﴾ [٢٨] .

ثم هدد الله تعالى الكفار بعد إظهار الحق ، وذكر ما أعده لهم من العذاب الشديد في الآخرة : ﴿ وقلِ الحقُّ من ربِّكم ..﴾ [٢٩] وقارن ذلك بما أعده سبحانه من جنات عدن للمؤمنين الصالحين [٣٠-٣١] .

وأما قصة موسى مع الخضر في الآيات [٦٠-٧٨] فكانت مثلاً للعلماء في التواضع أثناء طلب العلم ، وأنه قد يكون عند العبد الصالح من العلوم في غير أصول الدين وفروعه ماليس عند الأنبياء ، بدليل قصة خرق السفينة ، وحادثة قتل الغلام ، وبناء الجدار .

وأما قصة ذي القرنين في الآيات [٨٣-٩٩] فهي عبرة للحكام والسلاطين ، إذ أن هذا الملك تمكن من السيطرة على العالم ، ومشرق الأرض ومغربها ، وبنائه السد العظيم بسبب ما اتصف به من التقوى والعدل والصلاح .

وتخللت هذه القصص أمثلة ثلاثة بارزة رائعة مستمدة من الواقع ، لإظهار أن الحق لا يقترن بالسلطة والغنى ، وإنما يرتبط بالإيمان ، وأول هذه الأمثلة : قصة أصحاب الجنتين [٣٢-٤٤] للمقارنة بين الغني المغتر بماله ، والفقير المعتز

بإيمانه ، لبيان حال فقراء المؤمنين وحال أغنياء المشركين .

وثانيها : مثل الحياة الدنيا [٤٥-٤٦] لإنذار الناس بفنائها وزوالها . وأردف ذلك بإيراد بعض مشاهد القيامة الرهيبة من تسيير الجبال ، وحشر الناس في صعيد واحد ، ومفاجأة الناس بصحائف أعمالهم [٤٧-٤٩] .

وثالثها : قصة إبليس وإبائه السجود لآدم [٥٠-٥٢] للموازنة بين التكبر والغرور ، وما أدى إليه من طرد وحرمان وتحذير الناس من شر الشيطان ، وبين العبودية لله والتواضع ، وما حقق من رضوان الله تعالى .

وأردف ذلك بيان عناية القرآن بضرب الأمثال للناس للعظة والذكرى ، وإيضاح مهام الرسل للتبشير والإنذار ، والتحذير من الإعراض عن آيات الله [٥٤-٥٧] .

وأن سياسة التشريع اقتران الرحمة بالعدل ، فليست الرحمة فوق العدل ولا العدل فوق الرحمة : ﴿ وربُّك الغفورُ ذُو الرحمة ﴾ [٥٨-٥٩] .

وختمت السورة بموضوعات ثلاثة : أولها - إعلان تبديد أعمال الكفار وضياع ثمرتها في الآخرة [١٠٠-١٠٦] وثانيها - تبشير المؤمنين الذين عملوا الصالحات بالنعيم الأبدي الأخروي [١٠٧-١٠٨] وثالثها - أن علم الله تعالى لا يحده حد ولا نهاية له [١٠٩-١١٠] .

فضل هذه السورة :

ورد في فضائل سورة الكهف أحاديث صحاح ثابتة ، منها : ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ، عصم من الدجال » .

ومنها : ما رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي ، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ

قال : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ، عصم من فتنة الدجال » . وفي لفظ النسائي : « من قرأ عشر آيات من الكهف ..» الحديث .

ومنها : ما أخرجه النسائي في سننه عن ثوبان ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ، فإنه عِصْمة له من الدجال » .

دلت هذه الأحاديث على أن قراءة الآيات العشر الأوائل أو الأواخر أو أي عشر آيات عصمة من فتنة الدجال .

والسنة أن يقرأ الشخص الكهف يوم الجمعة وليلتها ، لما رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد عن النبي ﷺ : « من قرأ الكهف في يوم الجمعة ، أضاء له من النور مابين الجمعتين » وروى الدارمي والبيهقي : « من قرأها ليلة الجمعة ، أضاء له من النور مابينه وبين البيت العتيق » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كيفية الحمد والثناء على الله تعالى ومهام القرآن العظيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ
ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾
فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً
لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

الإعراب :

﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ الواو للعطف على ﴿ أنزل ﴾ . والأولى جعل الواو للحال من الكتاب ، على تقدير : أنزل الكتاب على عبده غير مجعول له عوج ﴿ قيّماً ﴾ . وهو أولى من جعله معطوفاً على ﴿ أنزل ﴾ لما فيه من الفصل بين بعض الصلة وبعض ، فلو كان للعطف ، كان المعطوف فاصلاً بين أبعاض المعطوف عليه ، ولذلك قيل في الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : أنزل الكتاب قيماً ، ولم يجعل له عوجاً .

﴿ قيماً ﴾ قال في الكشاف : الأحسن أن ينتصب بمضمر ، ولا يجعل حالاً من ﴿ الكتاب ﴾ ، منعاً من الفصل بين الحال وصاحبه . وقيل : حال من ﴿ الكتاب ﴾ .

﴿ لينذر بأساً ﴾ اللام متعلقة بأنزل ، و ﴿ بأساً ﴾ : مفعول ثانٍ لينذر ، والمفعول الأول محذوف ، تقديره : لينذركم بأساً شديداً من لدنه .

﴿ من لدُنْه ﴾ قرئ بضم الدال على الأصل ، وبإسكانها على وزن عضْد وحذف الضمة فيقال : عضد ولدْن ، وبإشمامها بالضم للتنبيه على أن أصلها هو الضم .

﴿ ماكثين فيه ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿ لهم ﴾ .

﴿ كبُرت كلمةً ﴾ تمييز منصوب ، أي : كبرت الكلمة كلمة . و ﴿ تخرج ﴾ جملة فعلية صفة ﴿ كلمة ﴾ .

﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ أي ما يقولون إلا كذباً . وكذباً منصوب بيقولون ، مثل : قلت شعراً أو خطبة .

﴿ أسفاً ﴾ منصوب على المصدر ، في موضع الحال ، أو مفعول لأجله .

﴿ زينة لها ﴾ مفعول ثانٍ لجعلنا بمعنى صيّرنا . وإن جعل بمعنى خلقنا فهو مفعول به له .

البلاغة :

﴿ يبشر ﴾ ﴿ وينذر ﴾ بينهما طباق .

﴿ لينذر بأساً شديداً ﴾ ﴿ وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ﴾ فيه إطناب بذكر الخاص بعد العام . وفي كل منهما حذف بديع ، فحذف من الجملة الأولى المفعول الأول أي لينذر الكافرين بأساً ، وحذف من الجملة الثانية المفعول الثاني ، وهو عذاباً ، فحذف لدلالة الأول عليه ، وحذف من الأول المنذرين لدلالة الثاني عليه .

﴿ باخع نفسك على آثارهم ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه حاله ﷺ مع المشركين بحال من فارقته الأحباب ، فهمّ بإهلاك نفسه حزناً عليهم .

﴿ لعلك باخع ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النهي ، أي لا تبخع نفسك لإعراضهم عن الإيمان أسفاً .

المفردات اللغوية :

﴿ الحمد لله ﴾ الحمد : الوصف بالجميل ثابت لله تعالى ، وهو تعليم للعباد كيف يثنون على الله ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام ، وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم ﴿ الكتاب ﴾ القرآن ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ ولم يجعل له شيئاً من العوج قط ، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان ، والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وألفاظه .

﴿ قيماً ﴾ مستقيماً معتدلاً ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، فلا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف منعاً للمشقة والحرج ، ولا تفريط فيه بإهمال ما يحتاج إليه . وفائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة هو التأكيد ، فرب مستقيم لا يخلو من أدنى عوج عند التأمل . وقيل : قيماً على سائر الكتب ، مصدقاً لها ، شاهداً بصحتها ، وقيل : قيماً بمصالح العباد ، وما لابد لهم منه من الشرائع ، فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال .

﴿ لينذر ﴾ ليخوف بالكتاب الكافرين وهو متعلق بأنزل ﴿ بأساً ﴾ عذاباً في الآخرة ﴿ من لدنه ﴾ من قبله أو من عنده . حذف المفعول الأول لفعل ﴿ ينذر ﴾ ـ وهذا من بديع الحذف وجليل الفصاحة ـ لأن المنذر به هو الغرض المسوق إليه ، فاقتصر عليه ، ودل عليه ذكر المنذَرين في قوله : ﴿ وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ﴾ من غير ذكر المنذر به لتقدم ذكره ، كما ذكر المبشر به في قوله : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴾ والأجر الحسن : الجنة .

﴿ مالهم به ﴾ بهذا القول أو باتخاذ الولد ﴿ ولا لآبائهم ﴾ من قبلهم ، والمعنى : أنهم يقولونه عن جهل مفرط وتوهم كاذب ، أو تقليد لما سمعوه من أوائلهم ﴿ كبُرت كلمة ﴾ عظمت ، والمخصوص بالذم محذوف أي مقالتهم المذكورة ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ ما يقولون في ذلك إلا مقولاً كذباً .

﴿ باخع ﴾ مهلك نفسك أو قاتلها ﴿ على آثارهم ﴾ أي من بعدهم ، أي من بعد توليهم عن الإيمان ﴿ الحديث ﴾ القرآن ﴿ أسفاً ﴾ غيظاً وحزناً منك ، لحرصك على إيمانهم . والأسف : المبالغة في الحزن والغضب ﴿ ما على الأرض ﴾ من الحيوان والنبات والشجر والأنهار وغير ذلك ﴿ لنبلوهم ﴾ لنختبر الناس ، ناظرين إلى نتيجة الاختبار ﴿ أيهم أحسن عملاً ﴾ في تعاطيه ، وهو من زهد فيه ، ولم يغتر به ، وصرفه على ما ينبغي من الإتقان ﴿ صعيداً ﴾ تراباً ﴿ جُرُزاً ﴾ يابساً لا نبات فيه .

التفسير والبيان :

﴿ الحمد لله ... ﴾ يحمد الله تعالى نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ؛ إذ أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، بل يهدي إلى صراط مستقيم ، فمعنى قوله : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً بل جعله معتدلاً مستقيماً

والحمد معناه : الشكر والثناء بالجميل على الفعل الجميل الصادر بالاختيار من الله تعالى . والله تعالى محمود على كل حال ، ويحمد نفسه أحياناً عند فواتح السور وخواتمها ، لتعليم العباد كيف يحمدونه على نعمه الجليلة التي أنعم بها عليهم ، ومن أهمها نعمة الإسلام وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم .

﴿ قيّماً ، لينذر بأساً شديداً من لدنه .. ﴾ أي مستقيماً ، وأتى بهذه الصفة بعد نفي الاعوجاج للتأكيد ، فربّ مستقيم مشهود له بالاستقامة لا يخلو من أدنى عوج عند الفحص والاختبار . وقيل : معناه : قيماً على سائر الكتب ، مصدقاً لها ، شاهداً بصحتها . وقيل : قيماً بمصالح العباد ، وما لابد لهم منه من الشرائع .

﴿ لينذر ﴾ أي ليخوف الذين كفروا بالكتاب عذاباً شديداً ، وعقوبة عاجلة في الدنيا وهو النكال ، وآجلة في الآخرة وهو نار جهنم . وقوله : ﴿ من لدنه ﴾ أي صادراً من عند الله تعالى .

﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ بهذا القرآن ، الذين دعموا إيمانهم بالعمل الصالح ، أن لهم مثوبة جميلة عند الله ، وهي الجنة دار المتقين الأبرار ، ودار الخلود أبداً للمحسنين الأخيار ، فالأجر الحسن : الجنة .

﴿ ماكثين فيه أبداً ﴾ أي مستقرين في ثوابهم عند الله وهو الجنة إلى الابد ، وخالدين فيه دائماً ، لا زوال له ولا انقضاء .

﴿ وينذر الذين قالوا ... ﴾ أي ويحذر الكفار الذين زعموا أن لله ولداً ، وهم مشركو العرب الذين قالوا : نحن نعبد الملائكة بنات الله ، واليهود الذين اتخذوا عزيراً ابن الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله .

وإنما خصّ ذكر هؤلاء مع دخولهم في الإنذار العام المتقدم للكافرين ، للدلالة على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى .

﴿ مالهم به من علم ولا لآبائهم ﴾ أي مالهم ولا لآبائهم أي أسلافهم علم ثابت بهذا القول الذي افتروه وهو اتخاذ الولد لله أو الوالد ، وإنما هو صادر عن جهل مفرط وتقليد للآباء ، ومن تسويل الشيطان . وانتفاء العلم بالشيء : إما للجهل بالطريق الموصل إليه ، وإما لأنه في نفسه محال لا يصلح محلاً للعلم به .

﴿ كَبُرت كلمةً تخرج من أفواههم ﴾ أي عظمت تلك الكلمة التي ينطقون بها ، ويخرجونها من أفواههم متجرئين على النطق بها ، وهي كلمة الكفر ، فليس لها مستند سوى قولهم ، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم ، ولهذا قال : ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ أي ما يقولون إلا قولا مجرد كذب وزور ، ولا حقيقة له أصلاً .

ثم سرّى الله تعالى عن رسوله عليه الصلاة والسلام وواساه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه بقوله :

﴿ فلعلّك باخع نفسك على آثارهم .. ﴾ أي فلعلك قاتل نفسك ومهلكها لأن لم يؤمنوا بهذا القرآن ، أسفاً وحسرة عليهم ، ولعل هنا للاستفهام الإنكاري المتضمن معنى النهي ، أي لا تهلك نفسك أسفاً لعدم إيمانهم ، ولا تقتلها غضباً

وجزعاً وحزناً عليهم ، بل أبلغهم رسالة الله ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضلَّ فإنما يضل عليها . والآثار جمع أثر أي على أثر توليهم وإعراضهم عنك .

وللآية نظائر كثيرة منها : ﴿ فلا تذهبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ ﴾ [فاطر ٨/٣٥] ومنها : ﴿ لعلَّك باخِعٌ نفسَك ألا يَكُونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء ٣/٢٦] ومنها : ﴿ ولا تَحْزنْ عليهم ولا تكُ في ضَيْقٍ مما يَمْكُرون ﴾ [النحل ١٢٧/١٦] .

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية زائلة ، وأنها دار اختبار لا دار قرار ، فقال :

﴿ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها ... ﴾ أي إنا جعلنا ماعلى الأرض من زخارف الدنيا من إنسان وحيوان ونبات ومعادن ومنازل ومباهج ومفاتن زينة زائلة لها ولأهلها ، لنعاملهم معاملة المختَبَرين ، ليعرف المحسن عمله من الفاسد ، فنجازي المحسن بالثواب ، والمسيء بالعقاب . وحسن العمل : الزهد في الدنيا ، وترك الاغترار بها ، وجعلها وسيلة وجسراً للآخرة . أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون » .

ثم ذكر الله تعالى سبب التوجيه بالإعراض عن الكفار ، فقال :

﴿ وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرُزاً ﴾ أي وإنا لنصير الأرض وما عليها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، فقوله : ﴿ صعيداً جُرُزاً ﴾ يعني كالأرض البيضاء التي لا نبات فيها ولا ينتفع بها ، بعد أن كانت خضراء معشبة . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فيذَرُها قاعاً صَفْصفاً لاترى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً ﴾ [طه ١٠٧/٢٠] . والصعيد : الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات . والجُرُز في اللغة : اليابسة التي لاتنبت ، أو الأرض التي لا نبات فيها .

والمقصود من الآية تسلية الرسول ﷺ والقول له : لاتحزن فإنا سنهلكهم ونبيدهم .

فقه الحياة أو الأحكام :

أوضحت الآيات أن أعظم نعمة من الله على عباده إنزال القرآن الكريم ، الدواء الناجع لمشكلات البشرية ، والمنقذ من الظلمات إلى النور ، والحق العدل المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء .

ومهمته أيضاً إنذار الكافرين وتخويفهم بالعذاب الشديد في نار جهنم والنكال في الدنيا ، وخصوصاً المشركين الذين اتخذوا لله ولداً وهم كفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، واليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله . ولا دليل لهم ولا لأسلافهم على ما يقولون ، وتلك كلمة كبيرة الإثم ، شديدة الشناعة ، عظيمة الجرم .

وللقرآن مهمة أخرى هي تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات من التصديق بما جاء به النبي ﷺ ، والتزام الأوامر واجتناب النواهي بالأجر الحسن وهو الجنة التي يخلد فيها أهلها ، فهي دار الخلد التي لا يموتون فيها .

ولا يغترن أحد بالدنيا وما فيها من زينة وزخارف ومباهج ، فتلك للاختبار والامتحان ، ليعرف الصالحون الأبرار من المفسدين الفجار ، ثم مآلها إلى الفناء والزوال والدمار والخراب ، والرجوع إلى الملك الإله الدَّيَّان ، ليجزي كل إنسان بعمله .

وإذا كان هذا هو المصير المحتوم ، فلا تأس ولا تحزن أيها الرسول على ماترى وتسمع في الدنيا ، ولا حاجة لإتعاب نفسك وإهلاكها وقتلها بسبب توليهم وإعراضهم عنك ، وعدم إيمانهم بالقرآن ، وأسفاً أي حزناً وغضباً على كفرهم .

قصة أصحاب الكهف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟
رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم
بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ
وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ
أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ
ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا
مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ
بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟
بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم
بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا

﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا
عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا
ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۗ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا
﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ
سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ
وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي
كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

الإعراب :

﴿ من آياتنا عجباً ﴾ (٩) ﴿ من آياتنا ﴾ حال ، و ﴿ عجباً ﴾ : خبر كان ، وهو وصف بالمصدر ، أو على ذات عجب .

﴿ سنين عدداً ﴾ (١١) ﴿ سنين ﴾ : ظرف منصوب ، و ﴿ عدداً ﴾ : وصف لسنين منصوب ، على معنى : ذات عدد ، أو منصوب على المصدر .

﴿ أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ (١٢) : أي : مبتدأ مرفوع ، ﴿ أحصى ﴾ : فعل ماض خبر المبتدأ ، والجملة من المبتدأ والخبر سدت مسدّ مفعولي ﴿ نعلم ﴾ و ﴿ أمداً ﴾ : ظرف زمان منصوب ، وعامله : ﴿ أحصى ﴾ ، وهو الأوجه ، وقيل : ﴿ لبثوا ﴾ . ولما لبثوا : حال من ﴿ أمداً ﴾ أو مفعول لأجله . ﴿ لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ (١٤) : ﴿ شططاً ﴾ : صفة مصدر محذوف ، فهو منصوب على المصدر ، أي قولاً شططاً ، أو منصوب بقلنا ، مثل : قلنا شعراً .

﴿ لولا يأتون عليهم ﴾ (١٥) : أي هلاّ يأتون على دعواهم بأنها آلهة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وهؤلاء : مبتدأ ، و ﴿ قومنا ﴾ : عطف بيان ، وجملة ﴿ اتخذوا ﴾ : خبر .

﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ (١٦) : ﴿ إذ ﴾ : تتعلق بفعل مقدر ، أي واذكروا إذ اعتزلتموهم . و ﴿ ما ﴾ : إما مصدرية (أي وإذ اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله ، فحذف المضاف) وإما اسماً موصولاً (أي وإذ اعتزلتموهم والذي يعبدونه) وإما نافية (أي وإذ اعتزلتموهم غير عابدين إلا الله ، فتكون الواو واو الحال) و ﴿ ما ﴾ : في الوجهين الأوليين : في موضع نصب بالعطف على الهاء والميم في ﴿ اعتزلتموهم ﴾ وفي الوجه الثالث : في موضع نصب على الحال . وقوله ﴿ إلا الله ﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلاً ؛ لأنهم كانوا كأهل مكة يقرون بالخالق ويشركون معه ، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً .

﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ... ﴾ (١٧) : ﴿ الشمس ﴾ : مفعول ﴿ ترى ﴾ ، و ﴿ إذا طلعت ﴾ و ﴿ إذا غربت ﴾ : ظرفان يتعلقان بترى ، و ﴿ عن كهفهم ذات اليمين ﴾ : يتعلق بترى . و ﴿ تزاور ﴾ : جملة فعلية حال من ﴿ الشمس ﴾ . و ﴿ ذات الشمال ﴾ : يتعلق بتقرضهم . ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ : جملة اسمية حال .

﴿ باسط ذراعيه .. فراراً ﴾ (١٨) : ﴿ ذراعيه ﴾ : منصوب بباسط ، وإنما أعمل اسم الفاعل ، وإن كان للماضي ؛ لأنه أراد به حكاية الحال ، مثل الإشارة للحاضر في قوله تعالى : ﴿ هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴾ [القصص ١٥/٢٨] ولم يكن المشار إليهما حاضرين حين قص القصة على النبي ﷺ ، وإنما حكى تلك الحال . و ﴿ فراراً ﴾ و ﴿ رعباً ﴾ : منصوبان على المصدر .

﴿ كم لبثتم ﴾ (١٩) : ﴿ كم ﴾ : هنا ظرفية في موضع نصب بلبثتم ، أي كم يوماً لبثتم ، ويوماً المحذوف : تمييز ، ودليل التقدير : كم يوماً : أنه قال في الجواب : ﴿ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾.

﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ (١٩) ﴿ أيها ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ أزكى ﴾ : خبر المبتدأ ، و ﴿ طعاماً ﴾ : تمييز ، والجملة مفعول ﴿ فلينظر ﴾.

﴿ إذ يتنازعون ﴾ (٢١) : ﴿ إذ ﴾ : ظرف زمان في موضع نصب : وعامله ﴿ ليعلموا ﴾ .

﴿ سيقولون : ثلاثة ، رابعهم كلبهم ﴾ (٢٢) : ﴿ ثلاثة ﴾ : خبر مبتدأ أي هم ثلاثة . و ﴿ رابعهم كلبهم ﴾ : جملة اسمية صفة ﴿ ثلاثة ﴾. وكذلك التقدير في قوله : ﴿ خمسة سادسهم كلبهم ﴾ وقوله ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾. وإنما جاء بالواو في قوله : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ ولم يجئ به على الصفة كالعدد قبله ؛ لأن السبعة : أصل المبالغة في العدد ، كما كانت السبعين كذلك في قوله تعالى : ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ [التوبة ٨٠/٩] ولو جاء بالواو في ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ لكان جائزاً و ﴿ رجماً بالغيب ﴾ : مفعول لأجله .

﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ (٢٤) : في موضع نصب (بفاعل) بتقدير حذف حرف الجر ، أي : ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا بأن يشاء الله ، وأن وصلتها في تأويل المصدر ، وتقديره : لمشيئة الله ، إلا أنه حذف حرف الجر من ﴿ أن ﴾ فاتصل الفعل به .

﴿ ثلاثمائةٍ سنين ﴾ (٢٥) : بالتنوين تكون ﴿ سنين ﴾ منصوباً على البدل من ﴿ ثلاث ﴾ أو عطف بيان على ﴿ ثلاث ﴾ أو تكون بدلاً مجروراً من ﴿ مائة ﴾ لأن المائة في معنى ﴿ سنين ﴾ . ومن لم ينون : أضاف ﴿ مائة ﴾ إلى ﴿ سنين ﴾ تنبيهاً على الأصل الذي كان يجب استعماله . و ﴿ تسعاً ﴾ : مفعول به ، مثل ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ [يوسف ٦٥/١٢] وليس بظرف ، أي وازدادوا لبث تسع سنين ، فحذف المضاف .

﴿ أبصر به وأسمع ﴾ (٢٦) : أي ماأسمعه وأبصره ، وتقديره : أسمع به ، إلا أنه حذف اكتفاء بالأول عنه . وموضع ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ الرفع لإرادة التعجب .

البلاغة :

﴿ إنهم فتية آمنوا ﴾ استئناف مبني على سؤال من قبل المخاطب ، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة .

﴿ يهد ﴾ و ﴿ يضلل ﴾ ﴿ أيقاظاً ﴾ و ﴿ رقود ﴾ ﴿ ذات اليمين ﴾ و ﴿ ذات الشمال ﴾ بين كل طباق .

﴿ فضربنا على آذانهم .. ثم بعثناهم ﴾ بينهما طباق معنوي ؛ لأن معنى الأول : أنمناهم والثاني أيقظناهم .

﴿ إذ قاموا فقالوا ﴾ بينهما جناس ناقص .

﴿ أبصر به وأسمع ﴾ صيغة تعجب .

﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ استعارة تبعية ، شبهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان ، كما تضرب الخيمة على السكان .

﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ استعارة تبعية أيضاً ؛ لأن الربط هو الشد ، والمراد شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية .

المفردات اللغوية :

﴿ أم حسبت ﴾ ظننت ، و﴿ أم ﴾ : للانتقال من كلام إلى آخر ، بمعنى : بل وهمزة الاستفهام ، أي بل أحسبت ، والخطاب في الظاهر للنبي ﷺ ، والمراد به كل مخاطب ﴿ الكهف ﴾ الغار أو النقب المتسع في الجبل ﴿ والرقيم ﴾ لوح حجري كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقيل : اسم الجبل أو الوادي الذي فيه كهفهم ﴿ كانوا من آياتنا عجباً ﴾ كانوا في قصتهم من جملة آياتنا محل تعجب ، أي كانوا عجباً دون باقي الآيات ، أو أعجبها .

﴿ أوى ﴾ اتخذه مأوى ﴿ الفتية ﴾ جمع فتى ، وهو الشاب الكامل ، وهم فتية من الأشراف أرادهم دقيانوس على الشرك ، فأبوا وهربوا إلى الكهف ، خائفين على إيمانهم من قومهم الكفار ﴿ من لدنك ﴾ من قبلك ﴿ رحمة ﴾ توجب لنا المغفرة والرزق والأمن من العدو ﴿ وهيئ ﴾ يسّر ، وأصل التهيئة : إحداث هيئة الشيء ﴿ رَشَداً ﴾ هداية إلى الطريق الموصل للمطلوب ، والمعنى : هيئ لنا من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار طريقاً نصير به راشدين مهتدين ، أو اجعل أمرنا كله رشداً . ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ أنمناهم نوماً ثقيلاً بحيث لا يسمعون ، وأصله : ضربنا على آذانهم حجاباً يمنع السماع ﴿ سنين عدداً ﴾ معدودة .

﴿ ثم بعثناهم ﴾ أيقظناهم ﴿ لنعلم ﴾ علم مشاهدة ﴿ أي الحزبين ﴾ الفريقين المختلفين منهم أو من غيرهم في مدة لبثهم وهما الحزب القائل : ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ ، والحزب القائل : ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ . ﴿ أحصى ﴾ فعل ماض ، أو أفعل بمعنى أضبط ﴿ لما لبثوا ﴾ للبثهم ﴿ أمداً ﴾ غاية ومدة لها حد ﴿ نحن نقص ﴾ نخبرك ﴿ بالحق ﴾ بالصدق ﴿ فتية ﴾ شبان جمع فتى ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ قويناهم على قول الحق ، والصبر على هجر الوطن والأهل والمال ﴿ إذ قاموا ﴾ بين يدي ملكهم : دقيانوس الجبار ، وقد أمرهم بالسجود للأصنام ﴿ من دونه ﴾ من غيره ﴿ شططاً ﴾ أي قولاً ذا شطط ، أي إفراط في الكفر إن دعونا إلهاً غير الله على سبيل الفرض لقول الشطط : هو الخارج عن المعقول المفرط في الظلم ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا ﴾ إخبار في معنى الإنكار ﴿ لولا ﴾ هلا ﴿ يأتون عليهم ﴾ على عبادتهم ﴿ بسلطان بيّن ﴾ بحجة ظاهرة أو ببرهان ظاهر ،

فإن الدين لا يؤخذ إلا به ، وفيه دليل على أن مالا دليل عليه من الديانات مردود ، وإن التقليد فيه غير جائز ﴿ فمن أظلم ﴾ لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ بنسبة الشريك إليه تعالى .

﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ خاطب بعض الفتية بعضهم الآخر بذلك ﴿ وما يعبدون ﴾ عطف على الضمير المنصوب في الفعل المتقدم ، أي ولأجل أنكم اعتزلتم القوم ومعبوديهم إلا الله ، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام كسائر المشركين ﴿ ينشر لكم ربكم ﴾ يبسط الرزق لكم ، ويوسع عليكم من رحمته في الدارين ﴿ ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً ﴾ ماترتفقون به أي تنتفعون ، من غداء وعشاء . وقد جزموا بذلك لقوة ثقتهم بفضل الله تعالى .

﴿ تزاور ﴾ بتخفيف الزاي والتشديد أي تميل عنه ، ولا يقع شعاعها عليهم ، فيؤذيهم ؛ لأن الكهف كان جنوبياً ، أو لأن الله تعالى زورها عنه ﴿ ذات اليمين ﴾ جهة اليمين ﴿ تقرضهم ﴾ تتركهم وتتجاوز عنهم ، فلا تصيبهم ألبته ﴿ فجوة ﴾ متسع من الكهف أي في وسطه ، ينالهم برد الريح ونسيمها ﴿ ذلك ﴾ المذكور وهو شأنهم أو تحول الشمس عنهم ﴿ من آيات الله ﴾ دلائل قدرته ﴿ من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ أي من يهد الله بالتوفيق ، فهو المهتدي الذي أصاب الفلاح ، والمراد به إما الثناء عليهم ، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة ، ولكن المنتفع بها من وفقه الله تعالى للتأمل فيها والاستبصار بها ﴿ ومن يضلل ﴾ ومن يخذله ، فلن تجد له من يليه ويرشده .

وبعبارة أخرى : من اهتدى بآيات الله واختار الإيمان بالدليل ، فقد هداه الله ووفقه لاختياره ، ومن لم يأخذ بأسباب الهدى فقد ضل وانحرف ، ولن تجد له من يرشده ويهديه .

﴿ وتحسبهم ﴾ لو رأيتهم ﴿ أيقاظاً ﴾ أي منتبهين ؛ لأن أعينهم منفتحة ﴿ رقود ﴾ نيام ، جمع راقد ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ لئلا تأكل الأرض لحومهم ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه ﴾ يديه واسم كلبهم : قطمير ﴿ بالوصيد ﴾ بفناء الكهف ، وقيل : بباب الكهف ، وكان يتقلب في النوم واليقظة مثلهم ﴿ لو اطلعت عليهم ﴾ فنظرت إليهم ﴿ منهم رعباً ﴾ منعهم الله بالرعب من دخول أحد عليهم . والرعب : الخوف الذي يملأ الصدر . عن معاوية رضي الله عنه : أنه غزا الروم ، فمرّ بالكهف ، فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء ، فنظرنا إليهم ، فقال له ابن عباس رضي الله عنه : ليس لك ذلك ، وقد منع الله تعالى من هو خير منك ، فقال : ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ﴾ فلم يسمع ، وبعث ناساً ، فلما دخلوا ، جاءت ريح ، فأحرقتهم .

﴿ وكذلك ﴾ كما فعلنا بهم ماذكرنا ﴿ بعثناهم ﴾ أيقظناهم ﴿ ليتساءلوا بينهم ﴾ عن حالهم ومدة لبثهم ﴿ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ لأنهم دخلوا عند طلوع الشمس ، وبعثوا عند غروبها ، فظنوا أنه غروب يوم الدخول ، فقولهم مبني على غالب ظنهم ؛ لأن النائم لايحصي مدة لبثه ، لذا أحالوا العلم إلى الله تعالى ، فقالوا : ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ ويجوز أن يكون ذلك قول

بعضهم ، وهذا إنكار الآخرين عليهم . ولما علموا أن الأمر ملتبس مجهول عليهم اتجهوا إلى ما يهمهم وقالوا : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ﴾ بفضتكم ، الورق : الفضة ، مضروبة كانت أو غيرها ﴿ إلى المدينة ﴾ هي طرسوس أو أفسوس ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ فلينظر أيّ أطعمة المدينة أحل وأطيب ، وأكثر وأرخص ﴿ وليتلطف ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة حتى لا يغبن أو في التخفي حتى لا يعرف ﴿ ولا يشعرن بكم أحداً ﴾ ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور .

﴿ إنهم إن يظهروا عليكم ﴾ إن يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم ، والضمير لأهل المدينة ﴿ يرجموكم ﴾ يقتلوكم بالرجم ﴿ أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ يصيروكم إليها كرهاً ، من العود بمعنى الصيرورة ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ إن عدتم في ملتهم .

﴿ وكذلك ﴾ كما بعثناهم ﴿ أعثرنا ﴾ أطلعنا ﴿ عليهم ﴾ قومهم والمؤمنين ﴿ ليعلموا ﴾ أي قومهم ﴿ أن وعد الله ﴾ بالبعث ﴿ حق ﴾ ثابت ؛ لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ، ثم يبعث ، والقادر على إنامتهم المدة الطويلة ، وإبقائهم على حالهم بلا غذاء ، قادر على إحياء الموتى ﴿ وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ لا شك فيها ﴿ إذ ﴾ معمول لأعثرنا أي أعثرنا عليهم حين يتنازعون ﴿ يتنازعون ﴾ أي المؤمنين والكفار ، والتنازع : التخاصم ﴿ أمرهم ﴾ أمر الفتية ، في البناء حولهم ﴿ فقالوا ﴾ أي الكفار ﴿ ابنوا عليهم ﴾ أي حولهم ﴿ بنياناً ﴾ يسترهم . ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ جملة معترضة إما من الله رد على المتنازعين في زمانهم ، أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول ﷺ ، أو من المتنازعين للرد إلى الله ، بعدما تذكروا أمرهم .

﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾ هم رؤساء البلد أهل الرأي وهم المؤمنون حين أماتهم الله ثانياً بالموت ﴿ لنتخذن عليهم ﴾ حولهم ﴿ مسجداً ﴾ معبداً يصلى فيه ، وكانوا نصارى على المشهور ، وفعل ذلك على باب الكهف .

﴿ سيقولون ﴾ أي المتنازعون في عدد الفتية في زمن النبي ﷺ ، أي يقول بعضهم ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ أي هم ثلاثة ﴿ ويقولون ﴾ يقول بعضهم ﴿ خمسة سادسهم كلبهم ﴾ والقولان لنصارى نجران ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي ظناً ورمياً بالخبر الخفي الذي لا اطلاع لهم عليه ، والرجم : القول بالظن ، والغيب : ماغاب عن الإنسان ، والمراد هنا : القول بالظن والتخمين ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ قال ابن عباس : أنا من القليل ، وذكرهم سبعة .

﴿ فلا تمار ﴾ تجادل ﴿ إلا مراءً ﴾ المراء : المحاجة فيما فيه مِرْية وشك وتردد ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ لا تطلب الفتيا من أحد من أهل الكتاب : اليهود ، أو لا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال مسترشد ، فإن فيما أوحي إليك لمندوحة عن غيره ، مع أنه لا علم لهم بها ، بل ولا سؤال متعنت ، تريد افتضاح المسؤول وتزييف ماعنده ، فإنه مخلّ بمكارم الأخلاق .

﴿ ولا تقولن لشيء : إني فاعل ذلك غداً ﴾ لا تقل لأجل شيء : سأفعله غداً أو فيما يستقبل من الزمان ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي إلا متلبساً بمشيئة الله تعالى بأن تقول : إن شاء الله . وهذا نهي تأديب من الله تعالى لنبيه ، حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين ، فسألوه ، فقال : ائتوني غداً أخبركم ، ولم يقل : إن شاء الله ، فأبطأ عليه الوحي بضعة عشر يوماً ، حتى شق عليه ، وكذبته قريش ، فنزلت الآية .

﴿ واذكر ربك ﴾ أي مشيئته ، معلقاً الأمر بها ﴿ إذا نسيت ﴾ التعليق بها ، ويكون ذكرها بعد النسيان كذكرها مع القول ، مادام في المجلس ، كما قال الحسن وغيره ، وعن ابن عباس : ولو بعد سنة مالم يحنث ﴿ لأقرب من هذا ﴾ من خبر أهل الكهف في الدلالة على نبوتي ﴿ رشداً ﴾ هداية ، وقد تم المراد ، وهداه الله لأعظم من ذلك ، كقصص الأنبياء الغابرين ، والإخبار عن المغيبات في المستقبل إلى قيام الساعة .

﴿ ثلثمائة سنين ﴾ هي عند أهل الكتاب شمسية ، وتزيد القمرية عليها عند العرب تسع سنين ، فقال : ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ أي تسع سنين ، فالثلاث مئة الشمسية : ثلاث مئة وتسع قرية ﴿ أعلم بما لبثوا ﴾ ممن اختلفوا فيه ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ أي علمه ﴿ أبصر به ﴾ بالله ، وهي صيغة تعجب ﴿ وأسمع ﴾ كذلك ، بمعنى : ماأبصره وماأسمعه ، وهما على جهة المجاز ، والمراد : أنه تعالى لا يغيب عن بصره وسمعه شيء ﴿ مالهم ﴾ لأهل السموات والأرض ﴿ ولي ﴾ ناصر ﴿ ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ ولا يشرك في قضائه أحداً منهم ، ولا يجعل له فيه مدخلاً ؛ لأنه غني عن الشريك .

سبب النزول :

سبق ذكر سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله تعالى : ﴿ ويسألونَكَ عن الرُّوحِ قل : الرُّوحُ من أمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء ٨٥/١٧] . وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه القصة مفصلاً موضحاً ، فقال : كان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وكان يؤذي رسول الله ﷺ ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلّم أحاديث رستم واسفنديار ، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله ، وحذّث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم ، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام ، فقال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلموا ، فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس .

ثم إن قريشاً بعثوه ، وبعثوا معه عتبة بن أبي مُعَيْط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلوهم عن محمد وصفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم من العلم ماليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما إلى المدينة ، فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد ، فقال أحبار اليهود :

سلوه عن ثلاث : عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإن حديثهم عجب ، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح وماهو ؟ فإن أخبركم فهو نبي ، وإلا فهو متقوّل ، فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا : قد جئناكم بفصل مابيننا وبين محمد ، وأخبروا بما قاله اليهود ، فجاؤوا رسول الله ﷺ وسألوه ، فقال رسول الله ﷺ : أخبركم بما سألتم عنه غداً ، ولم يستثن ـ لم يقل : إن شاء الله ـ فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ خمس عشرة ليلة ، حتى أرجف أهل مكة به ، وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة ، فشق عليه ذلك ، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف ، وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم ، وفيها خبر أولئك الفتية ، وخبر الرجل الطوّاف[1] .

نزول الآية (٢٤) : ﴿ ولا تقولن لشيء .. ﴾

أخرج ابن جرير عن الضحاك ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : حلَف النبي ﷺ على يمين ، فمضى له أربعون ليلة ، فأنزل الله : ﴿ ولا تقولن لشيء .. ﴾ الآية .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أنه جعل الزينة على ظهر الأرض ، وفي ذلك من العجائب والإبداع ما يفوق القصص وغرائبها ، أبان أن قصة أهل الكهف ليست

(١) تفسير الرازي : ٨٣/٢١ ، تفسير الألوسي : ٢١٦/١٥

بالعجب وحدها من بين آياتنا ، وأنها أقل عجباً من تزيين الأرض بالنبات ، والحيوان والبشر ، والشجر والأنهار وغير ذلك .

التفسير والبيان :

إجمال القصة :

هذا هو الخبر اليقين عن قصة أصحاب الكهف الذين بقوا أحياء ثلاث مئة وتسع سنوات في حال سبات (نوم) وهي من العجائب التي أشارت إليها الكتب السالفة .

﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ... ﴾ تعجب القوم من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول ﷺ على سبيل الامتحان ، فقال تعالى : أم حسبت أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط ، فلا تحسبن ذلك ، فإن آياتنا كلها عجب ، فليست قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة أعجب من حال الدنيا ، فإن زينة الأرض وعجائبها أعظم وأبدع وأعجب من هذه القصة ، فإن من قدر على تزيين الأرض ثم جعلها تراباً ، وعلى خلق السموات والأرض ، قادر على كل شيء ، ومن قدرته أن يحفظ طائفة من الناس دون طِعام وشراب زماناً معلوماً .

وبعبارة أخرى موجزة : لاتحسب أن قصة أصحاب الكهف والرقيم وهو اسم كلبهم أو واديهم أو كتاب بنيانهم كانوا آية عجباً من آياتنا ، لاتظن ذلك فآياتنا كلها عجيبة وغريبة . والرقيم في الظاهر من الآية كما رجح ابن جرير وابن كثير : الكتاب .

﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف ... ﴾ اذكر أيها الرسول حين لجأ أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم ، لئلا يفتنوهم عنه ، إلى غار في جبل ليختفوا عن

قومهم عبدة الأصنام ، فقالوا حين دخلوا سائلين الله تعالى الرحمة واللطف بهم : ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها ، وتسترنا عن قومنا ﴿ وهيّئ لنا من أمرنا رشداً ﴾ أي اجعل عاقبتنا رشداً ، بأن توفر المصلحة لنا ، وتجعلنا راشدين غير ضالين ، مهتدين غير حائرين ، أو اجعل أمرنا رشداً كله .

﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾ أي ألقينا النوم الثقيل عليهم حين دخلوا إلى الكهف ، فلم يعودوا يسمعون أي صوت ، ونـاموا سنين كثيرة معدودة .

﴿ ثم بعثناهم لنعلمَ أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ أي ثم بعثناهم من رقدتهم تلك ، وأيقظناهم من نومتهم ليظهر للناس معلومه سبحانه ، أي الطائفتين المتنازعتين فيهم أحصى مدة لبثهم وغاية بقائهم نياماً ، فيظهر لهم عجزهم ، ويعرفوا ما صنع الله بهم ، فيتيقنوا من كمال قدرة الله على البعث وغيره .

تفصيل القصة :

﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ أي نحن نخبرك خبرهم على وجه الصدق ، وهذا يعني أن الأخبار المتداولة عنهم بين العرب لم تكن صحيحة .

﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم .. ﴾ أي إنهم شباب صدقوا بتوحيد ربهم ، وشهدوا أن لا إله إلا هو ، وزدناهم توفيقاً للهداية بالإصرار على العقيدة والإقبال على الله وإيثار العمل الصالح .

وفي هذا إيماء إلى أن الشباب أقبل للحق وأهدى للسبل من الشيوخ الذين عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا ـ كما ذكر ابن كثير ـ كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش فبقوا على دينهم ، ولم

يؤمن منهم إلا القليل . أخرج الطبراني وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب ، وقرأ : ﴿ قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ [الأنبياء ٦٠/٢١] ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ [الكهف ٦٠/١٨] ﴿ إنهم فتية ﴾ .

واستدل بهذه الآية : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ على زيادة الإيمان وتفاضله بين الناس ، وأنه يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، كما قال تعالى : ﴿ والذين اهْتَدوا زَادَهم هُدىً وآتاهُم تَقْواهم ﴾ [محمد ١٧/٤٧] وقال سبحانه : ﴿ فأمَّا الذين آمنوا فزادَتْهُم إيماناً وهم يَسْتبشِرُون ﴾ [التوبة ١٢٤/٩] وقال عز وجل : ﴿ لِيَزْدادوا إيماناً مع إيمانِهم ﴾ [الفتح ٤/٤٨] .

زمنهم أو عصرهم :

ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم ، ورجح ابن كثير أنهم كانوا قبل النصرانية ، بدليل أن أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم ، ويُعنون بها ، كما تقدم في سبب النزول ، وبدليل ما أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم كانوا في مملكة ملك من الجبابرة يدعو الناس إلى عبادة الأوثان ، فلما رأوا ذلك خرجوا من تلك المدينة ، فجمعهم الله تعالى على غير ميعاد ، فجعل بعضهم يقول لبعض : أين تريدون ؟ أين تذهبون ؟ فجعل بعضهم يخفي عن بعض ؛ لأنه لا يدري هذا علام خرج هذا ، ولا يدري هذا علام خرج هذا ، فأخذوا العهود والمواثيق أن يخبر بعضهم بعضاً ، فإن اجتمعوا على شيء ، وإلا كتم بعضهم بعضاً ، فاجتمعوا على كلمة واحدة ، فقالوا : ﴿ ربُّنا ربُّ السموات والأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ مرفقاً ﴾

ثم انطلقوا حتى دخلوا الكهف ، فضرب الله تعالى على آذانهم ، فناموا وفُقدوا في أهلهم ، فجعلوا يطلبونهم ، فلم يظفروا بهم ، فرفع أمرهم إلى الملك ، فقال : ليكونن لهؤلاء القوم بعد اليوم شأن ناس خرجوا لا ندري أين ذهبوا في غير جناية

ولا شيء يعرف ، فدعا بلوح من رصاص ، فكتب فيه أسماءهم ، ثم طرح في خزانته ، ثم كان من شأن قصتهم ماقصه الله سبحانه وتعالى[١] .

إصرارهم على توحيد الله :

﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا .. ﴾ أي صبرناهم على مخالفة قومهم ، وثبتناهم على عقيدتهم ، وألهمناهم قوة العزيمة ، حتى تركوا ما كان عليه قومهم من العيش الرغيد والسعادة ، وقالوا حين مثلوا أمام ملكهم الجبار الذي يدعى (دقيانوس) والذي كان يحث الناس على عبادة الأصنام والطواغيت ، ويدعوهم إليها ويأمرهم بها : ربنا هو رب السموات والأرض ، لن ندعو إلهاً من دونه مطلقاً ؛ إذ لا رب سواه ، ولا معبود غيره ، وأن الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض .

وقد أعلنوا في الجملة الأولى : ﴿ ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرض ﴾ توحيد الألوهية ، وذلك يُقرُّ به عبدة الأصنام ، وفي الجملة الثانية : ﴿ لن ندعو من دونه إلهاً ﴾ توحيد الربوبية ، وذلك ما ينفيه عبدة الأصنام ، بدليل ماحكى القرآن : ﴿ ولئن سألتَهم من خَلَقَ السمواتِ والأرضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [لقمان ٢٥/٣١] وقوله : ﴿ إنما نعبدُهم ـ أي الأصنام ـ ليقرّبُونا إلى اللهِ زُلْفى ﴾ [الزمر ٣/٣٩] .

وقوله : ﴿ لن ﴾ لنفي التأبيد ، أي لا يقع منا هذا أبداً ؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً ، لهذا عللوا اعتقادهم بقولهم :

﴿ لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ أي إذا دعونا غير الله ، لقد قلنا باطلاً وكذباً وبهتاناً . والشطط في اللغة : مجاوزة الحد ، والبعد عن الحق . والمعنى : لقد قلنا إذن قولاً شططاً . وهذا يدل على أنهم دُعوا لعبادة الأصنام ، ولامهم الملك على ترك عبادتها .

---

(١) تفسير الألوسي : ٢١٧/١٥

تنديدهم بعبادة قومهم الأصنام :

﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة .. ﴾ أي قال أصحاب الكهف عن قومهم الذين كانوا في زمان (دقيانوس) يعبدون الأصنام : هلا يأتون بحجة بيّنة على صحة ما يفعلون من عبادة تلك الآلهة الباطلة المزعومة ؟! وهلا أقاموا على صحة ماذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ؟!

وهذا يدل على أن الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة صحيحة عقلاً ومنطقاً .

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ أي لاأحد أشد ظلماً من افتراء الكذب على الله ، ونسبة الشريك إليه ، فهم قوم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك .

وكان من لطف الله بهم أن ملكهم بعد أن هددهم وتوعدهم ، أمهلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه ، فوجدوها فرصة مواتية ، وهربوا فراراً بدينهم من الفتنة .

قال ابن كثير : وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفرّ العبد منهم خوفاً على دينه ، كما جاء في حديث البخاري وأبي داود عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شَعَفَ الجبال ، ومواقع القَطْر ، يفرّ بدينه من الفتن » ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ، ولا تشرع فيما عداها ، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجُمَع .

العزلة بينهم وبين قومهم :

﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله .. ﴾ واذكروا يا أهل الكهف ذلك الخطاب الذي صدر من بعضكم لبعض حينما صممتم على الفرار بدينكم فاعتزلتم

قومكم وفارقتموهم عزلة مادية بالمفارقة بالأبدان والمقر والمقام ، وعزلة معنوية بمخالفتهم في دينكم واعتزالكم معبوديهم غير عبادة الله وحده .

وقوله : ﴿ إلا الله ﴾ إما استثناء متصل أو منقطع كما ذكرنا ، ويجوز أن يكون كلاماً معترضاً ، إخباراً من الله تعالى عن الفئة أنهم لم يعبدوا غير الله .

وفارِقوا قومكم جسدياً ، والجؤوا إلى الكهف (الغار الواسع في الجبل) بعد فراقهم روحياً ، وأخلصوا العبادة لله في مكان خال بعيد عن أهل الشرك ، فإن فعلتم ذلك يبسط الله عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ، ويسهل لكم من أمركم مرفقاً ، أي أمراً ترتفقون به وتنتفعون .

حالهم في الكهف وانحسار الشمس عنهم :

﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور .. ﴾ أي وترى يا محمد أو كل واحد يصلح للخطاب الشمس حين طلوعها تميل عن كهفهم جهة اليمين ، بأن تقلص شعاعها بارتفاعها ، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ، وتراها عند الغروب تبتعد عنهم وتتركهم لا تقربهم وتعدل عنهم جهة الشمال ، والحال أنهم في متسع من الكهف ووسطه ، فيأتيهم الهواء بارداً لطيفاً .

وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقاً ، بل الإخبار بكون الكهف في مكان لا تؤثر فيه الشمس أثناء طلوعها وغروبها ، أي أنهم طوال نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها ، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لإصابة الشمس ، لولا أن الله يحجبها عنهم .

مكان الكهف :

ذكر المؤرخون أقوالاً في تعيين مكان الكهف ، فقيل : هو واد قريب من أيلة في العقبة جنوب فلسطين ، وقيل : عند نينوى في الموصل شمال العراق

وقيل : في جنوب تركيا من بلاد الروم سابقاً ، وكلها أقوال يعوزها الدليل .

قدرة الله تعالى وعنايته ولطفه :

﴿ ذلك من آيات الله ﴾ أي إن بقاء هؤلاء الفتية في الكهف سنين عديدة ، وما صنعه الله بهم من تنحية الشمس عنهم عند الطلوع والغروب ، بانعكاس أشعتها وتقليص وهجها عنهم ، آية من آيات الله العجيبة الكثيرة الدالة على كمال قدرته وسعة علمه ، وعلى أنه تعالى يصون المخلصين من عباده ، وأن التوحيد دين الحق ، وأن عبادة الأصنام والأوثان ضلال وشرك وزيغ ، وأن صون أهل الكهف بلطف من الله وعناية منه ، لذا قال :

﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ أي من يوفقه الله تعالى للاهتداء بآياته وحججه ، ويدله دلالة مؤدية إلى الحق ، ويوفقه إلى مايحبه ويرضاه ، كأهل الكهف ، فهو المهتدي إلى طريق الحق ، الفائز بالحظ الأوفر في الدارين .

والمراد من ذلك إما الثناء على أصحاب الكهف والشهادة لهم بإصابة المطلوب ، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة ، ولكن السعيد من وفقه الله تعالى للتأمل بها والاستبصار بها والاهتداء بها[1] . والخلاصة : أن الله هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية .

﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ أي ومن يضلل الله بأن لم يوفقه للاهتداء بآياته ، لسوء اختياره واستعداده ، وتوجيه رأيه إلى جادة الانحراف ، فلن تجد له أبداً حليفاً أو ناصراً معيناً يرشده ويهديه إلى الخير وطرق الصلاح في الدنيا والآخرة ، ولا هادي له ، كأمثال الكفرة منكري البعث ؛ لأن التوفيق والخذلان بيد الله ، يوفق من يشاء ويخذل من يشاء .

---

(١) تفسير الألوسي : ٢٢٣/١٥ ـ ٢٢٤

وتفويض الهداية والإضلال إلى الله تعالى يخفف من معاناة النبي ﷺ مع قومه ، ويسرّي عنه حزنه وألمه على إعراضهم عن قبول دعوته .

﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ أي وتظنهم إذا رأيتهم أيقاظاً لانفتاح أعينهم وهم نيام ، لئلا يسرع إليها البلى ، كأنهم ينظرون إلى من يشاهدهم .

﴿ ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشّمال ﴾ أي ونقلبهم مرة في ناحية اليمين ومرة في ناحية الشمال ، حتى لاتؤثر الأرض في أجسادهم ، ولكي تتعرض جلودهم للهواء .

واختلفوا في مدة التقليب ، فقيل : يقلّبون في العام مرتين ، وقيل : مرة في العام ، ولا دليل لكل من القولين ، ولا يرشد إليها العقل ، ولم يشر إليها القرآن ، ولم يرد فيه خبر صحيح ، فيبقى النص على إطلاقه . قال ابن عباس : لو لم يقلّبوا لأكلتهم الأرض .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ وكان كلبهم الذي تبعهم بإلهام الله للحراسة باسطاً ذراعيه بفناء الكهف أو بباب الكهف يحرس عليهم الباب ، وهذا من سجيته وطبيعته ، كأنه يحرسهم ، وقد أصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذه فائدة صحبة الأخيار .

﴿ لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ أي لو نظرت عليهم لأدبرت عنهم فراراً وهرباً ، ولملئت منهم رعباً وفزعاً ؛ لأن الله تعالى ألقى عليهم المهابة والوقار ، بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم ، إلى أن انتهى أجل لبثهم راقدين ، وتحققت فيهم الحكمة البالغة ، والرحمة الواسعة ، وأقام الله فيهم الدليل المادي الحسي على قدرته على البعث والإعادة ، وعلى أن يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه .

بعثتهم من نومهم صحاح الأبدان بعد ثلاث مئة سنة وتسع سنين :

قال تعالى : ﴿ وكذلك بعثناهم ..﴾ أي كما زدناهم هدى وأغناهم ، وحفظنا أجسادهم من البلى والفناء ، وأبقيناهم أحياء من غير أكل ولا شرب مدة طويلة من الزمان ، ونقلبهم ، فكذلك بعثناهم ، أي أحييناهم من تلك النومة التي تشبه الموت ، لنعرّفهم مدى قدرتنا وعجيب فعلنا في الناس ، وليتبصروا في أمرهم وليتساءلوا بينهم ، واللام هنا لام العاقبة أو الصيرورة : فقال قائل منهم : كم لبثتم ، أي كم رقدتم في نومكم ؟ لإحساسهم بطول الرقاد . ﴿ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ أي أجاب بعضهم قائلاً : لبثنا في تقديرنا يوماً كاملاً أو جزءاً من اليوم ؛ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول النهار ، واستيقاظهم كان في اخر النهار ، لذا استدركوا فقالوا : ﴿ أو بعض يوم ﴾ .

﴿ قالوا : ربُّكم أعلم بما لبثتم ﴾ أجاب بعض آخر : ربكم أعلم بأمركم ، وبمقدار لبثكم ، وهذا استشعار منهم وتردد بكثرة نومهم ، لما رأوا حالهم متغيرة ، أي فالله أعلم منكم ، وأنتم لا تعلمون مدة لبثكم ، وهذا أدب الإيمان اليقظ في الرد على جواب البعض الأول .

الوكالة في شراء الطعام :

ثم تذاكروا فيما بينهم وقرروا البحث في المهم من أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب ، فقالوا :

﴿ فابعثوا أحدَكم بوَرِقِكم هذه إلى المدينة ﴾ أي فأرسلوا أحدكم بدراهمكم أو فضتكم هذه التي استصحبوها معهم من منازلهم ، لتغطية حوائجهم ، إلى المدينة وهي « طرسوس » أي مدينتكم التي خرجتم منها ، كما أكد الرازي[1] .

---

(١) تفسير الرازي : ١٠٣/٢١

﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه ﴾ أي فليبصر أي الأطعمة أجود وأنفع وأطيب وأيسر سعراً ، فليأتكم بمقدار مناسب منه .

﴿ وليتلطف ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحداً ﴾ أي وليكن لطيفاً رفيقاً في الطلب وفي خروجه ودخوله المدينة ، وفي شرائه ، ولا يخبرن أو لا يعلمن أحداً من أهل المدينة بمكانكم .

﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ أي إن أصحاب دقيانوس الملك إن اطلعوا على مكانكم ، يقتلوكم بالرجم بالحجارة ، أو يجبروكم ويكرهوكم على العودة إلى دينهم ـ دين الوثنية وعبادة الأصنام .

﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ أي وإن وافقتموهم على العود إلى ملتهم أو دينهم ، فلا فلاح لكم أبداً في الدنيا والآخرة .

اطلاع الناس عليهم :

﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ..﴾ أي وكما أنمناهم ثم بعثناهم ، أطلعنا الناس عليهم وعلى أحوالهم ، وهم أولئك الذين كان لديهم شك في قدرة الله على إحياء الموتى ، وفي البعث ، وفي أمر القيامة ، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك ، وليدركوا ويعلموا أن وعد الله بالبعث حق وصدق وثابت ، وأن حدوث الساعة أي القيامة أمر لا شك فيه ، فمن شاهد حال أهل الكهف علم صحة الخبر وصدق وعد الله بالبعث ؛ لأن حالهم في نومتهم ، وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث .

وسمي إعلام الناس بهم إعثاراً ؛ لأن من غفل عن شيء ثم عثر به ، نظر إليه وعرفه ، فكان الإعثار سبباً في العلم ، والمعنى : أعثرنا عليهم حين يتنازعون بينهم .

﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ أي أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان حين كان بعضهم يتنازع مع بعض في أمر القيامة ، فمن مثبت لها ومن منكر ، ومن مؤمن بها وكافر ، فجعل اطلاعهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ، وفرح الملك وشعبه بآية الله على البعث ، وزال أمر الخلاف في أمر القيامة .

آراء القوم في شأنهم بعد اطلاعهم عليهم :

﴿ فقالوا : ابنوا عليهم بنياناً ..﴾ أي انقسم القوم في شأن أهل الكهف حين توفاهم الله تعالى فريقين : فريق ـ قيل هم الكفار منهم ـ قالوا : نسدّ عليهم باب كهفهم ، ونتركهم على حالهم ؛ فإنهم كانوا على ديننا ، فنتخذ عليهم بنياناً ، أي على باب كهفهم ، لئلا يدخل إليهم الناس ، ضناً بتربتهم ، ومحافظة عليها . وقوله : ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ جملة معترضة ، أي أعلم بشأنهم للرد على المتنازعين في عقيدتهم وبيان أنسابهم وأسمائهم ومدة لبثهم .

وفريق آخر تغلبوا على الفريق الأول بالرأي وهم المسلمون وملكهم قالوا ـ وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم ـ : لنتخذن على باب الكهف مسجداً يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم .

عددهم :

﴿ سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ..﴾ أي إن الناس بعدئذ اختلفوا في عددهم ، وهم من خاض في قصتهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين ، إنهم سألوا رسول الله ﷺ عنهم ، فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه ، فنزلت الآية إخباراً ببيان عددهم وأن المصيب منهم من يقول : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ .

بعضهم قال : هم ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ ، وآخرون قالوا : هم ﴿ خمسة

سادسهم كلبهم ﴾ ، وهم في هذا يقولون : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي قولاً بلا علم ، وإنما هو مجرد ظن وتخمين ، لا دليل عليه ، ولا يقين معه ، بدليل اتباع القولين الأولين بقوله ﴿ رجماً بالغيب ﴾ .

وقال جماعة آخرون : إنهم ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ ، ولما حكى تعالى هذا القول ، وسكت عليه أو قرره ، دل على صحته ، وأنه هو الواقع في الأمر نفسه .

قل يا محمد : ربي أعلم بعددهم ، ما يعلمهم إلا قليل من الناس ، وأكثر أهل الكتاب الذين ذكروا أعدادهم على ظن وتخمين . وقوله ﴿ ربي أعلم بعدتهم ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ؛ إذ لا داعي إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم .

قال ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة ، وكذا روى ابن جرير عن عطاء أنه كان يقول : عدتهم سبعة .

والمهم في الأمر ليس معرفة العدد ، وإنما المهم الاعتبار بالقصة ، والانتفاع بما دلت عليه من إثبات قدرة الله تعالى على البعث والإعادة .

وتساءل صاحب الكشاف : فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ ولِمَ دخلت عليها دون الجملتين الأوليين ؟ ثم أجاب : هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، وفائدتها تأكيد اتصال الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، أي أن الذين قالوا : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ قالوه عن ثبات وعلم ، ولم يرجموا بالظن كما فعل غيرهم .

﴿ فلا تمارِ فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدلاً ظاهراً غير متعمق فيه ، وهو أن تقص عليهم ما أوحى

الله إليك فحسب ، ولا تزيد ، من غير تجهيل لهم ، ولا تعنيف في الرد عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسنُ ﴾ [النحل ١٢٥/١٦] وقال : ﴿ ولا تجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هي أحسنُ ﴾ [العنكبوت ٤٦/٢٩] .

﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ أي ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت ؛ لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والمجاملة ، ولا سؤال مسترشد ؛ لأن الله قد أرشدك ، بأن أوحى إليك قصتهم .

وهذا يدل على عدم جواز الرجوع إلى أهل الكتاب في شيء من العلم .

إرشاد للنبي ﷺ ولأمته بتعليق الخبر بمشيئة الله :

﴿ ولا تقولن لشيء : إني فاعل ذلك غداً ..﴾ أي لا تقولن أيها الرسول لأجل شيء عزمت على فعله في المستقبل : إني سأفعل ذلك غداً إلا بأن تقرنه بمشيئة الله عز وجل ، فتقول : إن شاء الله ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفهن الليلة على سبعين امرأة ـ وفي رواية مئة امرأة ـ تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، فقيل له ـ وفي رواية قال له الملَك ـ : قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف بهن ، فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، لو قال : إن شاء الله ، لم يحنث ، وكان دركاً لحاجته » . وفي رواية : « ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون » .

وقد عرفنا سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف : « غداً أجيبكم » فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً .

﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ أي واذكر مشيئة ربك ، وقل : إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك ، والمعنى إذا نسيت كلمة الاستثناء ، ثم تنبهت ، فتداركها بالذكر ، سواء طال الفصل أو قصر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : ولو بعد

سنة مالم تحنث . والاستثناء بالمشيئة عند عامة الفقهاء لا أثر له في الأحكام مالم يكن موصولاً . وأوضح ابن جرير معنى قول ابن عباس : وهو أنه إذا نسي أن يقول في كلامه أو في حلفه : إن شاء الله ، وتذكر ولو بعد سنة ، فالسنة له أن يقول ذلك ، ليكون آتياً بسنة الاستثناء ، حتى ولو كان بعد الحنث . لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة .

﴿ وقل : عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ أي وقل يا محمد : عسى أن يوفقني ربي لشيء آخر بدل المنسي أو أقرب خيراً ومنفعة ، فإذا سئلت عن شيء لا تعلمه ، فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك .

مدة لبثهم في الكهف :

أخبر الله تعالى رسوله ﷺ عن مقدار لبث أهل الكهف في كهفهم ، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله ، فقال :

﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ أي إنهم أقاموا في الكهف مقدار ثلاث مئة سنة وتسع سنوات هلالية ، وهي ثلاث مئة سنة شمسية ، فإن تفاوت مابين كل مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلاث مئة : ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾ . وأكد ذلك الإخبار بقوله :

﴿ قل : الله أعلم بما لبثوا ...﴾ أي إذا سئلت عن مدة لبثهم ، وليس عندك علم في ذلك من الله تعالى ، فقل في مثل هذا : ﴿ الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ، ومن أطلعه عليه من خلقه ، فلا تتعجل بالأخبار مالم يكن عندك دليل عليها ، والحق ما أخبرك به ، لا مايقولونه ؛ إذ له غيب السموات والأرض ، وهو العالم بكل شيء ، وأعلم من الذين اختلفوا في مقدار مدة لبثهم .

وبما أن الله أخبر عن مدة لبثهم ، فهو الحق الذي لا شك فيه . وفائدة تأخير إيراد هذه الجملة الدلالة على أنهم تنازعوا في مدة اللبث ، كما تنازعوا في عددهم ، وجاء هذا التذييل هنا كالتذييل المتقدم في حكاية عددهم : ﴿ قل : ربي أعلم بعدتهم ﴾ .

والخلاصة : إن الخبر اليقين في بيان عدد أهل الكهف ومدة لبثهم هو من عند الله تعالى ؛ لأنه أعلم بالأشياء وبالحقائق ، وأما أقوال الناس فهي ظنون لا دليل عليها ، وتستند إلى الشائعات ، ولله وحده علم ما غاب في شؤون السموات والأرض ، وخفي من أحوال أهلها .

﴿ أبصر به وأسمع ﴾ هذا من صيغ التعجب والمبالغة ، أي إن الله تعالى لبصير بهم ، سميع لهم ، وذلك في معنى المبالغة في المدح والتعجب ، كأنه قيل : ما أبصره وأسمعه ، أي ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ، لا يخفى عليه من ذلك شيء . قال قتادة في هذه الصيغة : فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع .

﴿ مالهم من دونه من ولي ﴾ أي ما للناس من دون الله متولٍ يلي أمورهم ، وليس له وزير ولا نصير .

﴿ ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ أي أن الله تعالى له الخلق والأمر ، لا معقّب لحكمه ، ولا يشاركه في قضائه أحد من الناس ، وليس له شريك ولا مشير .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من بيان قصة أصحاب الكهف ما يأتي :

١ ـ ليس حال هذه القصة هي الآية العجاب من آيات الله فقط ، وإنما خلق السموات والأرض ومافيهما أشد عجباً وأعظم روعة ، وأدل على قدرة الله عز وجل ، فلا يعظم ذلك أيها النبي بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة .

٢ـ كان إيواء الفتية المؤمنين إلى الكهف من أبناء أشراف مدينة « دقيانوس » الملك الكافر فراراً بدينهم من فتنة الكافرين عبدة الأصنام . وهذا دليل صريح في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال ، خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة . وقد خرج النبي ﷺ فاراً بدينه ، وكذلك أصحابه ، كما نص الله تعالى في سورة ﴿ براءة ﴾ . إنهم هجروا أوطانهم ، وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم ، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين .

وهذه الحالة المستثناة لجواز العزلة عن الناس باتفاق العلماء مقصورة على حال خشية الفتنة في الدين . وأما ماعدا ذلك فالمخالطة أفضل من العزلة ، روى البغوي وأحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « المؤمن الذي يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ، ولا يصبر على أذاهم » .

٣ـ لما فر أصحاب الكهف ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ، ولجؤوا إلى الله تعالى قائلين : ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيّئ لنا من أمرنا رشداً ﴾ أي آتنا مغفرة ورزقاً ، وهيّئ لنا توفيقاً للرشاد والسداد والصواب .

وقد اختلف الناس في زمان أصحاب الكهف في مكانهم ، أما الزمان الذي كانوا فيه : فقيل : إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام ، وإن موسى ذكرهم في التوراة ، ولهذا السبب فإن اليهود سألوا عنهم ، وقيل : إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح ثم بعثوا بعد عيسى وقبل محمد ، وقيل : إنهم دخلوا الكهف بعد المسيح . وأما مكان هذا الكهف فلا يعرف على وجه اليقين ، ويقال : إنه في بلاد الروم أي في جنوب تركيا اليوم في طرسوس ، وهو الظاهر .

٤ـ كان من تدبير الله تعالى لأهل الكهف للمكث فيه راقدين (٣٠٩) سنوات

إلقاء النوم عليهم ومنعهم من السماع ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه ، ثم بعثتهم من بعد نومهم ، ثم اطلاع الناس على شأنهم .

وكان إيقاظهم من أجل اختبار الناس لمعرفة مقدار مدة لبثهم ، وقوله ﴿ لنعلم أي الحزبين أحصى ﴾ معناه : لنعلم ذلك موجوداً ، وإلا فقد كان الله تعالى علم أي الفريقين أحصى الأمد . والفريقان أو الحزبان : الفتية الذين ظنوا لبثهم قليلاً ، وأهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية .

٥ ـ إن صفات هؤلاء الفتية أو الجماعة من الشبان : أنهم آمنوا بالله ، وألهم الله قلوبهم الصبر والثبات ، وزاد الله في إيمانهم بالتيسير للعمل الصالح ؛ من الانقطاع إلى الله تعالى ، ومباعدة الناس ، والزهد في الدنيا .

وكان من أثر شدة عزيمتهم وقوة صبرهم التي أعطاها الله لهم أنهم أعلنوا أمام الكفار : ﴿ ربُّنا ربُّ السموات والأرض ، لن نَدْعُوَ من دونِه إلهاً ، لقد قُلْنا إذاً شَطَطاً ﴾ .

وكانوا يتذاكرون شأن إيمانهم ، فقال بعضهم : هؤلاء أهل عصرنا وبلدنا ، عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة ، فهلا يأتون بحجة على عبادتهم الصنم ؟!

٦ ـ لقد قال الله لهم أو قالوا لبعضهم : إذ اعتزلتم قومكم ، فأووا إلى الكهف تغمركم رحمة الله ، ويهيء الله لكم ما ترتفقون وتنتفعون به من شؤون الحياة .

٧ ـ كان من رحمة الله بهم ولطفه بهم بعد الرقاد أن الشمس تتنحى عنهم وتميل جهة اليمين وجهة الشمال ، أي عن يمين الكهف وعن شماله ، فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار ، وكان الرائي يحسبهم أيقاظاً ؛ لأن أعينهم كانت مفتوحة وهم نائمون ، وأن كلبهم باسط ذراعيه في باب الكهف لحراستهم ، وهو

نائم مثلهم . ومن لطفه تعالى بهم أيضاً تقليبهم ناحية اليمين وناحية الشمال لئلا تأكل الأرض لحومهم ، وكان التقليب من فعل الله ، ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله ، فينسب إلى الله تعالى .

٨ ـ يجوز اتخاذ الكلاب للحاجة والصيد والحراسة ، ورد في صحيح.مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « من اقتنى كلباً إلا كلبَ صيد أو ماشية ، نقص من أجره كل يوم قيراطان » .

وكلب الماشية المباح اتخاذه عند الإمام مالك : هو الذي يسرح معها ، لا الذي يحفظها في الدار من السرّاق . وكلب الزرع : هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار ، لا من السّرّاق . وقد أجاز غير مالك اتخاذ الكلاب لسرّاق الماشية والزرع .

٩ ـ ينتفع الإنسان بصحبة الأخيار ومخالطة الصلحاء والأولياء ، بدليل جعل كلب أهل الكهف مثلهم ، إنه كلب أحب قوماً ، فذكره الله معهم . روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد ، فلقينا رجل عند سِدَّة المسجد فقال : يارسول الله ، متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : ما أعددتَ لها ؟ قال : فكأن الرجل استكان ، ثم قال : يارسول الله ، ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكني أحب الله ورسوله ، قال : « فأنت مع من أحببت » .

وأكثر المفسرين : على أنه كلب حقيقة ، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه ، أو غنمه ، واسم « قطمير » كلب أغر ، والصحيح أنه زُبيري .

١٠ ـ ألقى الله عليهم الهيبة أو المهابة والوقار ، فلو شاهدهم إنسان أشرف على الهرب منهم ، وامتلأ قلبه خوفاً ورعباً منهم . قال ابن عطية : والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها ، لتكون لهم ولغيرهم فيهم

آية ، فلم يُبْلَ لهم ثوب ولم تغير صفة ، ولم يُنكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء ، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهمّ .

١١ ـ بعد الرقاد والتقليب أيقظهم الله من نومهم على ماكانوا عليه من هيئاتهم في ثيابهم وأحوالهم ، وليصيروا إلى التساؤل فيما بينهم عن مدة نومهم ، فقال بعضهم : ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ وقال آخرون : ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ .

١٢ ـ دل قوله تعالى : ﴿ فابعثوا أحدكم بوَرِقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ..﴾ الآية على مشروعية الوكالة ، وعلى حسن السياسة والتلطف في دخول المدينة وخروجها وشراء الطعام من أهلها ، حتى لا يعلم أهل المدينة بهم ، فيقتلوهم بالحجارة ، وهو أخبث القتل .

والوكالة معروفة في الجاهلية والإسلام ، وقد وكل النبي ﷺ بعض الصحابة في تزويجه من بعض النسوة ، ووكل عروة البارقي في شراء أضحية ، ووكل علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخاه عقيلاً عند عثمان رضي الله عنهما .

والوكالة عقد نيابة أذن الله سبحانه فيه للحاجة إليه ، وقيام المصلحة في ذلك : إذ ليس كل أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره ، أو بترفّه ، فيستنيب من يُريحه . ودل القرآن في غير هذه الآية على جواز الوكالة ، مثل قوله تعالى : ﴿ والعاملين عليها ﴾ [التوبة ٦٠/٩] وقوله : ﴿ اذْهَبوا بقَمِيصِي هذا ﴾ [يوسف ٩٣/١٢] .

والوكالة جائزة عند الجمهور لمن له عذر ومن لا عذر له ، وقال أبو حنيفة وسُحْنون : لا تجوز لمن لا عذر له . ودليل الجمهور حديث البخاري عن أبي هريرة المتضمن توكيل النبي ﷺ إعطاء بعض أنواع الإبل وفاء لدينه ، وقال : « ان خيرَكم أحسنكم قضاء » .

١٣ ـ تضمنت هذه الآية : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ..﴾ أيضاً جواز الشركة ؛ لأن الورِق كان لجميعهم ، كما تضمنت جواز الوكالة ؛ لأنهم بعثوا من وكّلوه بالشراء ، وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معاً ، وإن كان بعضهم أكثر أكلاً من الآخر ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وإن تُخَالطوهم فإخوانُكم ﴾ [البقرة ٢/٢٢٠] .

١٤ ـ أطلع الله تعالى الناس على أهل الكهف للعبرة والعظة والاسترشاد وإقامة الحجة على قدرة الله على الحشر وبعث الأجساد من القبور ، والحساب .

١٥ ـ إن اتخاذ المساجد على القبور ، والصلاة فيها ، والبناء عليها ، غير جائز في شرعنا ، لما روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال : « لعن رسول الله ﷺ زوّارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد ، والسُّرُج » .

ويجوز الدفن في التابوت ، لا سيما إذا كانت الأرض رخوة ، وقد دفن دانيال ويوسف عليهما السلام في تابوت ، وكان تابوت دانيال من حجر ، وتابوت يوسف من زجاج . لكن يكره في شرعنا .

١٦ ـ قوله تعالى : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ تنبيه على أن هذا العدد هو الحق ؛ لسكوت النص على التعقيب عليه ، خلافاً لما قال تعالى في الجملتين المتقدمتين : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ .

وقوله سبحانه ﴿ قل : ربّي أعلم بعدتهم ﴾ أمر دال على أن يردّ النبي ﷺ علم عدّتهم إلى الله عز وجل ، ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل .

وقوله ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ دليل على أن الله تعالى لم يبين لأحد عددهم ، فلهذا قال : ﴿ إلا مراء ظاهراً ﴾ أي ذاهباً ، ودليل على أنه لم يبح له في هذه الآية المراء والجدال إلا بالتي هي أحسن ، كما جاء في آية أخرى .

وفي قوله سبحانه ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم .

١٧ ـ السّنة والأدب الشرعيان يقتضيان تعليق الأمور المستقبلية بمشيئة الله تعالى ؛ للآية ﴿ ولا تقولن لشيء : إني فاعل ذلك غداً ، إلا أن يشاء الله ﴾ . والآية ليست في الأيمان ، وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين ، بأن يقول : إن شاء الله .

ويؤمر الإنسان بالذكر بعد النسيان ، أي بذكر مشيئة الله عند التذكر ولو بعد حين ، سنة أو أقل ، أو أكثر .

١٨ ـ أخبر تعالى في قوله : ﴿ ولبثوا في كهفهم ...﴾ عن مدة لبث أهل الكهف ، وهي ثلاث مئة وتسع سنوات ، كانوا في هذه المدة نياماً ، لا أمواتاً . وأمر الله تعالى برد العلم بمدتهم إلى الله عز وجل ، كما أمر بذلك في معرفة عددهم ؛ لأن الله تعالى أعلم بكل شيء ، وأعلم بغيب السموات والأرض وما فيها من أحوال المخلوقات ، ولا شريك له ولا مشير ، ولا نصير ولا معين ولا وزير .

والظاهر أن أهل الكهف ماتوا موتاً حقيقياً ، وإن كان لا مانع شرعاً من بقاء أجسادهم محفوظة ، لم يطرأ عليها البلى والفناء ؛ لأن أجساد الأنبياء والشهداء والعلماء الصالحين لا تفنى ولا تبلى .

١٩ ـ **العبرة من القصة** : دلت هذه القصة على أن الله قادر على البعث والقيامة ؛ لأن إثبات البعث والقيامة يدور على أصول ثلاثة : أحدها ـ أنه تعالى قادر على كل الممكنات ، والثاني ـ أنه تعالى عالم بجميع المعلومات الكليات والجزئيات ، والثالث ـ أن كل ما كان ممكن الحصول في بعض الأوقات كان ممكن الحصول في سائر الأوقات .

وهذه القصة تدل على أن الله تعالى عالم قادر على كل شيء ، فثبت القول بإمكان البعث والقيامة .

توجيهات للنّبي ﷺ وللمؤمنين

تلاوة القرآن والصبر على مجالسة الفقراء وإظهار كون الحق من عند الله

وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

الإعراب :

﴿ الحق من ربكم ﴾ : ﴿ الحق ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، و ﴿ من ربكم ﴾ حال . ﴿ يشوي الوجوه ﴾ صفة ثانية لماء أو حال من المهل .

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ﴿ الذين ﴾ وصلته : اسم ﴿ إن ﴾ ، وخبرها إما ﴿ أولئك لهم جنات عدن ﴾ وإما ﴿ إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي لانضيع أجرهم ، فأقيم المظهر مقام المضمر ، وإما أن خبرها مقدر ، أي إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يجازيهم الله بأعمالهم ، بدليل ﴿ إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ .

البلاغة :

﴿ الغداة والعشي ﴾ و ﴿ فليؤمن ﴾ ﴿ فليكفر ﴾ بينهما طباق .

﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾ و ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ مقابلة بين النار والجنة .

﴿ بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ تشبيه مرسل مفصل لذكر أداة الشبه ووجه التشبيه .

المفردات اللغوية :

﴿ واتل ماأوحي إليك من كتاب ربك ﴾ من القرآن ، ولاتسمع لقولهم : ﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ [يونس ١٥/١٠] . ﴿ لامبدل لكلماته ﴾ لامغير لأحكامه ، فلاأحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره . ﴿ ملتحداً ﴾ ملجأ تعدل إليه إذا هممت به . ﴿ واصبر نفسك ﴾ احبسها وثبّتها مع الفقراء . ﴿ بالغداة والعشي ﴾ أي في طرفي النهار ، وخصا بالبيان لغفلة الناس واشتغالهم بدنياهم حينئذٍ . ﴿ يريدون وجهه ﴾ يريدون بعبادتهم رضا الله وطاعته ، لاشيئاً من أعراض الدنيا . ﴿ ولاتعدُ عيناك عنهم ﴾ أي لايجاوزهم نظرك إلى غيرهم ، والمراد لاتهمل شأنهم وتهتم بالأغنياء ، وعبر بقوله تعالى ﴿ عيناك ﴾ عن صاحبها . ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ أي تقصد مجالسة الأغنياء وأصحاب النفوذ والثروة . ﴿ ولاتطع من أغفلنا قلبه ﴾ جعلناه غافلاً وهو حينئذٍ عُيَيْنَة بن حصن وأصحابه مثل أُمية بن خلف . ﴿ عن ذِكْرِنا ﴾ أي القرآن . ﴿ واتبع هواه ﴾ في الشرك . ﴿ فُرُطاً ﴾ أي تجاوزاً حد الاعتدال ، وتقدماً على الحق ، ونبذاً له . وكانوا قد دعوا النبي ﷺ إلى طرد الفقراء عن مجلسه لصناديد قريش . وفيه تنبيه إلى أن الداعي لهذا الاستدعاء غفلة القلب عن المعقولات ، والانهماك في المحسوسات حتى خفي عليهم أن الشرف بحلية النفس ، لابزينة الجسد .

﴿ وقل ﴾ خطاب للنبي ولأصحابه . ﴿ الحق من ربكم ﴾ الحق ومنه القرآن : ما يكون من جهة الله تعالى ، لا ما يقتضيه الهوى . ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ تهديد لهم ووعيد ، قال البيضاوي : وهو لا يقتضي استقلال العبد بفعله ، فإنه وإن كان بمشيئته ، فمشيئته ليست إلا بمشيئة الله تعالى . ﴿ أعتدنا ﴾ أعددنا وهيأنا . ﴿ للظالمين ﴾ الكافرين . ﴿ سرادقها ﴾ هو الفسطاط ، وهو لفظ فارسي معرب ، شبّه به ما يحيط بهم من لهب النار . ﴿ كالْمُهْل ﴾ كعكر الزيت ، أو كالشيء المذاب من المعادن كالنحاس والرصاص . ﴿ يشوي الوجوه ﴾ من حره إذا قُدّم أو قُرّب منها للشرب . ﴿ بئس الشراب ﴾ الْمُهْل هو . ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ أي وساءت النار متكأ ، وهو لمقابلة قوله تعالى الآتي ﴿ وحسنت مرتفقاً ﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار . و ﴿ مرتفقاً ﴾ : تمييز منقول عن الفاعل ، أي قبح مرتفقها .

﴿ إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ خبر ﴿ إن الذين ﴾ وفيها إقامة الظاهر مقام المضمر ، أي لانضيع أجرهم ، أي تثيبهم بما تضمنه . ويجوز أن يكون الخبر ﴿ أولئك لهم جنات عدن ﴾ وما بينهما اعتراض . وهذا على الوجه الأول استئناف لبيان الأجر ، أو خبر ثانٍ . ﴿ جنات عَدْن ﴾ إقامة واستقرار . ﴿ من أساور من ذهب ﴾ ﴿ من ﴾ الأولى للابتداء ، والثانية للبيان ، صفة لأساور ، وهي جمع أسورة أو أسوار في جمع سوار ، أي فهي جمع الجمع . وتنكير لفظها لتعظيم حسنها عن الإحاطة به .

﴿ سُنْدس ﴾ مارَقّ من الديباج ، وهو فارسي معرب . ﴿ واستبرق ﴾ ما غلظ منه ، وهو رومي معرّب . جاء في آية من سورة الرحمن ﴿ بطائنها من استبرق ﴾ [٥٤] وجمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ماتشتهي الأنفس وتلذ الأعين . ﴿ الأرائك ﴾ السرر ، جمع أريكة وهي السرير الذي عليه الْحَجَلة (الناموسية في عرفنا) . ﴿ نعم الثواب ﴾ الجنة ونعيمها .

سبب النزول :

نزول الآية (٢٨) :

﴿ واصبر نفسك ﴾ : عن سلمان الفارسي قال : جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ : عُيَيْنة بن حِصْن ، والأقرع بن حابس وذووهم ، فقالوا : يا رسول الله ، إنك لو جلست في صدر المجلس ، ونحّيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم ، يعنون سلمان وأبا ذرّ وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف ، ولم يكن عليهم غيرها ، جلسنا إليك ، وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله

تعالى : ﴿ واتْلُ ما أُوحي إليك من كتابِ ربّك ، لا مبدّلَ لكلماتِهِ ، ولن تجدَ من دونِه مُلْتَحداً . واصْبِرْ نفسك مع الذين يَدْعون ربهم بالغداة والعَشِيِّ ، يُريدون وَجْهه ﴾ حتى بلغ ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً ﴾ يتهددهم بالنار ، فقام النبي ﷺ يلتمسهم ، حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال : « الحمد لله الذي لم يمتني ، حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات »[1] .

وفي رواية أخرى : أن عُيَيْنة بن حِصْن الفَزَاري أتى النبي ﷺ قبل أن يُسْلِم ، وعنده جماعة من فقراء أصحابه ، فيهم سلمان الفارسي ، وعليه شَمْلة قد عَرِق فيها ، وبيده خوص يشقّه ، ثم ينسجه ، فقال له : أما يؤذيك ريح هؤلاء ، ونحن سادات مضر وأشرافها ، فإن أسلمنا أسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء ، فنحّهم حتى نتّبعك ، أو اجعل لهم مجلساً ، ولنا مجلساً ، فنزلت الآية .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا : جاء رسول الله ﷺ ، ورجل يقرأ سورة الحِجْر ، أو سورة الكهف ، فسكت ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم » .

نزول آية ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه .. ﴾ :

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه .. ﴾ قال : نزلت في أُمية بن خَلَف الْجُمَحي ، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه ، وتقريب صناديد أهل مكة ، فنزلت .

---

(١) أسباب النزول للواحدي ١٧١

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصة أصحاب الكهف التي يجهلها كثير من الناس لكونها من المغيبات ، مما يدل على أن القرآن وحي من عند الله تعالى ، أمر تعالى رسوله والمؤمنين ببعض الأوامر : وهي المواظبة على تلاوة القرآن ، وملازمة مجالس أصحابه الفقراء الذين يتدارسون القرآن ، وإظهار أن القرآن وكلّ حق هو من عند الله تعالى .

ثم ذكر تعالى جزاء الكافرين وعقابهم الأليم ، وثواب المتقين ونعيمهم الدائم ، جزاءَ كلٍّ بما يستحق .

التفسير والبيان :

﴿ واتل ما أُوحي .. ﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآية بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ، قائلاً له : واتل الكتاب الموحى به إليك ، واتبع ماجاء فيه من أمر ونهي ، فإنه لامغيّر لكلمات ربك من وعد الطائعين ووعيد للعصاة ، ولا محرف ولا مزيل لها ، فإن لم تعمل به ، فوقعت في الوعيد ، فلن تجد ملجأ ولا وليّاً ناصراً من دون الله تعالى .

هذا هو التوجيه الأول : تلاوة القرآن والعمل بمقتضاه ، والتوجيه الثاني هو مجالسة الفقراء والمستضعفين فقال تعالى :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم .. ﴾ أي جالس الذين يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه ويدعونه في الغداة (صباحاً) والعشي (مساء) أي في كل وقت ، سواء كانوا فقراء أو أغنياء ، يريدون وجهه (أي طاعته) ورضاه .

يقال كا بينا : إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن

يجلس معهم وحده ، من غير وجود أصحابه الفقراء أو الضعفاء ، كبلال ، وعمار ، وصهيب ، وخبّاب ، وابن مسعود ، وليفردوهم في مجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك ، وأمره أن يصبر ويثبّت نفسه في الجلوس مع هؤلاء ، ونظير الآية قوله : ﴿ ولاتَطْرُدِ الذين يَدْعونَ ربَّهم بالغداةِ والعَشِيِّ ، يُريدونَ وجهَه ﴾ [الأنعام ٥٢/٦] . وهذا شبيه بقول قوم نوح عليه السلام : ﴿ أَنؤمِنُ لَكَ ، واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء ١١١/٢٦] .

وأكد تعالى الأمر السابق بقوله : ﴿ ولاتَعْدُ عيناكَ عنهم .. ﴾ أي ولا تجاوز بصرك ونفسك إلى غيرهم ، فتطلب بدلهم أصحاب الثروة والنفوذ ، والمقصود النهي عن احتقارهم لسوء حالهم وفقرهم ، قال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرتُ أن أصبر نفسي معه » .

ثم أكد تعالى هذا النهي بقوله : ﴿ ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا .. ﴾ أي وإياك أن تطيع من وجدناه غافلاً ، وشغل عن الدين وعبادة ربّه بالدنيا ، وكان مسرفاً مفرطاً في أعماله وأفعاله غاية الإسراف والتفريط ، متبعاً شهواته . وهو دليل على أن سبب البعد عنهم [illegible] لهم عن اتباع أمر الله بمفاتن الدنيا وزينتها .

والتوجيه الثالث : إعلان مجيء الحق واضحاً ظاهراً من الله تعالى ، بحيث لم يبق إلا التهديد والوعيد الشديد على كفرهم فقال : ﴿ وقل الحق من ربكم .. ﴾ أي قل يا محمد للناس : هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ، وهو النظام الأصلح للحياة ، فمن شاء آمن به ، ومن شاء كفر به ، فأنا في غنى عنكم ، ومن عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ثم يحاسبكم ربكم على أعمالكم . وفي هذا تهديد ووعيد شديد .

ثم ذكر الله تعالى نوع الوعيد على الكفر ، والوعد على العمل الصالح ، فقال

واصفاً الأول : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ أي إنا أرصدنا وهيأنا وأعددنا للكافرين بالله ورسوله وكتابه نار جهنم ، الذي أحدق وأحاط بهم سورها من كل جانب ، حتى لا يجدوا مخلصاً منها . أخرج أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لسرادق النار أربعة جُدُر ، كُثُف[1] كل جدار مسافة أربعين سنة » والسُّرادق : واحد السرادِقات التي تُمَدُّ فوق صحن الدار ، أو السور .

﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهلِ ، يشوي الوجوهَ ﴾ أي إن يطلب هؤلاء الكافرون الظالمون الإغاثة والمدد والماء وهم في النار ، لإطفاء عطشهم ، بسبب حَرّ جهنم ، يغاثوا بماء غليظ كدُردي (عَكَر) الزيت ، أو كالدم والقيح ، يشوي جلود الوجوه من شدة حره ، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه ، حتى تسقط جلدة وجهه فيه ، كما جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « المُهْل كعَكَر الزيت ، فإذا قرّبه إلى وجهه ، سقطت فَرْوةُ وجهه فيه » .

﴿ بئس الشراب ، وساءت مُرْتَفقاً ﴾ أي بئس هذا الشراب شرابهم ، فما أقبحه ، فهو لا يزيل عطشاً ، ولا يُسكّن حرارة ، بل يزيد فيها ، وساءت جهنم مرتفقاً ، أي وساءت النار منزلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق والانتفاع ، كما قال تعالى : ﴿ إنها ساءتْ مُستَقَراً ومُقَاماً ﴾ [الفرقان ٦٦/٢٥] .

ثم وصف الله تعالى وعده للمؤمنين الصالحين السعداء فقال :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي إن الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به ، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة ، فلا يضيع الله أجرهم على إحسانهم العمل .

---

(١) الكثف : جمع كثيف ، وهو الثخين الغليظ .

والعطف بين الإيمان والعمل يدل على أن العمل الصالح مغاير للإيمان ؛ لأن العطف يوجب المغايرة .

وأوصاف نعيمهم هي :

١ ـ ﴿ أولئك لهم جنات عَدْنٍ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي أولئك لهم جنان إقامة دائمة ، تجري فيها الأنهار من تحت غرفهم ومنازلهم .

٢ ـ ﴿ يُحلَّون فيها من أساور من ذهب ﴾ أي يلبسون فيها حلية فيها أساور من ذهب ، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » . وفي آية أخرى : ﴿ يُحَلَّون فيها من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤاً ، ولِبَاسُهم فيها حريرٌ ﴾ [الحج ٢٢/٢٣] .

٣ ـ ﴿ ويَلْبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ﴾ أي ويلبسون سندساً هو رقيق الحرير ، وإستبرقاً هو غليظ الديباج أو الحرير ، واختير الأخضر لراحة العين عند إبصاره .

٤ ـ ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ أي مضطجعين فيها على السرر ، شأنهم شأن الملوك والعظماء ، والأرائك : جمع أريكة وهي السرير .

﴿ نعم الثواب وحَسُنت مرتفقاً ﴾ أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ، وحَسُنت منزلاً ومقراً ومقاماً ، كما قال في آية أخرى : ﴿ خالدين فيها ، حَسُنت مستقراً ومُقاماً ﴾ [الفرقان ٢٥/٧٦] .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات الإرشادات التالية :

١ ـ وجوب اتباع القرآن وما جاء به : لأنه لامغيّر لما أوعد بكلماته أهل

معاصيه والمخالفين لكتابه ، ووعد أهل طاعته المتبعين ما أمر به ، المبتعدين عما نهى عنه .

٢ ـ الإسلام دين المساواة : فلافرق في نظامه بين شريف ووضيع ، وغني وفقير ، ورئيس ومرؤوس ، ولا تفرقة في أموره الاجتماعية بين الطبقات ، الكل سواء في المجلس والمعاملة والحقوق والواجبات . وقد قضى القرآن بآية ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم .. ﴾ على الامتيازات في المجلس والخطاب والكلام بين أشراف قريش وساداتها وبين فقراء المسلمين وضعفائهم .

بل إن الإسلام مع الضعيف التقي الذي يبتغي بعمله رضوان الله وطاعته ، وينفر من الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة ، ويتبعون أهواءهم ، ويبلغون في إسرافهم في المعاصي حد الإفراط ومجاوزة الحد .

لهذا فلا داعي لتزيين مجلس النبي والمؤمنين من بعده بمجالسة الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسه ، ولم يُرد النبي ﷺ أن يفعل ذلك ، ولكن الله نهاه عن أن يفعله . وكان القوم قالوا : نحن أشراف مُضَر إن أسلمنا أسلم الناس ؛ وكان هذا من التكبر والإفراط في القول .

٣ ـ الحق من الله ربّ الناس ، فإليه التوفيق والخذلان ، وبيده الهدى والضلال ، يهدي من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ، ليس إلى أحد ولو النبي ﷺ من ذلك شيء ، فالله يؤتي الحق من يشاء ، وإن كان ضعيفاً ، ويحرمه من يشاء ، وإن كان قوياً غنياً ، وليس للنبي ﷺ أن يطرد المؤمنين من مجلسه لهوى السادة الزعماء من قريش .

فإن شئتم أيها السادة فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا ، وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد وتهديد ، أي إن كفرتم فقد أعدّ لكم النار ، وإن آمنتم فلكم الجنة .

والدليل على كون ذلك تهديداً قوله تعالى بعدئذٍ مباشرة : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ أي إنا أعددنا للكافرين الجاحدين ناراً شديد اللهب ، أحاط بهم سرادقها ، أي سورها ، أو ما يعلو الكفار من دخان أو نار .

وشراب أهل النار : هو الْمُهْل ، وهو ماء غليظ مثل دُرْدِيّ الزيت (وهو ما يبقى في أسفل الوعاء) ، أو النحاس المذاب ، أو كالقيح والدم ، كما في قوله تعالى : ﴿ ويُسْقَى من ماءٍ صديدٍ ، يَتَجَرَّعُهُ ولا يكادُ يُسيغُه ﴾ [إبراهيم ١٦/١٤ ـ ١٧] ، وقوله سبحانه : ﴿ وسُقوا ماءً حميماً ، فقطّع أمعاءَهم ﴾ [محمد ١٥/٤٧] .

وما أسوأ وأقبح العذاب في نار جهنم ، لذا قال تعالى : ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ أي مجتمعاً ومنزلاً ومقراً .

٤ ـ بعد أن ذكر تعالى ما أعد للكافرين من الهوان ، ذكر أيضاً ما للمؤمنين من الثواب ، فإن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن من المؤمنين عملاً ، مما يدل على أن أساس النجاة : الإيمان مع العمل الصالح . أما من أحسن عملاً من غير المؤمنين ، فعمله محبَط .

وثواب المؤمنين : جنات عدن أي وسطها وسائر الجنات مُحْدقة بها ، باللؤلؤ وأساور الذهب ، ويلبسون الثياب الْخُضْر من الرقيق الرقيق والغليظ الكثيف ، ويتكئون على الأرائك وهي السُّرر في الْحِجال[1] .

فما أجمل وأحسن ذلك الثواب ، لذا قال تعالى : ﴿ نعم الثواب وحسنت مُرْتَفقاً ﴾ أي نعمت الجنة ثواباً للمؤمنين الصالحين ، وحسنت مقراً ومقاماً ومجلساً ومجتمعاً .

---

(١) الحجال : جمع الْحَجَلة كالقبة ، وموضع يزين بالثياب والستور والأسرة للعروس .

صاحب الجنتين
مثل الغني المغتر بماله والفقير المعتز بعقيدته

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾
كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ
وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ
مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا
مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَٰحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ
سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ
مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ
لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾
هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

الإعراب :

﴿ لكنّا هو الله ربي ﴾ ﴿ لكنّا ﴾ : أصله : لكن أنا ، فحذفت الهمزة ، وأدغمت النونان بعضها أو نقلت حركة الهمزة إلى النون . ومن قرأ ﴿ لكنْ ﴾ بحذف الألف فعلى الأصل في حالة الوصل . ولكن هنا هي الخفيفة التي لا يراد بها الاستدراك . وأنا : مبتدأ ، وهو : مبتدأ ثانٍ ، والله : خبر المبتدأ الثاني ، وربي : صفته ، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره : خبر المبتدأ الأول . والعائد إليه : الياء المجرور بالإضافة في ﴿ ربي ﴾ .

﴿ ماشاء الله ﴾ ﴿ ما ﴾ : إما اسم موصول ، و ﴿ شاء الله ﴾ : صلته ، وهو في موضع مبتدأ مرفوع ، وخبره محذوف ، أي الذي شاءه الله كائن ، فحذف الهاء التي هي العائد تخفيفاً ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره : الأمر ماشاء الله ، وحُذف العائد تخفيفاً ؛ وإما أن تكون شرطية في موضع نصب بشاء ، وجوابها محذوف ، أي ماشاء الله كان .

﴿ إن ترنِ أنا أقلّ منك ﴾ ﴿ إن ﴾ : شرطية ، وجوابها : ﴿ فعسى ربي أن يؤتيني ﴾ و ﴿ أنا ﴾ : ضمير فصل ، لا موضع له من الإعراب ؛ لأنه وقع بين معرفة ونكرة تقارب المعرفة ، فالمعرفة ياء ﴿ ترني ﴾ والنكرة التي تقارب المعرفة : ﴿ أقل منك ﴾ قرب من المعرفة لتعلق ﴿ منك ﴾ به ، وهو مفعول ثانٍ ، وياء ﴿ ترني ﴾ : مفعول أول .

﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ ﴿ غوراً ﴾ : إما بمعنى غائر ، أو فيه مضاف محذوف ، أي ذا غور ، مثل ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ﴾ أي مثل رجلين . و ﴿ غوراً ﴾ : خبر أصبح المنصوب .

﴿ وأحيط بثمره ﴾ ﴿ ثمره ﴾ : اسم جنس كخشبة وخشب ، وشجرة وشجر . وقرئ ﴿ بثُمَره ﴾ بضمتين ، وهو إما جمع ثمار ، وثمار جمع ثمرة ، فيكون جمع الجمع ، كإزار وأُزُر ، وإما أن يكون كخشبة وخُشُب . وقرئ بضمة واحدة ﴿ ثُمَره ﴾ مخففاً من ثُمُر ، مثل : خُشُب وخُشْب .

﴿ ولم تكن له فئة ﴾ قرئ ﴿ تكن ﴾ بالتاء ؛ لأن الفئة مؤنثة ، وقرئ بالياء لوجود الفصل .

﴿ هنالك الولاية ﴾ ﴿ هنالك ﴾ : يجوز أن يكون ظرف زمان وظرف مكان ، والأصل فيه أن يكون للمكان ، واللام للبعد ، ويتعلق بقوله : ﴿ منتصراً ﴾ وتكون ﴿ الولاية لله ﴾ مبتدأ وخبر . و ﴿ الحق ﴾ : بالرفع صفة للولاية ، وجعله خبراً أولى من جعله صفة ، لما فيه من الفصل بين الصفة والموصوف . وعلى قراءة الجر : صفة لله ، فلا فصل فيه . ويجوز أن يتعلق بخبر المبتدأ الذي هو ﴿ لله ﴾ . ويجوز جعل ﴿ هنالك ﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿ الولاية ﴾ وعامله : استقر ، الذي قام ﴿ هنالك ﴾ مقامه ، و ﴿ لله ﴾ : حال .

﴿ خير ثواباً ﴾ ﴿ خير عقباً ﴾ : نصبهما على التمييز .

البلاغة :

﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين ﴾ تشبيه تمثيلي ؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .

﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ ﴿ غوراً ﴾ : مبالغة بإطلاق المصدر على اسم الفاعل ، أي غائراً .

﴿ يقلب كفّيه على ماأنفق فيها ﴾ كناية عن التحسر والندم ؛ لأن النادم يضرب بيمينه على شماله .

المفردات اللغوية :

﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾ اجعل للكفار مع المؤمنين مثلاً . ﴿ رجلين ﴾ بدل ، وهو وما بعده تفسير للمثل . ﴿ جعلنا لأحدهما ﴾ للكافر . ﴿ جنتين ﴾ بستانين ، وسميت الجنة بذلك لاجتنان أرضها واستتارها بظل الشجر . ﴿ أعناب ﴾ كروم العنب . ﴿ حففناهما بنخل ﴾ جعلنا النخل محيطة بها . ﴿ كلتا الجنتين آتت ﴾ مبتدأ وخبر ، و ﴿ كلتا ﴾ : مفرد يدل على التثنية . ﴿ أكلها ﴾ ثمرها . ﴿ ولم تظلم ﴾ تنقص . ﴿ وفجرنا خلالها ﴾ شققنا وسطها . ﴿ نَهَراً ﴾ أو بتسكين العين : مجرى الماء العذب . ﴿ وكان له ثمر ﴾ أنواع من المال سوى الجنتين من ثمر ماله . ﴿ فقال لصاحبه ﴾ المؤمن . ﴿ يحاوره ﴾ يجادله ويراجعه في الكلام ، من حاور : إذا راجع . ﴿ وأعز نفراً ﴾ النفر هنا : الخدم والحشم والولد والأعوان .

﴿ ودخل جنته ﴾ أي دخل مع صاحبه بستانه يطوف به فيه ، ويريه أثماره ويفاخره . وأفرد الجنة ولم يقل جنتيه ، للتنبيه على أنه ماله جنة غيرها ، فلا نصيب له في جنة الخلد في الآخرة التي وعد بها المؤمنون ، فما ملكه في الدنيا : هو جنته لا غير ، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى ، أو لأن الدخول يكون عادة في واحدة ثم الأخرى . ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ معجب بما أوتي ، مفتخر به ، كافر لنعمة ربه ، معرّض بذلك نفسه لسخط الله ، وهو أفحش الظلم . ﴿ تبيد ﴾ تنعدم أو تفنى وتهلك .

﴿ ولئن رددت إلى ربي ﴾ بالبعث في الآخرة كما زعمت . ﴿ خيراً منها ﴾ من جنته . ﴿ منقلباً ﴾ مرجعاً وعاقبة ؛ لأنها فانية وتلك باقية . وإنما أقسم هذا الخاسر على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه هذه النعم ، لأس لاستحقاقه إياها لذاته . ﴿ وهو يحاوره ﴾ يجاوبه . ﴿ خلقك من تراب ﴾ أي خلق أصلك من تراب ، وهو آدم عليه السلام . ﴿ نطفة ﴾ مني . ﴿ سواك رجلاً ﴾ عدلك وصيّرك إنساناً كامل الرجولة . وجعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى ؛ لأن منشأه الشك في كمال قدرة الله تعالى ، ولذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب ، فإن من قدر على بدء خلقه منه ، قدر على أن يعيده منه .

﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ ﴿ هو ﴾ : ضمير الشأن ، تفسره الجملة بعده ، والمعنى : أنا أقول : الله ربي . ﴿ ولولا ﴾ هلا . ﴿ قلت ﴾ عند إعجابك بها ، أو عند دخولك . ﴿ ماشاء الله .. ﴾ الأمر ماشاء الله ، او ماشاء الله كائن ، على أن ما موصولة ، أو أي شيء شاء الله كان ، على أنها شرطيه ، يعني إقراراً بأن الجنة وما فيها بمشيئة الله ، إن شاء أبقاها ، وإن شاء أبادها . ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ فهلا قلت : لا قوة إلا بالله ، اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله ، وإن ماتيسر من عمارتها ، فبمعونته وإقداره . جاء في الحديث الذي رواه ابن السني عن أنس ، وهو ضعيف . « من رأى شيئاً فأعجبه ، فقال : ماشاء الله ، لا قوة إلا بالله ، لم تضره العين » . وفي رواية أخرى : « من أُعطي خيراً من أهل أو مال ، فيقول عند ذلك : ماشاء الله ، لا قوة إلا بالله ، لم ير فيه مكروهاً » .

﴿ إن ترن أنا ﴾ ضمير فصل بين المفعولين أو تأكيد للمفعول الأول . ﴿ فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ﴾ أي في الدنيا أو في الآخرة لإيماني ، وهو جواب الشرط . ﴿ ويرسل عليها ﴾ على جنتك لكفرك . ﴿ حُسْباناً من السماء ﴾ جمع حسبانة ، وهي الصواعق . ﴿ فتصبح صعيداً زَلَقاً ﴾ أرضاً ملساء لا يثبت عليها قدم . ﴿ او يصبح ماؤها غوراً ﴾ غائراً ، ويصبح : عطف على ﴿ يرسل ﴾ لا على : ﴿ تصبح ﴾ لأن غور الماء لا يتسبب عن الصواعق . ﴿ طلباً ﴾ للماء ، أي عملاً أو حيلة لرده .

﴿ وأحيط بثمره ﴾ أهلكت أمواله ، بما فيها جنته ، حسبما توقع صاحبه وأنذره منه . ﴿ فأصبح يقلّب كفيه ﴾ هذا كناية في اللغة عن التحسر والندم . ﴿ على ماأنفق فيها ﴾ في عمارة جنته . ﴿ وهي خاوية ﴾ ساقطة . ﴿ على عروشها ﴾ دعائمها التي كانت منصوبة للكرم ، بأن سقطت عروشها على الأرض ، ثم سقطت الكروم . ﴿ يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ ﴿ يا ﴾ : للتنبيه ، وكأنه تذكر موعظة أخيه .

﴿ فئة ﴾ جماعة . ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾ عند هلاكها ، بدفع الإهلاك فإن الله هو القادر على نصره وحده . ﴿ وما كان منتصراً ﴾ بنفسه عند هلاكها ، ممتنعاً بقوته عن انتقام الله منه . ﴿ هنالك ﴾ في ذلك المقام أو تلك الحال أو يوم القيامة . ﴿ الولاية لله الحق ﴾ بفتح الواو : النصرة له وحده لا يقدر عليها غيره ، وبكسر الواو : الملك والسلطان . ﴿ هو خير ثواباً ﴾ من ثواب غيره لو كان يثيب . ﴿ وخير عُقْباً ﴾ عاقبة للمؤمنين .

سبب النزول :

قيل : نزلت في أخوين من بني مخزوم : الأسود بن عبد الأسود بن عبد ياليل ، وكان كافراً ، وأبي سلمة عبد الله بن الأسود ، كان مؤمناً ، وهو زوج أم سلمة قبل زواج الرسول ﷺ بها .

وقيل في قول ابن عباس : أخوان من بني إسرائيل ، أحدهما كافر ، اسمه فرطوس ، والآخر مؤمن اسمه يهوذا أو قطفير ، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار ، فتشاطرا ، فاشترى الكافر بها ضياعاً وعقاراً ، وصرفها المؤمن في وجوه الخير ، وآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى ولم تثبت صحة هذه الاقوال .

وعن مقاتل : هما المذكوران في سورة الصافات في قوله تعالى : ﴿ قال قائل منهم : إني كان لي قرين ﴾ [٥١] . وهما من بني إسرائيل ، كما ذكر ابن عباس .

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى نبيه بملازمة مجالس أصحابه الفقراء ، وعدم الاستجابة لمطالب المشركين المتجبرين بطرد الضعفاء المؤمنين ، حتى لا يتساووا معهم ، ولا يؤذوا بمناظرهم وروائحهم ، فيتهن كبرياؤهم وتتدنى عزتهم ، أردف ذلك بمثل للغني الكافر ، والفقير المؤمن ؛ لأن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين ، فأبان تعالى أن المال ليس سبيل الافتخار ، لاحتمال أن يصير الفقير غنياً ، والغني فقيراً ، وإنما المفاخرة تكون بطاعة الله وعبادته ، وهي حاصلة لفقراء المؤمنين .

التفسير والبيان :

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين وأمثالهم المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، وافتخروا بأموالهم وأحسابهم .

﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين ... ﴾ المعنى : اضرب مثلاً أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله الذين طلبوا منك طرد المؤمنين الدعاة المخلصين لله صباح مساء وفي كل وقت . ذلك المثل هو حال رجلين ، جعل الله لأحدهما جنتين ، أي بستانين من أعناب ، محاطين بنخيل ، وفي وسطها الزروع ، وكل من الأشجار والزروع

مثمر مقبل في غاية الجودة ، فجمع بين القوت والفاكهة . فقوله : ﴿ وحففناهما بنخل ﴾ أي وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين .

والرجلان أخوان أو صديقان أو شريكان من بني إسرائيل ، أحدهما : كافر مغتر بدنياه ، والثاني : مؤمن موحد بالله .

والقصد من هذا المثل العظة والعبرة ، فقد آل حال الكافر المغرور إلى الدمار والإفلاس ، لكفران النعم وعصيان الله ، وظل المؤمن الفقير على طاعة الله ، بالرغم من معاناته الشدائد والمتاعب ، فآتاه الله الخلود في الجنة .

﴿ كلتا الجنتين آتت أُكُلَها ﴾ أي أخرجت الجنتان ثمرهما .

﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ ولم تنقص منه شيئاً في كل عام .

﴿ وفجرنا خلالهما نهراً ﴾ أي وشققنا وأجرينا وسط الجنتين نهراً ، تتفرع عنه عدة جداول ، لسقي جميع الجوانب .

﴿ وكان له ثمر ﴾ أي وكان لصاحب البستانين أنواع أخرى من المال من النقدين (الذهب والفضة) بسبب التجارة وتنمية ثمار الأرض .

وأدى به هذا الغنى إلى الزهو والكبرياء والاغترار بالمال ، شأن كل غني مغرور . ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ أي فقال صاحب هاتين الجنتين لصاحبه المؤمن الفقير ، وهو يجادله ويخاصمه ويحاوره الحديث ، ويفتخر عليه : أنا أكثر منك ثروة ، وأعز نفراً ، أي أكثر خدماً وحشماً وولداً ، وأقوى عشيرة ورهطاً يدافعون عني .

وازداد به الغرور ظنه استمرار تلك الثروة وعدم فنائها لقلة عقله وضعف يقينه بالله ، وهذا ما حكاه القرآن عنه :

﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه .. ﴾ أي ودخل هذا الثري المترف بستانه ذا

الجناحين مع صاحبه المؤمن الفقير الصالح ، فقال اغتراراً منه ، وهو ظالم لنفسه بكفره وتمرده وتجبره وإنكاره المعاد حين عاين الثمار والزروع والأنهار المتدفقة في مزرعته : ماأظن أن تفنى هذه الجنة أبداً ، وما أظن أن يوم القيامة آتٍ ، كما تقول يا صاحبي ، فقوله : ﴿ الساعة قائمة ﴾ ، أي القيامة كائنة . وكان في الحالين مخطئاً ظالماً لنفسه بوضعه الشيء في غير محله ؛ إذ كان يجب عليه شكر تلك النعمة ، وتفكره في عالم الآخرة ، وذلك لطول أمله ، وشدة حرصه ، وتمام غفلته ، وشدة اغتراره بالدنيا .

ثم أقسم على فرض لقاء ربه بقوله :

﴿ ولئن رُددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ أي إن رجعت إلى ربي ، على سبيل الفرض والتقدير ، وكما يزعم صاحبي ، لألفين في الآخرة عند ربي خيراً وأحسن من هذا الحظ في الدنيا ، تمنياً على الله ، وادعاء لكرامتي عنده ومكانتي لديه ، وأنه لولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا ، ولولا استحقاقي واستئهالي ماأغناني في الدنيا ، كما جاء في آية أخرى على لسان الكافر : ﴿ ولئن رُجِعْتُ إلى ربّي إنَّ لي عِنْدَه للْحُسْنَى ﴾ [فصلت ٤١/٥٠] .

فأجابه المؤمن بقوله : ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذي خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلاً ﴾ أي أجابه صاحبه المؤمن واعظاً له ، وزاجراً عما هو فيه من الكفر والاغترار : أكفرت بمن خلقك من تراب ؟ أي خلق أصلك من تراب ، وخَلْق أصله سبب في خلقه ، فكان خلقه خلقاً له ، وكذلك غذاؤك وغذاء الحيوان من النبات ، وغذاء النبات من الماء والتراب ، ثم يتحول هذا الغذاء دماً ، يتحول بعضه إلى نطفة تكون وسيلة للخلق ، ثم خلقك بشراً سوياً تام الخلق والأعضاء ، فقوله : ﴿ سوَّاك ﴾ معناه عدَّلك وكَمَّلك إنساناً تاماً ، بالغاً مبلغ الرجال .

وقد وصفه صاحبه بأنه كافر بالله ، جاحد لأنعمه ؛ لشكه في البعث .

﴿ لكنّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً ﴾ أي لكن أنا لاأقول بمقالتك ، بل أقرّ لله بالوحدانية والربوبية ، ولا أشرك به أحداً ، بل هو الله المعبود وحده لا شريك له .

ثم قال له مذكراً بوجوب الإيمان بالله : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك ، قلت : ماشاء الله ، لا قوة إلا بالله ﴾ أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ماأنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد مالم يعط غيرك ، وقلت : ماشاء الله ، لا قوة إلا بالله ، أي الأمر ماشاء الله ، والكائن ماقدره الله ، ليكون ذلك دليلاً على عبوديتك والاعتراف بالعجز .

ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده ، فليقل : ﴿ ماشاء الله ، لا قوة إلا بالله ﴾ ، عملاً بهذه الآية ، وبما روي من الحديث المرفوع الذي أخرجه الحافظ أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ماأنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : ﴿ ماشاء الله ، لا قوة إلا بالله ﴾ ، فيرى فيه آفة دون الموت » . وثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » .

ثم أجابه عن قضية الافتخار بالمال والولد :

﴿ إن ترنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولداً ، فعسى ربي أن يؤتينِ خيراً من جنتك .. ﴾ أي إنك إذ تنظر إلي بأني أفقر منك في المال ، وأقل منك أولاداً وعشيرة في هذه الدنيا الفانية ، فإني أتوقع انقلاب الحال في الآخرة ، وأرجو أن يعطيني الله خيراً من جنتك في الدار الآخرة ، ويرسل على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لاتبيد ولا تفنى عذاباً من السماء ، كمطر شديد يقلع زرعها وأشجارها

أو صواعق ، فيسلبك نعمته ويخرّب بستانك ، وتصبح أرضاً بيضاء لا نبات فيها ، وتراباً أملس ، لا يثبت فيه قدم ، وينزلق عليها لملاستها انزلاقاً . وقوله : ﴿ فعسى ربي ﴾ أي فلعل ربي .

أو يصبح ماؤها غائراً في الأرض ، فلن تتمكن من إدراكه بعد غوره ، ولن تستطيع ردّ الماء الغائر بأية حيلة .

وتحقق ماتوقعه المؤمن فقال :

﴿ وأحيط بثمره ، فأصبح يقلّب كفيه على ماأنفق فيها ... ﴾ أي ونزل الإهلاك والجائحة بالأموال والثمار بإرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها ، وألهته عن الله عز وجل ، ودمرت أمواله وثماره ، فأصبح نادماً متحسراً على ضياع نفقته التي أنفقها عليها ، فتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر ، وتمنى متذكراً موعظة صاحبه أن لم يكن أشرك بربه أحداً ، والخاوية على عروشها : هي التي سقطت عرائشها على الأرض ، قيل : أرسل الله عليها ناراً فأكلتها ، وسقط بعضها على بعض

﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصراً ﴾ أي ولم تنصره وتفيده عشيرة أو ولد ، كما افتخر بهم واعتز ، وما كان منتصراً أي ممتنعاً بقوته عن انتقام الله تعالى .

﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ هذا تأكيد للجملة السابقة ، أي أنه في هذه الحال من الشدة والمحنة تكون النصرة لله وحده ، ويؤمن فيها البرّ والفاجر ، ويرجع كل أحد مؤمن أو كافر إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب . والولاية : السلطان والملك والنصرة والحكم .

﴿ هو خير ثواباً وخير عُقْباً ﴾ أي أن الله خير جزاءً ، وأفضل عاقبة لأوليائه المؤمنين ، فينصرهم ويعوضهم عما فقدوه في دار الدنيا ، ويكون ثواب الأعمال التي

تكون لله خيراً ، وعاقبتها حميدة رشيدة ، كلها خير ؛ لأن الله هو خير ثواباً لمن آمن به ، وخير عاقبة لمن رجاه وآمن به .

ونظير الآية : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنَّا باللهِ وَحْدَهُ ، وكفرنا بما كنا به مُشْركين ﴾ [غافر ٨٤/٤٠] .

فقه الحياة أو الأحكام :

في هذه القصة عبر وعظات وهي :

١ ـ هذا مثل واضح للمؤمنين والكافرين ، مثل رجل مؤمن موحد بالله ، فقير صالح آثر الآخرة على الدنيا ، فآتاه الله الجنة وثوابه العظيم ، ومثل رجل كافر مغتر بدنياه مستنكف عن مجالسة المؤمنين ، وهما ـ كما ذكر الكلبي ـ أخوان مخزوميان من أهل مكة ، أو أخوان من بني إسرائيل ، أحدهما مؤمن والآخر كافر ، كما ذكر ابن عباس ومقاتل ، كان للكافر بستانان فيهما الأشجار والزروع والثمار والأنهار ، وأموال أخرى ، فكفر بأنعم الله ، وتفاخر على صاحبه بالمال والأولاد ، وشك في البعث ، فدمّر الله ثروته ، وأتلف البستانين بحسبان من السماء ، وهو السحابة ذات المطر الغزير جداً ، أو الصاعقة ، أو العذاب ، فندم وتحسر على ماأنفق ، وقال : ﴿ يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ أي يا ليتني عرفت نعم الله علي ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به ، وهذا ندم منه حيث لا ينفعه الندم .

٢ ـ لا يمنع فضل الله عن الكافر ، فقد آتى الله صاحب الجنتين ثروة ومالاً وولداً وأتباعاً .

٣ ـ شأن الغني دائماً إلا من رحم الله المفاخرة بأمواله والاغترار بالدنيا ، والترفع على الآخرين بالثروة ، مع أنها مال زائل ، وعرض متحول ، فيمكن أن ينقلب صفر اليدين بين عشية وضحاها .

٤ ـ على المؤمن ألا يستكين أمام عزة الغني الكافر ، وعليه نصحه وإرشاده إلى الإيمان بالله ، والإقرار بوحدانيته ، وشكر نعمه وأفضاله عليه .

٥ ـ قد يكون الاغترار بالمال سبباً لإنكار البعث والقيامة والحشر والنشر ؛ لأن الغني الظالم يرى في المادة كل شيء ، وقد يستبد به الغرور لغفلة منه وضعف عقل ، فيزعم أن عطاء الدنيا له لاستحقاقه واستئهاله ، ويقول : إن كان بعث ، فكما أعطاني الله هذه النعم في الدنيا ، فسيعطيني أفضل منه في الآخرة ، لكرامتي عليه .

٦ ـ قال الإمام مالك : ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول : ﴿ ماشاء الله ، لا قوة إلا بالله ﴾ . وهذه الكلمة كما روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ كنز من كنوز الجنة ، وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، إذا قالها العبد ، قال الله عز وجل : أسلم عبدي واستسلم » . وقد وردت هذه الكلمة في القصة في وصية المؤمن للكافر وردّه عليه ، حينما ظن عدم فناء جنته ، وتفاخر بثروته على صاحبه .

٧ ـ إذا نزل البلاء فلا تستطيع فئة في الدنيا منعه أو رفعه ، أو الالتجاء إليها لإزالته ، ولن يكون المبتلى الخاسر منتصراً أي ممتنعاً عن إصابة العذاب له ، فلا يُنصَرُ ولا ينتصر ، لمّا أصابه العذاب .

٨ ـ إن الولاية ، أي السلطان والقدرة ، والملك والحكم الحق لله عز وجل ، فلا يردّ أمره إلى أحد ، والملك في كل وقت لله : ﴿ والأمرُ يومئذٍ للهِ ﴾ [الانفطار ١٩/٨٢] .

مثل الحياة الدنيا

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

الإعراب :

﴿ مثل الحياة الدنيا كماء ﴾ ﴿ مثل ﴾ : مفعول أول ، و ﴿ كماء ﴾ : مفعول ثانٍ ، وقيل : ﴿ كماء ﴾ : خبر مبتدأ محذوف ، أي هي كماء ، أي الحياة الدنيا كماء .

﴿ ثواباً ﴾ و ﴿ أملاً ﴾ منصوبان على التمييز .

المفردات اللغوية :

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ﴾ اذكر لهم ماتشبهه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها وصفتها الغريبة . ﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ امتزج الماء بسبب نزول المطر بالنبات ، حتى روي وحسن . ﴿ فأصبح هشيماً ﴾ فصار النبات يابساً مهشوماً متفرقة أجزاؤه . ﴿ تذروه الرياح ﴾ تفرّقه وتنثره وتطيره وتذهب به . المعنى : شبّه الدنيا بنبات حسن ، فيبس فتكسر ، ففرقته الرياح . ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ أي كان الله على كل شيء من الإنشاء والإفناء قادراً : كامل القدرة .

﴿ زينة الحياة الدنيا ﴾ يتجمل بها فيها . ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، زاد بعضهم « ولا حول ولا قوة إلا بالله » أو هي الأعمال الصالحة كلها ، ومنها الصلوات الخمس وأعمال الحج ، وصيام رمضان ، وسبحان الله .. إلخ ، والكلام الطيب . ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ أي جزاء وعائداً . ﴿ وخير أملاً ﴾ أي ما يأمله الإنسان ويرجوه عند الله تعالى : لأن صاحبها ينال بها في الآخرة ماكان يأمل بها في الدنيا .

المناسبة :

هذا مثل آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها ، والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين ، فلما بيّن الله تعالى في المثل الأول حال الكافر والمؤمن وما آل إليه افتخار الكافر من الهلاك ، بيّن في هذا المثل حال الحياة الدنيا واضمحلالها ومصير مافيها من النعيم والترفه إلى الهلاك .

ولما بيّن تعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والزوال ، بيّن أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا في عرف الناس ، وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض ، فيقبح بالعاقل الافتخار به أو الفرح بسببه ، مما يدل على فساد قول المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأولاد .

ثم ذكر الله تعالى ما يرجح أولئك المؤمنين الفقراء على أولئك الأغنياء الكفار بما يقدمونه من أعمال صالحة ، فهي زاد الآخرة الدائم الباقي ، والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وقد ورد في السنة ما يفسر الباقيات الصالحات ، روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : « لقيتُ إبراهيم ليلة أُسري بي ، فقال : يا محمد ، أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

وروى سعيد بن منصور وأحمد وابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات ، قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وروى الطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ :

« سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هن الباقيات الصالحات ، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها ، وهن من كنوز الجنة » .

وروى النسائي والطبراني والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً : « خذوا جُنَّتكم ، قيل : يا رسول الله ، من أي عدو قد حضر ، قال : بل جُنَّتكم من النار : قول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدّمات معقّبات ومُجنّبات ، وهن الباقيات الصالحات » .

التفسير والبيان :

اضرب مثلاً آخر يا محمد للناس من مشركي مكة وغيرهم الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين ، مثلاً يبين حقارة الدنيا وقلة بقائها ، وزوالها وفناءها ، فهي بعد الخضرة والنضارة والبهجة تصبح بمراد الله عابسة قاتمة لا جمال فيها ولا روعة ، إنها في نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال تشبه حال نبات أخضر فيه زهر ونضرة وحبّ ، نبت وتكوّن بماء السماء ، ثم بعد هذا كله أصبح هشيماً ، أي يابساً ، تذروه الرياح ، أي تفرقه وتنثره ذات اليمين وذات الشمال .

﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ أي والله قادر على الإنشاء والإفناء ، وعلى كل الأحوال ، حال الخضرة والنضرة ، وحال اليبس والهلاك والفناء ، فلا ينبغي للعاقل أن يغتر بإقبال الدنيا أو يفخر بها أو يتكبر بسببها .

وكثيراً ما يشبّه الله الحياة الدنيا بهذا المثل ، كما قال تعالى في سورة يونس : ﴿ إنما مَثَلُ الحياةِ الدُّنْيا كماءٍ أنْزَلْناه من السماء ، فاختلَط به نباتُ الأرضِ ، مما يأكل الناسُ والأنعامُ ﴾ [٢٤] وفي سورة الحديد : ﴿ اعْلَمُوا أنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ ، كَمَثَلِ غيثٍ أعْجَبَ الكفارَ نباتُه ﴾ [٢٠] .

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ أي إن الأموال والبنين هي من زينة الحياة الدنيا ، وليست من زينة الآخرة الدائمة ، فهي سريعة الفناء والانقراض ، فلا ينبغي للعاقل الاغترار بها والتفاخر بها . والمقصود إدخال هذا الجزء تحت ذلك الكل في المثل السابق الذي أبان سرعة انقضاء الدنيا وإشرافها على الزوال والفناء . والسبب في ذكر المال والبنين فقط ؛ لأن في المال جمالاً ونفعاً ، وفي البنين قوة ودفعاً ، فصارا زينة الحياة الدنيا .

وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه ؛ لأنه أهم وأخطر ، وأكثر تحقيقاً للحاجة والرغبة والهوى ، فقد يكون البنون دون المال ، ويكون البؤس والشقاء .

ونظير الآية : ﴿ زُيِّن للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنينَ ، والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضَّةِ .. ﴾ الآية [آل عمران ١٤/٣] .

قال الإمام علي كرم الله وجهه : المال والبنون حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام .

﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ أي إن أعمال الخير وأفعال الطاعات ، كالصلوات والصدقات ، والجهاد في سبيل الله ، ومساعدة الفقراء ، والأذكار أفضل ثواباً ، وأعظم قربة عند الله ، وأبقى أثراً ؛ إذ ثوابها عائد على صاحبها ، وخير أملاً حيث ينال صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا .

وقال ابن عباس : ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وكذلك قال عثمان بن عفان : هي لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فقه الحياة أو الأحكام :

ينبغي أن يعرف الناس ولاسيما المتكبرون الذين طلبوا طرد فقراء المؤمنين مَثَلَ الحياة الدنيا ، أي شبهها ، فهي في عدم استقرارها وعدم استمرارها على حال واحدة كالماء لا يستقر في موضع ، ولا يستقيم على حالة واحدة ، وهي مثله أيضاً في أنها تفنى ، وهو يذهب ولا يبقى ، وهي كذلك لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها ، كما أن من دخل الماء لابد أن يبتلّ منه ، والكفاف من الدنيا ينفع وفضولها يضر ، كما أن الماء إذا جاوز المقدار كان ضارّاً مهلكاً . ورد في صحيح مسلم عن النبي ﷺ : « قد أفلح من أسلم ، ورُزق كفافاً ، وقنَّعَهُ اللهُ بما آتاه » . والخلاصة : أن هذا المثل يدل على سرعة زوال الدنيا وفنائها .

والله وحده هو الباقي المقتدر على كل شيء من الإنشاء والإفناء والإحياء .

وكذلك زينة الحياة الدنيا من المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض ، والباقيات الصالحات مما يأتي به فقراء المسلمين كسَلْمان وصُهيب من الطاعات أفضل ثواباً عند الله ، وأفضل أملاً من ذي المال والبنين دون عمل صالح ، وليس في زينة الدنيا خير ، ولكنه مثل قوله تعالى : ﴿ أصحاب الْجَنَّةِ يومئذٍ خيرٌ مُسْتَقَرّاً ﴾ [الفرقان ٢٤/٢٥] .

واختلف العلماء في الباقيات الصالحات : فقال ابن عباس وآخرون : هي الصلوات الخمس ، وروي عنه كما بينا أنها : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » وقال الجمهور : هي الكلمات المأثور فضلها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وذلك مأخوذ من حديث رواه النسائي عن أبي سعيد الخدري .

وعن ابن عباس أيضاً : أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة ، ورجّحه الطبري ، وقال القرطبي : وهو الصحيح إن شاء الله ؛ لأن كل ما بقي ثوابه ، جاز أن يقال له هذا .

تسيير الجبال والحشر وعرض صحائف الأعمال يوم القيامة

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإعراب :

﴿ ويوم نسيّر الجبال ﴾ ﴿ يوم ﴾ : منصوب بفعل مقدر ، تقديره : اذكر يوم .

﴿ وعُرضوا على ربّك صفاً ﴾ ﴿ صفاً ﴾ : حال منصوب من واو ﴿ عرضوا ﴾ وهو عامله ، وتقديره : عُرضوا مصطفين .

﴿ أن لن نجعل ﴾ أن : مخففة من الثقيلة ، أي أنه .

المفردات اللغوية :

﴿ ويوم نسيّر الجبال ﴾ واذكر يوم نقلع الجبال ونذهب بها عن وجه الأرض ، فنجعلها هباء منبثاً . ﴿ بارزة ﴾ ظاهرة ، ليس عليها شيء من جبل ولا غيره . ﴿ وحشرناهم ﴾ جمعنا المؤمنين والكافرين إلى الموقف ، والحشر : الجمع لأجل الحساب ، والبعث : إحياؤهم من القبور للحشر .

ومجيء هذا الفعل ماضياً بعد المضارع ﴿ نسيّر ﴾ لتحقيق الحشر ، أو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ليعاينوا ويشاهدوا ماوعدوا ، وعلى هذا تكون الواو للحال بإضمار : قد ﴿ فلم نغادر ﴾ نترك ، يقال : غادره وأغدره : إذا تركه ، ومنه الغدر : وهو ترك الوفاء ، والغدير : ماغادره السيل .

﴿ وعرضوا على ربك ﴾ تشبيه حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ، لاليعرفهم ، بل ليأمر فيهم . ﴿ صفاً ﴾ مصطفين ، كل أمة صف ، لايحجب أحد أحداً . ﴿ لقد جئتمونا ﴾ على إضمار القول على وجه يكون حالاً ، أي قائلاً أو عاملاً في ﴿ يوم نسيّر ﴾ . ﴿ كما خلقناكم أول مرة ﴾ أي فرادى حفاة عراة ، لاشيء معكم من المال والولد ، لقوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ [الأنعام ٦/٩٤] .

﴿ بل زعمتم ﴾ أي ويقال لمنكري البعث ذلك ، و﴿ بل ﴾ : للخروج من قصة إلى أخرى . ﴿ أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ وقتاً للبعث والنشور ، لانجاوز الوعد .

﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي جعل كتاب كل إنسان في يده حين الحساب ، في يمينه للمؤمنين وفي شماله للكافرين . ﴿ مشفقين ﴾ خائفين . ﴿ ويقولون ﴾ عند معاينتهم مافيه من السيئات . ﴿ ياويلتنا ﴾ ﴿ يا ﴾ : للتنبيه ، و﴿ ويلتنا ﴾ : هلاكنا ، وهو مصدر لافعل له من لفظه ، أي ياهلاك أقبل ، فهذا أوانك . ﴿ صغيرة ولا كبيرة ﴾ من ذنوبنا . ﴿ إلا أحصاها ﴾ عدّها وأثبتها ، وهو تعجب منه في ذلك . ﴿ ووجدوا ماعملوا حاضراً ﴾ مثبتاً في كتابهم ، أو مسطوراً في كتاب كل واحد منهم . ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ لا يتجاوز ماحدّه من الثواب والعقاب ، فلا يعاقب أحداً بغير جرم ، ولا ينقص من ثواب مؤمن .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى خساسة الدنيا وزوالها ، وشرف القيامة ودوامها ، وأن التفاخر ليس بالأموال ، بل بالعمل الصالح ، أردفه بأحوال القيامة ، وما فيها من أخطار وأهوال ، وتغير معالم الأرض والحشر ، والعدل المطلق في رصيد أعمال الناس جميعاً بكتُب وصحائف شاملة ، يتبين منها أن أساس النجاة : هو اتباع ما أمر به الدين ، وترك مانهى عنه .

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن أهوال القيامة وما فيها من الأمور العظام وهي :

أ ـ ﴿ ويوم نسيّر الجبال .. ﴾ أي واذكر يامحمد حين نذهب بالجبال من أماكنها ، ونزيلها ، ونبددها كالسحاب هباء منثوراً ، كما قال تعالى :

﴿ ويسألونَك عن الجبالِ ، فقل : يَنْسِفُها ربّي نَسْفاً ﴾ [طه ١٠٥/٢٠] وقال : ﴿ وبُسَّتِ الجبالُ بَسّاً ، فكانت هباءً منبَثّاً ﴾ [الواقعة ٥/٥٦ ـ ٦] وقال : ﴿ يوم تكونُ السماءُ كالْمُهْل ، وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ ﴾ [المعارج ٨/٧٠ ـ ٩] أي كالصوف المندوف المنفوش .

وهذا يدل على تبدل الحال ، وتغير الوضع الذي كان في الدنيا ، وإزاحة الجبال من مواضعها ، وجعلها هباءً منتشراً كالسحاب .

٢ ـ ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ أي وتنظر أيها الإنسان جميع الأرض ظاهرة بادية ، ليس فيها مَعْلم لأحد ، ولا مكان يواري أحداً ، بل الخلق كلهم في صعيد واحد ، صافون أمام ربهم ، لاتخفى عليه خافية . وهذا معنى قوله تعالى في آية نسف الجبال السابقة : ﴿ فيذرُها قاعاً صَفْصفاً ، لاترى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً ﴾ [طه ١٠٦/٢٠ ـ ١٠٧] أي تصبح الأرض سطحاً مستوياً ، لاارتفاع فيها ولا انخفاض ، ولا جبل ولا وادي .

هذان الأمران تسيير الجبال وتسوية الأرض متعلقان بشأن الدنيا .

٣ ـ ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ أي وجمعنا الأولين والآخرين للحساب وجمعناكم إلى الموقف ، فلم نترك منهم أحداً ، لاصغيراً ولا كبيراً ، كما قال تعالى : ﴿ قل : إن الأوّلين والآخِرين لمجموعونَ إلى ميقاتِ يَوْمٍ معلوم ﴾ [الواقعة ٤٩/٥٦ ـ ٥٠] وقال : ﴿ ذلك يومٌ مَجْموعٌ له الناسُ ، وذلك يومٌ مَشْهودٌ ﴾ [هود ١٠٣/١١] . أخرج الإمام مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُحشَرُ الناسُ يوم القيامة حُفَاة عُراةً غُرْلاً[1] ، فقلت : يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض » .

---

(١) غُرْلاً ، أي غير مختونين ، والغُرْلَة : القُلْفة

وفي رواية للنسائي : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » وهذا الأمر يدل على إثبات الحشر .

٤ ـ ﴿ وعُرِضوا على ربِّك صفاً ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ أي ويعرض البشر قاطبة أمام الله صفاً واحداً ، كما قال سبحانه : ﴿ وجاءَ ربُّك والملَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر ٢٢/٨٩] .

لقد أتيتم إلينا أيها الناس جميعاً أحياء ، كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة في الدنيا ، حفاة عراة ، لاشيء معكم ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فُرادى ، كما خَلَقْناكُم أولَ مرّةٍ ، وتركتُم ما خوّلناكم وراءَ ظُهورِكم ﴾ [الأنعام ٩٤/٦] .

وهذا تقريع لمنكري المعاد ، وتوبيخ لهم أمام الناس ، وهو إثبات لمبدأ العرض للحساب على الله تعالى ، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم :

﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ أي بل ظننتم أنه لالقاء لكم مع الله ، وما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أنه كائن .

٥ ـ ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ أي ووضع كتاب الأعمال : أعمال الناس من خير أو شر ، صغير أو كبير ، فترى العصاة المجرمين خائفين مما فيه من أعمالهم السيئة ، وأفعالهم القبيحة . والمراد بالكتاب : الجنس ، وهو صحف الأعمال .

﴿ ويقولون : ياويلتنا ، مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ أي ويقول أولئك المجرمون : ياحسرتنا وويلنا على مافرطنا في أعمالنا ، وما لهذا الكتاب لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ، ولا شاردة ولا واردة إلا أحصاها ، أي ضبطها وحفظها ، فهو شامل لكل شيء ، كما قال تعالى : ﴿ إذ يتلَقّى المتلَقّيانِ . عن اليمينِ وعن الشّمال قعيدٌ ، ما يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلا لَدَيْه رقيبٌ

عتيدٌ ﴾ [ق ١٧/٥٠ ـ ١٨] . ﴿ وإن عليكم لحَافِظِين ، كِرَاماً كاتبين ، يَعْلَمون ماتَفْعلون ﴾ [الانفطار ١٠/٨٢ ـ ١٢] .

والآية تدل على إثبات صغائر وكبائر في الذنوب ، وهذا متفق عليه بين المسلمين .

﴿ ووجدوا ماعملوا حاضراً ﴾ أي ووجد الناس ماعملوا مثبتاً في كتابهم ، من خير أو شر ، وقيل : جزاء ماعملوا ، كما قال تعالى : ﴿ يومَ تجدُ كلُّ نَفْسٍ ماعَمِلتْ من خَيْرٍ مُحْضَراً ، وما عَمِلَتْ من سُوءٍ ﴾ [آل عمران ٣٠/٣] وقال سبحانه : ﴿ ينبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّمَ وأخَّر ﴾ [القيامة ١٣/٧٥] .

﴿ ولا يَظْلِمُ ربُّك أحداً ﴾ ليس في حكم الله أي ظلم لخلقه ؛ إذ مبدأ الثواب والعقاب مما يقتضيه العدل الإلهي المطلق ، حتى يكافأ المحسن ، ويجازى المسيء ، بل إنه تعالى بمقتضى رحمته يعفو ويصفح ، ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء من خَلْقه بقدرته وحكمته وعدله ، فيُخلِّد الكفار في نار جهنم ، ويعذب العصاة فيها ، ثم ينجّيهم منها ، وحكمه في كل حال العدل ، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم ، فلا يكتب على إنسان مالم يعمل ، ولا يزيد في عقاب المستحق ، أو يعذبه بغير جرم .

ونحو الآية : ﴿ إن اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ، وإن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْها ﴾ [النساء ٤٠/٤] ، ﴿ ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ ، فلا تُظْلَم نفسٌ شيئاً ، وإن كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أتيْنَا بها ، وكَفَى بنا حاسبينَ ﴾ [الأنبياء ٤٧/٢١] .

وهذه الآية تبين خاتمة مراحل الحساب بين يدي الله ، القائم على مبدأ : أن الجزاء من جنس العمل ، وأن صحائف أعمال الناس تشمل الحسنات والسيئات .

فقه الحياة أو الأحكام :

الآيات تبين بداية القيامة ونهاية الحساب ، فتبدأ في بيان تغيير معالم الدنيا من تسيير الجبال ، أي إزالتها من أماكنها على وجه الأرض ، وتسييرها كما يُسيِّر السحاب ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ وهي تمرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل ٨٨/٢٧] ثم تكسر فتعود إلى الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وبُسَّتِ الجبالُ بَسّاً ، فكانتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً ﴾ وتصبح الأرض بارزة ظاهرة ، ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان ؛ لاجتثاث ثمارها ، وقلع جبالها ، وهدم بنيانها .

ثم تأتي مرحلة الحشر أي الجمع إلى الموقف ، فلا يترك أحد ويجمع جميع المخلوقات في صعيد واحد ، للحساب أمام الربّ تبارك وتعالى .

إنهم يعرضون صفاً بعد صف ، كالصفوف في الصلاة ، كل أمة وزمرة صفّ ، لأنهم صف واحد . أخرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْدَه في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامةو بصوت رفيع غير فظيع : ياعبادي ، أنا الله ، لاإله إلا أنا ، أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين .

يا عبادي ، لاخوف عليكم اليوم ، ولا أنتم تحزنون ، أحضِرُوا حجتكم ، ويسّروا جواباً ، فإنكم مسؤولون محاسبون .

يا ملائكتي ، أقيموا عبادي صفوفاً ، على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

ويأتي الخلائق من قبورهم لموقف الحساب حفاة عراة ، لامال معهم ولا ولد ، كما جاؤوا من بطون أمهاتهم أثناء ولادتهم في الدنيا . وتعرض كتب أعمال العباد وصحائفهم ، بما فيها من صغائر وكبائر ، قال الأسدي : الصغيرة : مادون الشرك ، والكبيرة : الشرك .

قال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار : ويحك يا كعب ! حَدِّثنا من حديث الآخرة ؛ قال : نعم ياأمير المؤمنين ! إذا كانَ يوم القيامة ، رُفع اللوح المحفوظ ، فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله ، ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال الناس ، فتنثر حول العرش ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ووُضِعَ الكتابُ ، فترى المجرمين مُشْفِقين مما فيه .. ﴾ الآية .

ثم يدعى المؤمن ، فيعطى كتابه بيمينه ، فينظر فيه ، فإذا حسناته باديات للناس ، وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقول : كانت لي حسنات ، فلم تذكر ، فأحب الله أن يريه عمله كلّه ، حتى إذا استنقص ما في الكتاب وجد في آخره ذلك كله أنه مغفور ، وأنك من أهل الجنة ؛ فعند ذلك يقبل إلى أصحابه ثم يقول : ﴿ هآؤم اقرءوا كتابيَهْ ، إني ظننتُ أني مُلاقٍ حِسابِيَهْ ﴾ [الحاقة ١٩/٦٩ ـ ٢٠] .

ثم يدعى بالكافر ، فيعطى كتابه بشماله ، ثم يلف ، فيجعل من وراء ظهره ، ويُلْوى عنقه ؛ فذلك قوله : ﴿ وأما من أُوتِي كتابَه وراءَ ظَهْره ﴾ [الانشقاق ١٠/٨٤] فينظر في كتابه ، فإذا سيئاته باديات للناس ، وينظر في حسناته ، لكيلا يقول : أفأثاب على السيئات ؟![1] .

قصة السجود لآدم عليه السلام

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ۖ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ

(١) تفسير القرطبي : ٤١٩/١٠

نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

الإعراب :

﴿ كان من الجنّ ﴾ حال ياضمار قد ، واستئناف للتعليل كأنه قيل : ما له لم يسجد ؟ فقيل : كان من الجن .

﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ فاعل ﴿ بئس ﴾ : مضمر فيها ، و ﴿ بدلاً ﴾ تمييز مفسّر لذلك المضمر ، أي بئس البدل للظالمين ذرّية إبليس . و ﴿ للظالمين ﴾ فصل بين ﴿ بئس ﴾ وما انتصب به ، واستدل به المبرّد على جواز الفصل بين فعل التعجب وما انتصب به في نحو قولهم : ما أحسنَ اليوم زيداً . والمقصود بالذم : ذرية إبليس ، وحذف لدلالة الحال عليه .

البلاغة :

﴿ أفتتخذونه وذريته ﴾ ؟ الهمزة للإنكار والتعجيب .

المفردات اللغوية :

﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ أي اذكر . ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ سجود انحناء ، تحية وإكراماً له ، اعترافاً بفضله . وقد تكرر الأمر بالسجود لآدم في مواضع ، لكونه مقدمة للأمور المقصود بيانها في تلك الحال ، وهنا لما شنع الله تعالى على المفتخرين بأموالهم واستقبح صنيعهم ، قرر أن ذلك من سنن إبليس ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ إذا اعتبر الجن نوعاً من الملائكة فالاستثناء متصل ، وإلا فهو استثناء منقطع ، وإبليس : أبو الجن ، فله ذرية ، والملائكة لا ذرية لهم . ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ خرج عن طاعة ربه أو عما أمره به ربه ، بترك السجود . ﴿ أفتتخذونه وذريته ﴾ الخطاب لآدم وذريته ، والهاء في الموضعين لإبليس ، والذرية : الأولاد أو الأتباع ، وسماهم ذرية مجازاً . ﴿ أولياء من دوني ﴾ تطيعونهم . ﴿ عدو ﴾ أعداء ، والعدو : يطلق على الواحد والجمع . ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ إبليس وذريته في إطاعتهم ، بدل إطاعة الله .

﴿ ما أشهدتهم ﴾ أي إبليس وذريته . ﴿ ولا خلق لأنفسهم ﴾ أي لم أحضر بعضهم خلق بعض .

﴿ وما كنت متخذ المضلين ﴾ الشياطين . ﴿ عضداً ﴾ أعواناً ، والعضد في الأصل : ما بين المِرْفَق إلى الكتف ، ويستعمل بمعنى المعين ، كاليد ونحوها ، وهو المراد هنا . أي لم أستعن بالشياطين في الخلْق ، فكيف تطيعونهم ؟ وهو رد لاتخاذهم أولياء من دون الله ، شركاء له في العبادة ، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقية . ووضع ﴿ المضلين ﴾ موضع الضمير ذمّاً لهم ، واستبعاداً للاعتضاد بهم .

﴿ ويوم يقول ﴾ اذكر . ﴿ نادوا شركائي ﴾ الأوثان وغيرها . ﴿ الذين زعمتم ﴾ أنهم شركائي أو شفعاؤكم لينعوكم من عذابي : وإضافة الشركاء على زعمهم للتوبيخ . ﴿ فدعوهم ﴾ فنادوهم للاستغاثة . ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ فلم يغيثوهم أو لم يجيبوهم . ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ بين الأوثان وعابديها ، أو بين الكفار وآلهتهم . ﴿ مَوْبِقاً ﴾ مهلكاً يشتركون فيه ، وهو النار ، أو وادٍ من أودية جهنم ، يهلكون فيه جميعاً ، أو حاجزاً بينهم . ﴿ فظنوا ﴾ فأيقنوا . ﴿ أنهم مواقعوها ﴾ أي واقعون فيها ، وداخلوها . ﴿ مصرفاً ﴾ معدلاً أو مكاناً ينصرفون إليه .

المناسبة :

هناك تشابه بين فعل المشركين سابقاً ، وافتخارهم بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين ، وبين فعل إبليس الذي تكبر على آدم ؛ لأنه افتخر بأصله ونسبه ، وقال : خلقتني من نار ، وخلقته من طين ، فأنا أشرف منه في الأصل والنسب ، فكيف أسجد وأتواضع له ؟ والمشركون قالوا : كيف نجلس مع هؤلاء الفقراء ، مع أنّا من أنساب شريفة ، وهم من أنساب نازلة ، ونحن أغنياء وهم فقراء . وهذه هي طريقة إبليس ، فذكرت قصته هنا تنبيهاً على وجود التشابه ، والله تعالى حذر من هذه الطريقة ومن الاقتداء بها .

وتكرار قصة إبليس في مواضع من القرآن : إنما هو لما يناسب المقصود ، ولما يحقق الفائدة ، ففي كل موضع تساق لفائدة مغايرة لما ذكرت في مواضع أخرى .

التفسير والبيان :

هذا تنبيه لبني آدم على عداوة إبليس لهم ، ولأبيهم من قبلهم ، وتقريع لمن اتبعه منهم ، وخالف خالقه ومولاه ، فقال :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. ﴾ أي واذكر لهم يا محمد إذ أمرنا جميع الملائكة بالإلهام أن يسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام ، تكريماً للنوع الإنساني ، كما ذكر مراراً في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، منها : في سورة البقرة : ﴿ وإذ قُلْنا للملائكةِ : اسْجُدوا لآدمَ ، فَسَجَدُوا إلا إبليسَ أَبَى واستكبرَ ، وكَانَ من الكافِرينَ ﴾ [٣٤] ، ومنها في سورة الحجر : ﴿ وإذ قالَ ربُّك للملائكةِ : إني خَالِقٌ بَشَراً من صَلْصالٍ من حَمأ مَسْنونٍ . فإذا سوّيتُه ونفختُ فيه من رُوحي ، فقَعُوا لهُ ساجِدينَ ﴾ [٢٨ ـ ٢٩] ، ومنها في سورة الكهف : ﴿ وإذ قلنا للملائكة : اسْجُدوا لآدمَ ، فَسَجدُوا إلا إبليسَ كانَ منَ الْجِنِّ ﴾ [٥٠] .

وسبب إباء إبليس السجود لآدم : اغتراره بأصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور ، وخلق آدم من تراب ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة مرفوعاً : « خلقت الملائكة من نور ، وخُلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » ، وبان من الآية السابقة أن إبليس من الجن ، كما بان من آية أخرى أنه خلق من نار ، وخلق آدم من طين ، كما قال : ﴿ أنا خيرٌ منه ، خَلَقْتَني من نارٍ ، وخلَقْتَه من طينٍ ﴾ [ص ٧٦/٣٨] .

قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصلُ الجن ، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر .

﴿ كان من الجن ﴾ أي أن سبب عصيانه أنه كان من عنصر الجن ، فلم يعمل مثل ما عملوا ، لذا قال :

﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ أي فخرج عن طاعة الله ، فإن الفسق هو الخروج ، يقال : فسقت الرطبة : إذا خرجت من أكمامها أو قشرها ، ودل هذا على أن فسقه بسبب كونه من الجن أي الشياطين ، وشأن الجن التمرد والعصيان ، لخبث ذواتهم . والخلاصة : أن قوله تعالى : ﴿ كان من الجن ﴾ كلام مستأنف

جارٍ مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين . وقوله : ﴿ ففسق .. ﴾ الفاء للتسبيب أيضاً ، جعل كونه من الجن سبباً في فسقه ؛ لأنه لو كان ملَكاً لم يفسق عن أمر ربه ؛ لأن الملائكة معصومون ، على عكس الجن والإنس .

وأما ماذكر في آية أخرى أنه من الملائكة ، فلا يعارض هذه الآية ؛ لأنه قد يطلق على الملائكة أنهم جن لاستتارهم عن أعين الناس .

ثم عقب الله تعالى على القصة بقوله :

﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ؟ ﴾ أي أنه تعالى يعجب ممن يطيع إبليس وجنده في الكفر والمعاصي ، ويحذر من اتباعه بعدما عرف موقفه من أبيهم آدم ، ويوبخ ويقرع من اتَّبعه وأطاعه ، متخذاً له ولجنده ونسله نصراء من دون الله ، وبدلاً عنه ، لذا قال :

﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ أي بئس البدل للكافرين الظالمين أنفسهم وهو اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله ، وهو المنعم عليهم .

ومما يدل على أن إبليس ليس من الملائكة أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلاً في هذه الآية ، والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل ، فوجب ألا يكون إبليس من الملائكة .

ثم سلب الله تعالى الولاية عمن دونه من الشركاء والأبالسة ، فقال :

﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ الذي ذهب إليه الأكثرون أن المعنى : ما أشهدت الذين اتخذتموهم أولياء من الشركاء خلق السموات والأرض ، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ، ولا كانوا موجودين عند خلق السموات والأرض . وهؤلاء الشركاء هم الذين وسوس لكم إبليس في شأنهم ، حتى اتخذتموهم شركاء لي .

ورجح الرازي أن الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول ﷺ : إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء ، لم نؤمن بك ، فكأنه تعالى قال : إن هؤلاء الذين اقترحوا هذا الاقتراح الفاسد ، ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم[1] .

﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ أي وما كنت متخذ الضالين المضلين أعواناً وأنصاراً ، والخطاب للرسول ﷺ ، والمعنى : وما صح لك الاعتضاد بهم ، وما ينبغي لك أن تعتز بهم ، فإنهم إذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق ، فالكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة ؟

ثم يخبر الله تعالى عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً ، فيقول :

﴿ ويوم يقول : نادوا شركائي الذين زعمتم ، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ أي واذكر لهم أيها الرسول مايحدث وقت الاجتماع في يوم الجمع في القيامة ، حيث يقول الله للكافرين تأنيباً وتوبيخاً : نادوا لنصرتكم من زعمتم أنهم شركائي ، لينقذوكم مما أنتم فيه ، فدعوهم ، فلم يجيبوهم بشيء ، ولم ينفعوهم في شيء ، كما قال تعالى : ﴿ وما نَرَى معكم شُفَعَاءَكُمُ الذينَ زَعَمْتُمْ أنَّهم فيكُمْ شُرَكاءُ ، لقدْ تَقَطَّعَ بينكم ، وضلَّ عنكُمْ ما كُنْتُم تَزْعُمونَ ﴾ [الأنعام ٩٤/٦] .

﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ أي وجعلنا بين المشركين وآلهتهم المزعومة مكاناً سحيقاً ومهلكاً ، أي موضعاً للهلاك ، وهو نار جهنم أو وادٍ في جهنم ، وقال ابن عباس : الموبق : الحاجز ، وقال ابن الأعرابي : كل شيء حاجز بين شيئين فهو موبق . والمعنى أن الله تعالى بيَّن أنه لاسبيل لهؤلاء المشركين ، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا ، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير .

---

(١) تفسير الرازي : ١٣٨/٢١

﴿ ورأى المجرمون النار ، فظنوا ﴾ ـ والظن هنا بمعنى العلم واليقين ـ ﴿ أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي إذا عاين المشركون النار ، تحققوا لا محالة أنهم واقعون فيها ، ومخالطوها وداخلون فيها حتماً لا محالة ، ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي معدلاً ، والمعنى ليس لهم طريق ولا مكان يعدل بهم عنها ، ولا بدّ لهم منها ؛ لإحاطتها بهم من كل جانب . ذكر ابن جرير عن أبي سعيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الكافر ليرى جهنم ، فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ كرم الله تعالى أبانا آدم عليه السلام والجنس البشري بأجمعه بأمره الملائكة أن تسجد له في بدء الخليقة سجود تحية وتكريم ، لا سجود عبادة وتقديس .

٢ ـ أذعن الملائكة كلهم جميعاً لأمر السجود فسجدوا إلا إبليس الذي كان من عنصر الجن أبى السجود وفسق عن أمر ربه وخرج عن طاعة الله تعالى .

٣ ـ تضمن رفض إبليس السجود عداوته للإنسان ، لذا وبخ تعالى كل من اتخذ الشيطان وأتباعه أولياء : أعواناً ونصراء ؛ لأنهم أعداء ، والعدو لا ينصر من عاداه ولا يؤتمن على نصرته . وكذلك تضمن الرفض التكبر على آدم والترفع عليه ، لمّا ادعى أن أصله أشرف من أصل آدم ، إذ هو من نار ، وآدم من طين ، فوجب أن يكون هو أشرف من آدم ، فكأنه تعالى قال لأولئك الكافرين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بشرف نسبهم وعلو منصبهم : إنكم في هذا القول اقتديتم بإبليس في تكبره على آدم . لكل ماذكر بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الله ، أو بئس إبليس بدلاً عن عبادة الله تعالى .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته ﴾ يدل على إثبات ذرية إبليس ، وهو دليل على أن لإبليس زوجة ؛ لأن الذرية لاتكون إلا من زوجة . وقال قوم : ليس له أولاد ولا ذرية ، وذرّيته : أعوانه من الشياطين . قال القشيري أبو نصر : والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعاً وذرّية ، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم ، وهم أعداؤهم ، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم ، وحدوث الذرية عن إبليس ، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح .

والذي ثبت في هذا الموضوع ماذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن سلمان قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها ، فبها باض الشيطان وفرّخ » قال القرطبي : وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه ، والله أعلم .

٥ ـ لم يستعن الله تعالى بأحد في خلق السموات والأرض ، ولم يكن أحد موجوداً عند الْخَلْق ، ولم يشهد المشركين وإبليس وذريته الْخَلْق ، أي لم يشاورهم في خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، بل خلقهم على ما أراد ، ولا يصلح المخلوقون اتخاذهم أولياء من دون الله تعالى .

وهذا رد على طوائف من المنجّمين وأهل الطبائع والمتحكين من الأطباء وسواهم وكل من يخوض في هذه الأشياء .

كذلك لم يتخذ الله تعالى المضلين عضداً ، أي لم يتخذ الشياطين والكفار أعواناً ؛ لأنه تعالى لايحتاج إلى عون أحد . وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ .

٦ ـ هناك حاجز بين المؤمنين والكافرين ، وبين المشركين وآلهتهم المزعومة من الأوثان وغيرها يوم القيامة ، فلا ينتفع الكفار بمن أشركوا ، ولا يتمكنون من منع العذاب عنهم ، والكل هالكون في جهنم .

٧ ـ إذا عاين المشركون النار ظنوا أي تيقنوا أنهم مجتمعون فيها وواقعون فيها ، ولا يجدون عنها مَصْرِفاً ، أي مَهْرَباً ؛ لإحاطتها بهم من كل جانب .

ورجح الرازي في تفسير الظن : أن هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد ، فيظنون أنهم مواقعوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة ؛ لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها ، كما قال تعالى : ﴿ إذا رَأَتْهم من مكانٍ بعيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وزَفيراً ﴾ [الفرقان ١٢/٢٥]

بيان القرآن ومهمة الرسل وظلم المعرض عن الإيمان وسبب تأخير العذاب لموعد معين

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

الإعراب :

﴿ جدلاً ﴾ تمييز منقول من اسم ﴿ كان ﴾ ، والمعنى : وكان جدل الإنسان أكثر شيء فيه .

﴿ قُبُلاً ﴾ جمع قبيل ، حال ، أي ويأتيهم العذاب قبيلاً قبيلاً . وقيل : معناه مقابلة ، وهو معنى قراءة ﴿ قِبلاً ﴾ ـ بكسر القاف .

﴿ وما أنذروا ﴾ ﴿ ما ﴾ : مصدرية بمعنى إنذارهم في موضع نصب عطفاً على ﴿ آياتي ﴾ ، أي : واتخذوا آياتي وإنذاري إياهم هزواً . و ﴿ هزوا ﴾ : مفعول ثانٍ لاتخذوا . ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ موصولة وعائد الصلة محذوف .

﴿ وتلك القرى أهلكناهم ﴾ ﴿ تلك ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ القرى ﴾ : صفة لتلك ، و ﴿ أهلكناهم ﴾ : خبر المبتدأ . ﴿ لمَهْلِكهم ﴾ وقرئ : مُهْلَك ، ومَهْلَك ، ومَهْلِك ، الأول مصدر أهلك مثل مُكْرَم ، والثاني مصدر هَلَك مثل مَضْرَب ، والثالث اسم زمان ، أي لوقت مَهْلكهم .

البلاغة :

﴿ مبشّرين ﴾ ﴿ ومنذِرين ﴾ بينهما طباق .

المفردات اللغوية :

﴿ صرّفنا ﴾ بينا مع الترداد والتكرار . ﴿ من كل مَثَل ﴾ صفة لمحذوف ، أي مثلاً من جنس كل مثل ، ليتعظوا ، والمثل : الصفة الغريبة . ﴿ الإنسان ﴾ جنس الإنسان ، وخاصة الكافر ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ خصومة بالباطل ، وشيء هنا مفرد معناه الجمع ، أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدال . ﴿ وما منع الناس ﴾ أي كفار مكة ونحوهم . ﴿ أن يؤمنوا ﴾ مفعول ثان لمنع . ﴿ إذ جاءهم الهدى ﴾ القرآن . ﴿ سنةُ الأولين ﴾ فاعل تأتيهم ، أي سنتنا فيهم ، وهي الإهلاك المقدر عليهم ، وهو عذاب الاستئصال ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . ﴿ قُبُلاً ﴾ جمع قبيل ، أي أنواعاً وألواناً ، وقرئ ﴿ قِبلاً ﴾ أي مقابلة وعياناً ، كالقتل يوم بدر .

﴿ إلا مبشّرين ﴾ للمؤمنين . ﴿ ومنذِرين ﴾ مخوفين للكافرين . ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ بقولهم : أبعث الله بشراً رسولاً ونحوه من اقتراح الآيات . ﴿ ليدحضوا به الحق ﴾ ليبطلوه ويزيلوه ، مأخوذ من إدحاض القدم أي إزلاقها وإزالتها عن مكانها ، ويقال : دَحَضَتْ حجته : بطلت ﴿ واتخذوا آياتي ﴾ يعني القرآن . ﴿ وما أنذروا ﴾ أي وإنذارهم أو والذي أنذروا به من العقاب . ﴿ هزواً ﴾ استهزاء وسخرية ، وأصله : هزؤاً .

﴿ فأعرض عنها ﴾ فلم يتدبرها ولم يتذكر بها . ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ ما عمل من الكفر

والمعاصي ولم يتفكر في عاقبتها . ﴿ أكنّة ﴾ أغطية . جمع كِنان ، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم . ﴿ أن يفقهوه ﴾ أن يفهموه ، أي كراهة أن يفقهوه ، أو من أن يفهموا القرآن ، أي فلا يفهمونه . وتذكير الضمير وإفراده مراعاة للمعنى . ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي ثقلاً في السمع ، يمنعهم أن يستمعوه حق استماعه ، أو فلا يسمعونه . ﴿ فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ أي بالجعل المذكور صار ميئوساً من اهتدائهم ؛ لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون ، ولشدة تصميم ، و ﴿ إذاً ﴾ : جزاء وجواب للرسول ﷺ ، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ﷺ ، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه ، و ﴿ أبداً ﴾ مدة التكليف كلها .

﴿ لو يؤاخذهم ﴾ في الدنيا . ﴿ لعجل لهم العذاب ﴾ فيها . ﴿ موعد ﴾ هو يوم القيامة . ﴿ موئلاً ﴾ ملجأ ومنجى . ﴿ وتلك القرى ﴾ أي أهلها وهي قرى عاد وثمود وقوم لوط ونحوهم . ﴿ لما ظلموا ﴾ كفروا كقريش بالتكذيب والمراء وأنواع المعاصي . ﴿ لمهلكهم ﴾ هلاكهم ، ومن قرأ بضم الميم وفتح اللام فمعناه لإهلاكهم . ﴿ موعداً ﴾ وقتاً معلوماً ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فليعتبروا بهم ، ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى الجواب على شبهات الكفار المبطلين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم ، أردف ذلك ببيان كثرة الأمثال في القرآن لمن تدبر فيها ، ومع تلك الأمثلة الواقعية والإجابات الشافية ، هؤلاء الكفار لا يتركون المجادلة الباطلة ؛ لأن الإنسان أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدال ، ثم هددهم تعالى على عدم الإيمان متسائلاً : هل هناك مانع يمنعهم من الإيمان إلا نزول عذاب الاستئصال ، أو مجيئه عياناً ؟ وأبان أن مهمة الرسل هي الجدال في الدين من طريق تبشير المؤمنين بالجنان وإنذار العصاة بالنار ، وأوضح أن أشد الناس ظلماً هو المعرض عن هداية القرآن ، ولله الفضل العظيم في تأخير العقاب عن الناس ، وتخصيصه بموعد ، لا يتجاوزه ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم .

التفسير والبيان :

﴿ ولقد صرفنا .. ﴾ أي ولقد بينا للناس في هذا القرآن ، ووضحنا لهم كل

مـا يحتـاجون إليـه من أمور دينهم ودنيـاهم ، كي يعرفـوا طريـق الحـق والهـدى ، ولا يضلوا عنه . وتصريف الأمثال يقتضي التكرار لمختلف وجوه البيان .

﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ أي ومع هـذا البيـان الشـافي والتوضيح الكافي ، فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعـارضـة للحق بـالبـاطل ، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة .

وهـذا دليل على كثرة الجـدال في الإنسـان وحبـه لـه ، لسعـة حيلتـه ، وقوة ذكائه ، واختلاف نزعاته وأهوائه .

وبالرغم من بيان القرآن ، وكثرة ما يشاهده الكفـار من الآيـات والـدلالات الواضحات ، فإنهم قوم متردون منذ القديم ، فقال تعالى : ﴿ ومـا منع النـاسَ أن يؤمنوا .. ﴾ أي وما منع المشركين من أهل مكة من الإيمان بالله ، حين شـاهـدوا البينات والأدلة الواضحة على وجود الله وتوحيده ، واستغفـار ربهم والتوبـة إليـه من ذنوبهم إلا طلبهم أحد أمرين :

إما أن تأتيهم سنـة الأولين القـدمـاء من إحـاطـة العـذاب بهم وإبـادتهم وهو عذاب الاستئصال ، كما قـال جمـاعـة لنبيهم : ﴿ ائْتِنَـا بعـذابِ اللهِ ، إنْ كنتَ من الصادقين ﴾ [العنكبوت ٢٩/٢٩] وقالت قريش : ﴿ اللهمَّ إن كانَ هـذا هو الحقَّ من عِنْدكَ ، فأمطرْ علينا حِجارةً من السماء ، أو ائْتِنَا بعذابٍ أليمٍ ﴾ [الأنفال ٣٢/٨] .

وإما أن يروا العذاب عياناً مواجهة ومقابلة .

والمعنى أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا ، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا[1] .

---

(١) تفسير الرازي : ١٤١/٢١

وقال في الكشاف : وما منع الناس الإيمان والاستغفار إلا انتظار أن تـأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ، أو انتظار أن يأتيهم عذاب الآخرة قُبُلاً أي عياناً[١] .

ومجيء العذاب بيد الله لا من قبل الرسول ، لذا قال تعالى :

﴿ ومـا نرسـل المرسلين إلا مبشرين ومنـذرين ﴾ أي إن مهمـة الرسـل إمـا تبشير من آمن بهم بالثواب على الطاعة ، وإما إنذار من كذبهم وخالفهم بـالعقـاب على المعصية لكي يؤمنوا طوعاً .

ومع هذه الأحوال يوجد الجدال بالبـاطل من الكفـار لـدحض الحق ، فقـال تعالى مخبراً عنهم :

﴿ ويجادلُ الذين كفروا بالباطل ليدحضوا بـه الحق ﴾ أي ويجـادل الكفـار جدالاً بـالبـاطل لا بـالحق ، ليضعفوا بجـدالهم الحق ، الـذي جـاءتهم بـه الرسل ، وليس ذلك بحـاصل لهم ، فهم يقترحون الآيـات بعـد ظهور المعجزات ، ويقولون للرسل : ﴿ مـاهـذا إلا بشرٌ مِثْلُكُم يريـدُ أنْ يتفضَّل عليكم ، ولو شـاءَ اللهُ لأنْزَل ملائكةً ﴾ [المؤمنون ٢٤/٢٣] .

﴿ واتخـذوا آيـاتي ومـا أنـذروا هُـزُواً ﴾ أي اتخـذوا آيـات الله وهي القرآن والحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل ، ومـا أنـذروهم وخوفوهم به من العذاب هزواً أي استهزاء وسخرية ، وهو أشد التكذيب ، وكل ذلـك يـدل على استيلاء الجهل والقسوة .

وبعد أن حكى الله تعالى عن الكفار جدالهم بالباطل ، وصفهم بعده بالصفات الموجبة للخزي والخذلان ، فقال :

---

(١) الكشاف : ٢٦٣/٢

الصفة الأولى :

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ، فأعرض عنها ، ونسي ماقدمت يداه ﴾ أي لاأحد أظلم ممن أعرض عن آيات الله ، ونسي ماقدم من الكفر والمعصية ، أو لا ظلم أعظم من كفر من يشاهد الآيات والبينات الدالة على الحق والإيمان ، ثم يعرض عنها ، ومع إعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ماقدمت يده من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة ، وعلى رأسها الكفر بالله ، والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم .

الصفة الثانية :

﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقراً ﴾ أي وعلة إعراضهم ونسيانهم بسبب جعل أغطية وغشاوة على قلوب هؤلاء ، لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ، وجعْل صمم معنوي في آذانهم عن الرشاد وسماع الحق وتدبره .

﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ أي وإن دعوت يا محمد هؤلاء إلى دعوة الحق والهداية والاستقامة ، فلن تجد منهم استجابة ، ولن يهتدوا بهديك هدي القرآن أبداً مهما قدمت من الدلائل وتأملت الخير منهم .

وذلك كله لفقدهم الاستعداد لقبول الإيمان والرشاد ، بما أصروا عليه من الكفر والعصيان ، كما جاء في آيات أخرى مثل قوله تعالى : ﴿ كلا ، بلْ رانَ على قلوبهم ما كانوا يَكْسِبون ﴾ [المطففين ١٤/٨٣] وقوله : ﴿ ختمَ اللهُ على قُلُوبهم وعلى سَمْعهم . وعلى أبصارِهم غِشاوةٌ ، ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ [البقرة ٧/٢] . وهذه الآيات هي في قوم علم الله أنهم سيموتون على الكفر من مشركي مكة .

ثم ذكر الله تعالى ما يتصف به من رحمة وحلم وإرجاء للعقاب عن العصاة ، وأنه لا يعجل لهم العذاب ، تاركاً الفرصة لهم ليتوبوا ، فقال :

﴿ وربُّك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ﴾ أي

وربك يا محمد غفور ستّار ، ذو رحمة واسعة ، لو يؤاخذ الناس فوراً بما كسبوا من السيئات واقترفوا من الخطيئات ، لعجل لهم العذاب في الدنيا ، على وفق أعمالهم . والغفور : البليغ المغفرة ، فهي صيغة مبالغة ، وذو الرحمة : الموصوف بالرحمة .

ونظير الآية قوله : ﴿ ولو يؤاخِذُ اللهُ الناسَ بما كَسَبُوا ، ماتَرَكَ على ظَهْرِها من دابّة ﴾ [فاطر ٤٥/٣٥] وقوله : ﴿ وإن ربُّك لَذُو مَغْفِرةٍ للناسِ على ظُلْمِهم ، وإن ربّك لشديدُ العقابِ ﴾ [الرعد ٦/١٣] .

ثم استشهد تعالى بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلاً من غير إمهال ، مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ ، فقال :

﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ أي إن الله أراد غير ذلك من تعجيل العذاب ، وجعل للعذاب موعداً حدده وهو إما يوم القيامة ، وإما في الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح ، لن يجدوا عنه ملجأ ومنجىً ، وليس له محيد ولا معدل عنه ، والخلاصة : أن تأخير العقاب أو العذاب إمهال لا إهمال .

وشاهد آخر : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ... ﴾ أي وتلك القرى ، أي أهلها من الأمم الغابرة ، كعاد وثمود ومدين وقوم لوط ، أهلكناهم لما ظلموا بسبب كفرهم وعنادهم ، وجعلنا لهلاكهم موعداً لا محيد عنه ، ومدة معلومة لاتزيد ولا تنقص ، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتم رسولكم ، ولستم بأعز علينا منهم . والمهلك : الإهلاك أو وقته ، والموعد : وقت أو مصدر . والمراد : إنا عجلنا هلاكهم ، ومع ذلك حددنا له وقتاً ، رجاء أن يتوبوا .

فقه الحياة أو الأحكام :

أوضحت الآيات المبادئ التالية :

١ ـ بيان القرآن من دلائل الربوبية والوحدانية ومن العبر والقرون الخالية بيان ضافٍ وافٍ محقق لغاية الاهتداء به على أكمل وجه .

٢ ـ الإنسان وبخاصة الكافر كثير الجدال والمجادلة لطمس معالم الحق ، والإبقاء على ما ارتضاه لنفسه من اتباع الأهواء ، وتقليد الأسلاف والآباء ، واحتضان الكفر ، والاحتفاظ بالزعامة الدنيوية والمكاسب المادية .

٣ ـ الإنسان قاصر النظر غالباً ، فما منع الناس بعد مجيء القرآن والإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام عن الإيمان واستغفار ربهم والإنابة إليه إلا معاينة أحد الأمرين : الإتيان بما هو عادة الأولين في عذاب الاستئصال ، ومعاينة العذاب ، كما طلب المشركون فعلاً ، وقالوا : ﴿ اللهمَّ إن كان هَـذَا هُـو الحقَّ من عِنْـدِك ، فأمطرْ علينا حِجارةً من السماء ، أو ائْتِنَا بعذابٍ أليمٍ ﴾ [الأنفال ٣٢/٨] . أو مجيء العذاب عِياناً مواجهة .

٤ ـ إن مجيء العذاب بيد الله وحده على وفق ما يرى من الحكمة والعدل ، وأما الأنبياء المرسلون فمهمتهم التبشير بالجنة لمن آمن ، والتخويف بالعذاب لمن كفر ، ومع كل هذه الدلائل الهادية إلى الرشاد يجادل الكفار بالباطل لدحض الحق وهو الإيمان بالله وبقرآنه ، والإبقاء على مهازل الكفر وأباطيله ، واتخاذ القرآن وما أنذروا به من الوعيد هزواً أي لعباً وباطلاً .

٥ ـ لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات ربه ، فتهاون بها وأعرض عن قبولها ، وترك كفره ومعاصيه ، فلم يتب منها ، فالنسيان بمعنى الترك .

٦ ـ علم الله من قوم معينين من أهل مكة ونحوهم أنهم لم يؤمنوا ، فأخبر

تعالى عنهم أنه منعهم من دخول الإيمان في قلوبهم وأسماعهم ، فلن تفلح معهم بعدئذ دعوة النبي ﷺ إلى الإيمان ، ولن يهتدوا أبداً إليه ، لإصرارهم على الكفر ، وفقدهم الاستعداد لقبول الهداية .

٧ ـ من صفات الله تعالى أنه الغفور لذنوب عباده ، الرحيم بهم إن آمنوا وتابوا وأنابوا إليه ، بدليل قوله : ﴿ إن اللهَ لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ، ويَغْفِرُ مادُونَ ذَلك لمن يشاءُ ﴾ [النساء ٤٨/٤] .

ومن رحمته ألا يعجل المؤاخذة أو العقاب على الكفر والمعاصي ، ولكنه يمهل ويؤخر ، رجاء أن يتوب العباد ، ويجعل للعذاب موعداً أي أجلاً مقدراً يؤخرون إليه ، كما قال : ﴿ لكل نبأ مُسْتَقَرٌ ﴾ [الأنعام ٦٧/٦] وقال : ﴿ لكلّ أجلٍ كتابٌ ﴾ [الرعد ٣٨/١٣] أي إذا حلّ لم يتأخر عنهم ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، ولا ملجأ ولا منجى للناس حينئذ من ذلك العذاب .

٨ ـ أهلك الله تعالى جماعة من أهل القرى الغابرة للعبرة والزجر نحو قرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط ، لما ظلموا وكفروا ، وجعل لهلاكهم وقتاً معلوماً وأجلاً محدداً لا يتجاوزوه .

قصة موسى عليه السلام مع الخضر

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا
نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا
مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا

ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۖ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ
مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ
تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ
ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا
قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ
أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

الإعراب :

﴿ سرباً ﴾ مفعول ثانٍ (لاتخذ) ومفعوله الأول ﴿ سبيله ﴾ .

﴿ أن أذكره ﴾ أن وصلتها في موضع نصب على البدل من هاء ﴿ أنسانيه ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان ، وهو بدل اشتمال . ﴿ عجباً ﴾ مفعول ثانٍ لاتخذ .

﴿ قصصاً ﴾ منصوب على المصدر بفعل مقدّر ، دل عليه ﴿ فارتدا ﴾أي فارتدا يقصان الأثر قصصاً . ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ مفعول ثانٍ . ﴿ على أن تعلمني ﴾ حال من كاف ﴿ أتبعك ﴾ .

﴿ مما عُلّمت رُشداً ﴾ ما : اسم موصول بمعنى الذي ، و ﴿ عُلّمت ﴾ : جملة فعليه صلة « ما » والعائد محذوف تقديره : من الذي عُلّمته رشداً ، فحذف الهاء وهي المفعول الثاني لعلّمت تخفيفاً ، و ﴿ رشداً ﴾ : المفعول الثاني لتعلّمني .

﴿ وكيف تصبر على مالم تحط به خُبراً ﴾ ﴿ كيف ﴾ : في موضع نصب على الظرف ، وعامله ﴿ تصبر ﴾ و ﴿ خُبراً ﴾ : منصوب على المصدر بفعل دل عليه . ﴿ مالم تحط به ﴾ وتقديره : مالم تخبره خُبْراً .

البلاغة :

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ تنكير . ﴿ عبداً ﴾ للتفخيم ، والإضافة في ﴿ عبادنا ﴾ للتشريف .

﴿ حُقُباً ﴾ ﴿ سرباً ﴾ ﴿ نصباً ﴾ ﴿ عجباً ﴾ سجع يناسب أواخر الآيات .

المفردات اللغوية :

﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ واذكر حين قال موسى بن عمران نبي بني إسرائيل لفتاه يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليهم السلام الذي كان يتبعه ويخدمه ويتعلم منه . ﴿ لاأبرح ﴾ لا أزال سائراً . ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ حتى أصل ملتقى بحري فارس والروم (ملتقى المحيط الهندي والبحر الأحمر عند مضيق باب المندب) مما يلي المشرق . وقيل : إنه ملتقى بحر الروم والمحيط الأطلسي عند طنجة (ملتقى البحر الأبيض المتوسط عند مضيق جبل طارق أمام طنجة) . ﴿ أو أمضي حُقُباً ﴾ دهراً طويلاً في بلوغه إن بعُد ، والحُقُب : جمع حِقْبة وهو زمان من الدهر غير محدود ، قيل : ثمانون سنة ، وقيل : سبعون .

﴿ مجمع بينهما ﴾ مكان الاجتماع بين البحرين . ﴿ نسيا حوتهما ﴾ نسي يوشع حمله عند الرحيل ، ونسي موسى تذكيره . ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً ، مثل السرب : وهو الشق الطويل لانفاذ له ، فصار الماء عليه كالقنطرة ، قيل : أمسك الله جرية الماء على الحوت ، فصار كالطاقي عليه .

﴿ فلما جاوزا ﴾ ذلك المكان بالسير إلى وقت الغداء من اليوم الثاني . ﴿ قال ﴾ موسى . ﴿ لفتاه : آتنا غداءنا ﴾ الغداء : هو ما يؤكل أول النهار ، والمراد به هنا : الحوت . ﴿ نصباً ﴾ تعباً وإعياء .

﴿ قال : أرأيت ﴾ أي تنبّه . ﴿ إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ أي أرأيت مادهاني ، إذ لجأنا إلى الصخرة بذلك المكان ، التي رقد عندها موسى . ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ فقدته أو نسيت ذكره . ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان ، وهو اعتذار عن نسيانه بشغل الشيطان له بوساوسه . ﴿ واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ أي اتخذ الحوت طريقاً عجباً أي يتعجب منه موسى وفتاه .

﴿ قال : ذلك ماكنا نبغ ﴾ قال موسى : ذلك أي فقد الحوت هو الذي كنا نطلبه ، فإنه علامة لنا على وجود من نطلبه . ﴿ فارتدا ﴾ رجعا . ﴿ على آثارهما ﴾ أي على طريقهما الذي جاءا منه . ﴿ قصصاً ﴾ أي يقصان الطريق قصصاً ، أي يتبعان آثارهما اتباعاً ، أو مقتصين ، حتى أتيا الصخرة .

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ هو في رأي الجمهور الخضر ، واسمه بَلْيا بن مَلْكان . ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ أي ولاية ، في رأي أكثر العلماء ، وقيل : وحياً ونبوة . ﴿ وعلّمناه من لدنا علماً ﴾ من قبلنا معلوماً من المغيبات .

﴿ هل أتّبعك على أن تعلّمني ﴾ على شرط أن تُعلّمني . ﴿ مما عُلّمت رشداً ﴾ أي تعلمني بعض ماعلمت علماً ذا رشد ، أو صواباً أرشد به ، والرشد : إصابة الخير . ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من غيره مالم يكن شرطاً في أبواب الدين ، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليه ، فيما بعث به من أصول الدين وفروعه ، لامطلقاً . وقد راعى موسى في ذلك الطلب للتعلم غاية التواضع والأدب ، فاستجهل نفسه ، واستأذن أن يكون تابعاً للعبد الصالح ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ماأنعم الله عليه ؛ لأن الزيادة في العلم مطلوبة .

﴿ مالم تُحط به خُبْراً ﴾ علماً بالشيء ومعرفة ، ومنه الخبير : العالم بدقائق العلم ، والمعنى : مالم تخبر حقيقته . ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ أي وغير عاص لك أمراً تأمرني به ، وقيد الوعد على الصبر بالمشيئة ؛ لأنه لم يكن على ثقة من نفسه فيما التزم ، وهي عادة الأنبياء ألا يثقوا بأنفسهم طرفة عين . وفيه دليل على أن أفعال العباد واقعة بمشيئة الله تعالى .

﴿ فلا تسألني عن شيء ﴾ تنكره مني في علمك ، أي فلا تفاتحني بالسؤال عن شيء أنكرته مني ، ولم تعلم وجه صحته . ﴿ حتى أحدث لك منه ذِكْراً ﴾ بياناً ، أي حتى أبتدئك ببيانه ، وأذكره لك بعلته ، فقبل موسى شرطه ، رعاية لأدب المتعلم مع العالم .

﴿ فانطلقا ﴾ يمشيان على ساحل البحر . ﴿ ركبا في السفينة ﴾ التي مرت بهما . ﴿ خرقها ﴾ ثقبها الخضر ، بأن اقتلع لوحاً أو لوحين منها من جهة البحر بفأس ، حينما سارت في ثَبَج البحر ولُجّته . ﴿ قال : أخرقتها ﴾ قال له موسى : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ؟ ﴾ فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها ، المفضي إلى غرق أهلها . ﴿ لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ أتيت أمراً عظيماً منكراً ، من أمِر الأمرُ ، أي عظم وكثر ، روي أن الماء لم يدخلها .

﴿ لاتؤاخذني بما نسيت ﴾ بالذي نسيته أو بشيء نسيته ، يعني وصيته بأن لا يعترض عليه ، وهو اعتذار بالنسيان ، أخرجه في معرض النهي عن المؤاخذة مع قيام المانع لها . ﴿ ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ لاتكلفني عسراً ومشقة ، في صحبتي إياك ، أي عاملني بالعفو واليسر .

﴿ فانطلقا ﴾ بعد خروجهما من السفينة يمشيان ﴿ حتى إذا لقيا غلاماً ﴾ لم يبلغ الحنث ، يلعب مع الصبيان ، وكان أحسنهم وجهاً ﴿ فقتله ﴾ الخضر ، إما بالذبح بالسكين ، أو باقتلاع رأسه بيده بفتل عنقه ، أو الضرب برأسه الحائط ، أقوال مروية . وأتى بالفاء العاطفة هنا للدلالة على أنه لما لقيه قتله من غير تروّ واستكشاف حال ﴿ قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ﴾ ؟ أي قال موسى مستنكراً ـ وهو جواب إذا ـ كيف تقتل نفساً طاهرة من الذنوب ، لم تبلغ حد التكليف ، وقرئ ﴿ زاكية ، بغير نفس ﴾ أي بغير حق من قصاص لك عليها ﴿ لقد جئت شيئاً نكْراً ﴾ أي لقد ارتكبت شيئاً منكراً ، والمنكر : الذي تنكره العقول والنفوس .

المناسبة :

بعد أن ذكر الله قصة أصحاب الكهف لإثبات قدرته على البعث ، وذكر أمثلة ثلاثة لتقرير حقيقة أن الحق والعزة والعلو لا ترتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما بالعقيدة والإيمان ، ليدرك تلك الحقيقة المشركون الذين افتخروا على فقراء المؤمنين ، وأبوا مجالستهم ، بعد هذا أردف الله تعالى بقصة ثانية هي قصة موسى مع الخضر ، ليتعلم منه العلم ، وذلك ليفهم المشركون أن موسى النبي كليم الله مع كثرة علمه وعمله ، أُمر أن يتعلم من العبد الصالح الخضر ، مما يدل على أن التواضع خير من الكِبْر .

قصة موسى والخضر في السنة النبوية :

روى البخاري ومسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسُئل ، أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فَعَتب الله عز وجل عليه ، إذْ لم يردَّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين ، هو أعلم منك ، قال موسى : يارب ، فكيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً ، فتجعله في مِكْتل (قفة) فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّ ، فانطلق موسى ، ومعه فتاه ـ يوشع بن نون ـ حتى إذا أتيا الصخرة ، وضعا رؤوسهما ، فناما واضطرب الحوت في المِكْتل ، فخرج منه ، فسقط في البحر ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سَرَباً ﴾ .

وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ ، نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً ﴾ ـ قال : ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ـ فقال فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ .

قال : فكان للحوت سَرَباً ، ولموسى وفتاه عجباً ، فقال موسى : ﴿ ذلك ماكنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قَصصاً ﴾ قال : رجعا يقصان آثارهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا هو مسجَّىً بثوب ، فسلّم عليه موسى ، فقال الخضر ، وأنى بأرضك السلام[1] ! من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك لتعلمني مما عُلّمت رشداً ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ .

يا موسى ، إني على علم من علم الله ، لا تعلمه ، علّمنيه ، وأنت على علم من علم الله علّمكه ، لا أعلمه ، فقال موسى : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ، ولا أعصي لك أمراً ﴾ فقال له الخضر : ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً ﴾ .

فانطلقا يمشيان على الساحل ، فمرت سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر ، فحملوهم بغير نَوْل ـ أي أجر ـ فلما ركبا السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم ، فقال له موسى : قوم قد حملونا بغير نول ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها : ﴿ لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسياناً ، وجاء عصفور ، فوقع على حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك

(١) أي من أين السلام في هذه الأرض التي لا سلام فيها ؟

من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله ، فقال له موسى : ﴿ أقتلتَ نفساً زَكِيَّةً بغير نفسٍ ، لقد جئت شيئاً نُكْراً ﴾ قال : ﴿ ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ قال سُفيان : وهذه أشدُّ من الأولى .

﴿ قال : إن سألتك عن شيء بعدها ، فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيِّفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ ﴾ فقال الخضر بيده هكذا ـ أي أشار بيده ـ فأقامه ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ قال الخضر : ﴿ هذا فراق بيني وبينِك ، سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً ﴾ .

قال رسول الله ﷺ : يرحم الله موسى ، لوددت أنه كان صبر ، حتى يقص الله علينا من أخبارهما » .

التفسير والبيان :

هذه هي القصة الثالثة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة بعد قصة أصحاب الكهف ، وصاحب الجنتين والأموال ، وهي تلتقي أيضاً مع ما ذكره الله تعالى من تشبيه الحياة الدنيا بماء السماء ، وتفاخر الناس بالمال والبنين ، كما تلتقي معهما في نبذ الافتخار والتكبر والتعالي على الآخرين ، ليكون ذلك درساً بليغاً وعظة لرؤساء قريش الذين طلبوا تخصيص مجلس لهم ، وطرد الفقراء والمستضعفين من الجلوس معهم في مجلس النبي ﷺ أنفةً وكبرياء واستعلاء ، فقال تعالى :

﴿ وإذ قال موسى لفتاه ..﴾ أي واذكر أيها النبي حين قال موسى لفتاه لا أزال سائراً حتى أصل إلى المكان الذي فيه مجمع البحرين ، ولو أني أسير حقباً أي دهراً من الزمان . والحقب : ثمانون أو سبعون سنة ، والمراد : زمان غير محدود من الدهر .

والمقصود بموسى في رأي أكثر العلماء هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة .

وفتاه : هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام ، وقد كان خادماً لموسى ، ويسمى الخادم فتى في لغة العرب .

و ﴿ مجمع البحرين ﴾ : هو مكان اجتماع البحرين وصيرورتها بحراً واحداً ، وهما في رأي الأكثرين بحر فارس والروم ، أي ملتقى البحر الأحمر بالمحيط الهندي عند باب المندب ، وقيل : إنه ملتقى بحر الروم والمحيط الأطلنطي ، أي ملتقى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي عند مضيق جبل طارق عند طنجة . وهو المكان الذي وعد فيه موسى بلقاء الخضر .

﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ أي فلما وصلا مجمع البحرين مكان اللقاء مع العبد الصالح ، نسيا حوتهما ، فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً ، وغطاه الماء ، حتى صار كالقنطرة عليه ، وكان ذلك للحوت سرباً ، ولموسى وفتاه عجباً .

﴿ فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ أي فلما تجاوز موسى وفتاه يوشع مجمع البحرين حيث نسيا الحوت فيه ، وسارا بقية اليوم والليلة ، وفي اليوم التالي في ضحوة الغد أحس موسى بالجوع ، فقال لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا تعباً من ذلك السفر .

وذلك أن موسى كان قد أمر بحمل حوت مملّح معه ، وذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم مالم يحط به موسى ، فأحب الرحيل إليه ، وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثمة ، وسار هو وفتاه ، حتى بلغا مجمع البحرين ، وكان الحوت في مِكْتل (قفة) مع يوشع عليه السلام ، فسقط في البحر ، وجعل يسير في الماء .

وعودة الحياة للحوت بعد موته كانت معجزة لموسى عليه السلام ، علامة على مكان وجود الخضر . والخضر : هو لقب العبد الصالح الذي أمر موسى بالتعلم منه ، واسمه بَلْيا بن مَلْكان ، والأصح أنه لم يكن نبياً .

﴿ قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ .

أي قال له فتاه : أرأيت[1] أي أخبرني ما وقع لي حين لجأنا إلى الصخرة في مجمع البحرين ؟ فإني نسيت أن أخبرك بما حدث من أمر الحوت ، فإنه قد اضطرب وعاد حياً ووقع في البحر ، وما أنساني ذكر ذلك إلا الشيطان ، واتخذ الحوت مسلكه في البحر عجباً . والمراد بالنسيان : اشتغال قلب الإنسان بوساوس الشيطان التي هي من فعله .

﴿ قال : ذلك ماكنا نبغِ ﴾ أي قال موسى : هذا هو الذي نطلب ؛ لأنه أمارة الفوز بما نقصد .

﴿ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ أي رجعا على طريقهما يقصان آثار مشيهما ،

---

(١) همزة ﴿ أرأيت ﴾ همزة الاستفهام ، و ﴿ رأيت ﴾ على معناه الأصلي ، وإدخال الهمزة عليه للتعجب ، فإن المتعارف بين الناس أنه إذا حدث لأحدهم أمر عجيب قال لصاحبه : أرأيت ما حدث لي ؟

ويقفوان أثرهما . قال البقاعي : إن هذا يدل على أن الأرض كانت رملاً لا علامة عليها .

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلَّمْناه من لدنا علماً ، قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمنِ مما عُلِّمت رشداً ﴾ أي وجد موسى وفتاه عند الصخرة في مجمع البحرين حين عادا إليها عبداً صالحاً من عباد الله ، قال الأكثرون : إن ذلك العبد هو الخضر ، وكان مسجىً بثوب أبيض ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنَّى بأرضك السلام ؟! وقوله : ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ يدل على أن تلك العلوم حصلت له من عند الله من غير وساطة .

فقال : أنا موسى ، قال : موسى بن إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال : هل أصحبك وأرافقك لتعلمني مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح ؟ وهذا سؤال تلطف وأدب ، لا إلزام فيه ولا إجبار ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

فأجابه الخضر : ﴿ قال : إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ أي قال الخضر لموسى : إنك لن تقدر على مصاحبتي ، ولن تطيق صبراً ما تراه مني ؛ لأني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله ، علمكه لا أعلمه ، وكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، فلا تقدر على صحبتي .

﴿ وكيف تصبر على مالم تحط به خُبْراً ﴾ أي وأؤكد لك أنك لن تصبر على شيء تراه مني ، ولم تطلع على حكمته ومصلحته الباطنة وحقيقة أمره التي اطلعت أنا عليها دونك . فقوله : ﴿ خبراً ﴾ أي لم يحط به خبرك ، ولم تُلِمَّ بوجه الحكمة فيه وطريق الصواب .

﴿ قال : ستجدني إن شاء الله صابراً ، ولا أعصي لك أمراً ﴾ أي قال موسى : ستجدني بمشيئة الله صابراً على ما أرى من أمورك ، ولا أخالفك في شيء .

﴿ قال : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ أي قال الخضر شارطاً على موسى بقوله : إن سرت معي ، فلا تسألني عن أمر يحدث ، حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني .

قصة السفينة :

﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ﴾ أي فانطلق موسى وصاحبه مع الخضر ، انطلقا يمشيان على ساحل البحر ، يطلبان سفينة ، فمرت بهما سفينة ، فكلَّمَا أصحابها أن يركبا فيها معهم ، فعرفوا الخضر ، فحملوهما بغير أجر ، تكرمة للخضر ، فلما ركبوا وسارت بهم السفينة في وسط البحر ، قام الخضر بخرقها بفأس ، مستخرجاً لوحاً من ألواحها ، ثم رقعها .

﴿ قال : أخرقتها لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ أي لم يتمالك موسى عليه السلام نفسه وقال منكراً عليه : أخرقتها لتغرق[1] أهلها ، أي ليصير الخرق سبباً في إغراق أهلها ، لقد جئت شيئاً عظيماً منكراً .

﴿ قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ أي قال الخضر لموسى : ألم أقل سابقاً لك ياموسى : إنك لن تتمكن من الصبر معي على ما ترى مني من أفعال .

﴿ قال : لا تؤاخذني بما نسيت ، ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ أي اعتذر موسى للخضر قائلاً : لا تؤاخذني بنسياني ، أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة ، ولا تكلفني أمراً شاقاً عسيراً علي ، أي لا تعسر علي متابعتك ، ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة .

---

(١) اللام لام العاقبة أو الصيرورة ، لا لام التعليل .

قصة الغلام :

﴿ فانطلقا ، حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ أي ثم خرجا من السفينة ، وسارا يمشيان على الساحل ، فأبصر الخضر غلاماً ـ وهذا يشمل الشاب البالغ ـ يلعب مع الغلمان ، فقتله بفتل عنقه أو بضرب رأسه بالحائط ، أو بغير ذلك ، فقال موسى : أتقتل نفساً طاهرة من الذنوب ، طيبة لم تخطئ ، بغير قتل نفس أي بغير قصاص ؟ وخص موسى هذه الحالة من مبيحات القتل ؛ لأنها أكثر وقوعاً . ﴿ لقد جئت شيئاً نُكْراً ﴾ أي لقد أتيت شيئاً منكراً . والنكر في حال القتل أعظم قبحاً من الإمر في حال خرق السفينة ؛ لأن قتل النفس أعظم جرماً من خرق السفينة ؛ إذ قد لا يحصل الغرق .

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه رحلة موسى بن عمران نبي بني إسرائيل مع فتاه يوشع عليهما السلام للقاء العبد الصالح وهو الخضر عليه السلام ، لتعليمه التواضع في العلم ، وأنه وإن كان نبياً مرسلاً ، فقد يكون بعض العباد أعلم منه .

وفي هذا من الفقه : رحلة العالم لطلب الازدياد من العلم ، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب ، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء ، وإن بَعُدت أقطارهم ، كما كان دأب السلف الصالح .

ونفع هذه القصة بوجه خاص في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار : هو أن موسى عليه السلام ، مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه ، ذهب إلى الخضر ، لطلب العلم مع التواضع له ، وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر .

ونفع هذه القصة مع قصة أصحاب الكهف : هو أن اليهود قالوا لكفار

مكة : إن أخبركم مُحَمَّد ﷺ عن هذه القصة فهو نبي ، وإلا فلا ، مع أنه لا يلزم من كونه نبياً من عند الله تعالى أن يكون عالماً بجميع القصص والوقائع ، كذلك لم يمنع كون موسى عليه السلام نبياً صادقاً من عند الله أن يأمره الله بالذهاب إلى الخضر ، ليتعلم منه .

ودل قوله : ﴿ آتنا غداءنا ﴾ على تعليم الناس اتخاذ الزاد في الأسفار ، ولا يتنافى ذلك مع التوكل على الله تعالى ، فهذا موسى نبي الله وكليمه قد اتخذ الزاد ، مع معرفته بربه ، وتوكله على رب العباد .

وكان انقلاب الحوت حياً معجزة لموسى عليه السلام ، وعلامة على مكان وجود العبد الصالح ، لذا قال موسى فرحاً لما أخبره فتاه بالأمر : ﴿ ذلك ماكنا نبغ ﴾ أي قال موسى لفتاه : أمر الحوت وفقده هو الذي كنا نطلب ، فإن الرجل الذي جئنا إليه موجود هناك .

والعبد الصالح على الصحيح هو الخضر ، وهو نبي في رأي جماعة كثيرين بدليل ما يأتي[1] :

١ ـ أنه تعالى قال : ﴿ آتيناه رحمةً من عندنا ﴾ والرحمةُ هي النبوة ؛ لقوله تعالى : ﴿ أهم يَقْسِمُون رَحمةَ ربِّك ﴾ [الزخرف ٣٢/٤٣] وقوله : ﴿ وما كنتَ تَرْجُو أن يُلْقَى إليك الكتابُ إلا رَحمةً من ربِّك ﴾ [القصص ٨٦/٢٨] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ وعلَّمناه من لدنا علماً ﴾ وهذا يقتضي أنه تعالى علمه لا بواسطة معلم ، ولا إرشاد مرشد ، وكل من علمه الله لا بواسطة البشر ، وجب أن يكون نبياً يعلم الأمور بالوحي من الله تعالى .

---

(١) تفسير الرازي : ١٤٨/٢١ ، تفسير القرطبي : ١٦/١١

٣ ـ قال موسى عليه السلام : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علمت رشداً ﴾ والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم .

والراجح أن الخضر لم يكن نبياً وإنما هو عبد صالح كما قرر علماء الكلام (التوحيد) . والاستدلال بهذه الأدلة ضعيف ، أما الدليل الأول : فلا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة ، فرحمة الله تعالى وسعت كل شيء . وأما الدليل الثاني : إن العلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله ، وذلك لا يدل على النبوة . وأما الدليل الثالث : فلا مانع يمنع النبي من اتباع غير النبي في العلوم التي لا تتعلق بالنبوة .

ودل قوله ﴿ هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علمت رُشداً ﴾ على أن المتعلم تبع للعالم ، وإن تفاوتت المراتب ، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ؛ لأن الفضل لمن فضله الله ، فإن كان الخضر ولياً فموسى أفضل منه ، وإن كان نبياً فموسى فضله الله بالرسالة . ولقد كان موسى عليه السلام محقاً في إنكاره على العبد الصالح ؛ لأن الأنبياء لا يقرّون على منكر ، ولا يجوز لهم التقرير ، لذا علّق صبره على ما يحدث من أمر في المستقبل على مشيئة الله ، وأنه لا يدري كيف يكون حاله ، لا أنه عزم الصبر على المعصية .

وقد ذكر الرازي في قول موسى : ﴿ هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾ أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر ، ذكر منها اثني عشر نوعاً ، منها : أنه جعل نفسه تبعاً له ، واستأذن في هذه التبعية ، وأقر على نفسي بالجهل بقوله ﴿ تعلمنِ ﴾ وعلى أستاذه بالعلم ، وصرح بأنه يطلب الإرشاد والهداية .

وكان قول الخضر : ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ أي حتى أكون أنا الذي أفسره لك ، تأديباً وإرشاداً لما يقتضي دوام

الصحبة ، فلو صبر ودأب لرأى العجب ، لكنه أكثر الاعتراض ، فتعين الفراق .

وفي خرق السفينة دليل على أن للولي أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحاً ، كأن يخاف ظالماً على ما يملكه ، فيخرّب بعضه . وقال أبو يوسف : يجوز للولي أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض .

وفي قول موسى ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ ما يدل على أن النسيان لا يقتضي المؤاخذة ، وأنه لا يدخل تحت التكليف ، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره ، ولو نسي مرة ثانية له أن يعتذر أيضاً .

وقتل النفس أشد من خرق السفينة ، لذا قال موسى في القتل : ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ وقال في الخرق ﴿ لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ والنكر أعظم قبحاً من الإمر ، كما تقدم .

وكان عتاب الخضر في المرة الثانية أشد ، لقوله ﴿ ألم أقل لك ﴾ وزيادة ﴿ لك ﴾ لزيادة التأنيب والتقريع على عدم الصبر في المرة الثانية .

ويأتي تمام القصة وما يستنبط منها في الجزء التالي بمشيئة الله .

تم هذا الجزء ولله الحمد

فهرس
الجزء الخامس عشر

الموضوع	الصفحة
سورة الإسراء	٥
تسميتها وفضلها ومناسبتها لما قبلها	٥
مااشتملت عليه السورة	٧
الإسراء وإنزال التوراة على موسى عليه السلام	٩
سبب نزول آية الإسراء ، ورأي العلماء في الحادث	١١
أحوال بني إسرائيل في التاريخ	١٩
أهداف القرآن الكريم	٢٧
التذكير بنعم الله في الدنيا ودلائل القدرة الإلهية	٣٠
جزاء من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة	٤١
أصول المجتمع المسلم : التوحيد أساس الإيمان وترابط الأسرة المسلمة دعامة المجتمع	٤٨
أصول أخرى لنظام المجتمع الإسلامي	٦٤
خاتمة معبرة لتلك الأصول	٧٧
تقريع من نسب الولد والشريك إلى الله تعالى	٨١
حماية النبي ﷺ من أذى المشركين إذا قرأ القرآن	٨٧
إنكار المشركين البعث والردّ عليهم	٩٢
مجادلة المخالفين باللين وبالتي هي أحسن	٩٧
تفنيد آخر لشبهات المشركين	١٠٣

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الموضوع	الصفحة
قصة آدم مع إبليس ـ أمر الملائكة بالسجود	١١٤
أحوال الناس مع قادتهم يوم القيامة	١٢٧
محاولة المشركين فتنة النبي ﷺ وطرده من مكة	١٣٢
أوامر وتوجيهات وتعليمات للنبي ﷺ	١٣٩
إعجاز القرآن الكريم	١٥٧
اقتراح المشركين إنزال إحدى آيات ست	١٦٢
من شبهات المشركين ـ بشرية الرسل وإنكار البعث	١٦٨
الآيات التسع لموسى عليه السلام وصفة إنزال القرآن	١٧٨
دعاء الله بالأسماء الحسنى	١٨٨
سورة الكهف	١٩٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	١٩٦
ما اشتملت عليه السورة	١٩٧
فضل هذه السورة	١٩٩
كيفية الحمد والثناء على الله تعالى ومهام القرآن العظيم	٢٠٠
قصة أصحاب الكهف	٢٠٧
إجمال القصة	٢١٦
تفصيل القصة	٢١٧
زمنهم أو عصرهم	٢١٨
إصرارهم على توحيد الله	٢١٩
تنديدهم بعبادة قومهم الأصنام	٢٢٠
العزلة بينهم وبين قومهم	٢٢٠
حالهم في الكهف وانحسار الشمس عنهم	٢٢١
مكان الكهف	٢٢١

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الموضوع	الصفحة
قدرة الله تعالى وعنايته ولطفه	٢٢٢
بعثتهم من نومهم صحاح الأبدان بعد ٣٠٩ سنوات	٢٢٤
الوكالة في شراء الطعام	٢٢٤
اطلاع الناس عليهم	٢٢٥
آراء القوم في شأنهم بعد اطلاعهم عليهم	٢٢٦
عددهم	٢٢٦
إرشاد للنبي ﷺ ولأمته بتعليق الخبر بمشيئة الله	٢٢٨
مدة لبثهم في الكهف	٢٢٩
توجيهات للنبي ﷺ وللمؤمنين ـ تلاوة القرآن والصبر على مجالسة الفقراء وإظهار كون الحق من عند الله	٢٣٧
صاحب الجنتين ـ مثل الغني المغتر بماله والفقير المعتز بإيمانه	٢٤٧
مثل الحياة الدنيا	٢٥٨
تسيير الجبال والحشر وعرض صحائف الأعمال يوم القيامة	٢٦٣
قصة السجود لآدم عليه السلام	٢٦٩
بيان القرآن ومهمة الرسل وظلم المعرض عن الإيمان وسبب تأخير العذاب لموعد معين	٢٧٧
قصة موسى عليه السلام مع الخضر	٢٨٥
قصة موسى والخضر في السنة النبوية	٢٨٩
١ـ قصة السفينة	٢٩٥
٢ـ قصة الغلام	٢٩٦

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى